Princeton University Library
32101 063973877

This Book is Due

Annex

Paul Doumer

Kitāb al-tanbīh

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من اراد ان يعلم مبلغ ترقي الأمم او تدليها فلينظر قبل كل شيء الى اخلاق كل أمةٍ سواء كانت من الأمم الحاضرة أو البائدة نيرى كيف ان الاخلاق كانت وتكون ميزاناً للصعود والهبوط كميزان الحرارة (لترمومتر) يتأثر نزولاً وصعوداً لأدنى تغيير في حرارة الجو

كل شيء من المادة داخل تحت حكمها فكما يتأثر الزئبق بالحرارة يتأثر الانسان بكل ما له تأثير في النفس من مظاهر الطبيعة وتفاعيل التكوين، تكوين الافراد والجماعات كالجمال والقبح والمأكل والملبس والتربية والبيئة والحرارة والنور وبالجملة كل ما له علاقة بحياة الانسان النفسية والجسمانية ويظهر أثر ذلك كله في اخلاق الفرد والجماعة ظهوراً جليًّا لا مرية فيه

مثاله انك ترى في اخلاق الشعوب ذات الملابس المشمرة والسراويل الضيقة والاحزمة العريضة كبعض سكان البانيا والاناضول مثلاً من مظاهر الشجاعة والخيلاء والميل الى البطش ما لا تراه في سيماء غيرهم من اقوام آخرين، يظهر لك ذلك حتى في مشيهم وتخاطبهم وعاداتهم

(RECAP) 2269
924549 (Kitāb) '297
352

وانك لترى سكان البوادي القانعين ببسائط العيش المقتصرين على قليل من انواع الغذاء كالحليب ونواتجه من كرم الخلق وصفاء الضمير والاستعداد الفطري لقبول الخير والتهذيب ما لاتراه في غيرهم من اهل الحضارة وسكان القصور المترفين

وعلى هذا فقس الاختلاف والتباين في الاخلاق بين الافراد والجماعات بنسبة اختلاف الاسباب والمؤثرات ، وهـذا يؤيد ان لهذه المؤثرات فعلاً أكيداً في الاخلاق يأخذ بالانسان صعوداً وهبوطاً كما تأخذ الحرارة بميزان الزئبق (لترمومتر) . لذا قلنا ان ميزان الامم في الترقي والتدلي هي الاخلاق فكلما نزلت الاخلاق في شعب درجة نزل عن اوج سعادته مثلها ، وقد اجمع علماء الاجتماع على ان رومة لم يهـدم اركان مجدها ويذهب بسلطان أهلها الاَّ فقدهم صفات الرجولية والشجاعة وحب الوطن حب من يعمل لمنفعته وتسرب الفساد الى اخلاقهم بتفشي الرذائل بينهم وانصرافهم الى الترف وانغماسهم في الشهوات حتى لقد ألف بعض الباحثين كتباً في (آخر ايام رومة) تصور حالة اهلها تصويراً استدعى تحريم قرائتها في بيوت الأسر عند العالم المتمدن اليوم وحظرت بعض الحكومات المتمدنة لهذا العهد بيعها فلا يتناولها الاَّ الولعون بالبحث عن اخبار الأمم وسير الماضين ، لأن مطلق قراءتها فيـه مفسدة للاخلاق فما بالك بأمة كانت تلك حالها

وليست رومة وحدها التي أصيبت بهذا الداء فكان مصيرها الى التدلي ثم الى الانحلال والاضمحلال بل هناك ممالك وأمم كثيرة يصح أن تذكر مثالاً على ما تقدم ، واقربهـا عهداً الاندلس التي بلغت على عهد الدولة العربية وفي اواسط مدتها مبلغاً من الترقي جعلها غرة في

جبين الممالك لذلك العهد في الشرق والغرب عَلَى ما يعلم تفصيل الخبر عن ذلك الواقفون عَلَى التاريخ ، حتى اذا طرق الفساد الى اخلاق أهلها اخذت بالتراجع والهبوط عن مرتقى مجدها فبلغت حضيض المهانة ودفن مجدها في الثرى وزالت مدنيتها من الوجود

لا جرم ان امراض النفوس فتاكة بالانسانية كامراض الاجسام لهذا عني اطباء الاجتماع بمداواتها كعناية اطباء الاجسام بمداواة عللها حتى كان من اغراض الشرائع الالهية والوضعية ايضاً ومقاصدها الاولى تقويم الاخلاق وتطهير النفس الانسانية من ادران الشرور وما زال ايضاً دأب حكماء البشر واطباء النفوس تعهد اخلاق الشعوب بالمعالجة وموالاتهم بالنصح والارشاد منذ عرف التاريخ الى اليوم

ولقد تعددت طرائق الاخلاقيين ومذاهب الحكماء والمصلحين في تقويم الاخلاق ومعالجة ادواء النفوس فاستند قدماء المصريين الى عقيدة خلود الروح وتعرضها للثواب والعقاب فاتخذوا طريقة الوعد والوعيد مقوّماً لاخلاق الناس زاجراً عن الشر ، وعني حكماء اليونانيين بفلسفة الاخلاق فتكلموا عَلَى قوى النفس واستعدادها للخير والشر وتقسيم اصول الفضائل والرذائل وعَلَى ان الانسان تقوّم اخلاقه بالتربية والمران عَلَى الفضائل وكتب علماؤهم كثيراً في الحث عَلَى تطهير الاخلاق وتقويمها

وممن اشتهر منهم في علم الاخلاق او سياسة النفس وتربيتها كما اصطلحوا عليه ارسطو وافلاطون وفيثاغورس وغيرهم

اما الرومانيون فقد اعتمدوا عَلَى الزواجر القانونية دون التربية الروحية فلم تصبر حياتهم الاجتماعية كثيراً على مصادمة الرذائل التي

تتولد في المدنيات المادية كما تتولد الجراثيم في قرارات الاقذار

ثم جاء الاسلام جامعاً بين الزواجر القانونيـة والتربية الروحية فنحا علماء الاخلاق منحاه في سياسة النفوس وتهذيبها فجمعوا بين طرائق الاقدمين ومذاهب القرآن الكريم وعنوا عناية عظيمة بفنون التربية الاخلاقية فوضعوا كثيراً من كتب الاخلاق على طرائق شتى ربما كانت ترجع الى اقسام ثلاثة : القسم الاول (آداب الشريعة) والقسم الثاني (فلسفة الاخلاق) والقسم الثالث (مقتضى العقل والرأي)

وهناك قسم جامع بين الآداب الشرعية وفلسفة الاخلاق وهو مذهب الصوفية . وقسم جامع بين الآداب الشرعية ومقتضى العقل وهو مذهب بعض العلماء

اما القسم الاول فالذين كتبوا فيه كثيرون وأطولهم باعاً الامـام الغزالي فله كتاب الاحياء الذي يعد أعظم كتاب كتب في تقويم الاخلاق وتهذيب النفوس وحملها على التأدب باداب الشريعة الاّ انه نحا فيه منحى صعباً قلّ من يستطيع العمل بطريقته في تقويم الاخلاق الاّ من ندر من بعض الافراد . ففائدته تكاد تكون لخاصة المتزهدين دون عامة الناس ولو اختصر اختصاراً يوافق مقتضى الحال والحاجة لكانت فائدته أعم

وممن كتبوا في آداب الشريعة ايضاً الراغب الاصفهاني وله كتاب (الذريعة الى مكارم الشريعة) ومع انه نحا فيه منحى الفلسفة فقد جاء افضل كتاب في بابه الا انه لا يخلو من هنات ربما اذا كانت توافق روح العصور الماضية لاتوافق روح العصر الحـاضر كقوله بوجوب حصر العلم وتعليمه في طبقة خاصة من أولي الافهام والخواص دون

الجهلة والعوام وانما الجأه الى ذلك تخصيصه لفظ العلم بالعلوم الدينية التي ربما كان فيها ما لا يحسن ان يتناول البحث فيه غير أولي العقل تفادياً من الوقوع في الزلل ثم الخطيئة ، ولو أطلق ولم يخصص واوجب تعلم العلم من حيث هو علم بكل ما يحتاج اليه الانسان من العلوم الاخرى لما وقع واوقع في ذلك الحرج ، لأن علوم الشريعة اذا كانت من فروض الكفاية التي يكفي ان يقوم بها البعض فان هناك علوماً يحتاج اليها الناس كافة ولا يقوم بدونها العمران البشري

وممن كتبوا في فلسفة الاخلاق وهو القسم الثاني ابن مسكويه وله كتاب (تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » وقد نحا فيه منحى الفلاسفة اليونانيين[1] في تقسيم الاخلاق والقوى التي تصدر عنها الافعال من رذائل وفضائل وكيفية امكان ارجاع هذه الافعال الى حد الوسط الذي هو فضيلة بين رذيلتين وعلاقة هذا الضرب من المباحث بفلسفة النفس اكثر من علاقته بعلم تقويم الاخلاق عَلَى ما أرى

وممن كتبوا في الاخلاق بمقتضى الرأي والعقل ابن سينا وله رسالة سماها (السياسة) واختصر فيها عَلَى سياسة المرء نفسه وآله وولده وخرجه ودخله وخدمه . وللفارابي رسالة مثلها وهما مفيدتان في بابهما الاَّ انهما مختصرتان جداً ولا تخلوان من آراء قديمة وأحسن منهما رسالة (مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق) لابن

---

(١) ومن هذا الضرب من كتب الاخلاق ما كتبه احد فلاسفة اليونانيين ايكزانفوس وله كتاب ربما اشبهه في طريقته كتاب تهذيب الاخلاق ولكتابه هذا ترجمة فرنساوية واسمه اخلاق ايكزانفوس
« *Les Caractêres xyanifos* »

حزم فاني والحق يقال لم اقف عَلَى كتاب كتبه العرب في الاخلاق افضل من هذه الرسالة وهي ان تكن غير جامعة لمطالب مثل هذا العصر الاّ انها موافقة لروحه وروح كل عصر حاوية من الحكم والنصائح المصفاة من كدورة الحشو والغموض عَلَى ما لا يحويه كثير من كتب الاخلاق ، يكاد شعور قارئها يلمس جملها لمساً بقوة تركيبها ومتانة اسلوبها وصحيح مغزاها ولا جرم فان ابن حزم مؤلفها من نوادر الأُمة الاسلامية ونوابغ علمائها الكبار

اما مذهب الصوفية في الاخلاق فغريب مزجوا فيه بين الفلسفة والشرع واتخذوا لأُنفسهم اسلوباً مستقلاً لا ينتفع به الا طائفة ممن درسوا هذا الفن لصعوبة المسلك الذي اتخذوه وغموض العبارة التي يستعملونها ، الا انهم مع ذلك عنوا عناية شديدة بتحليل الاخلاق وتشريحها تشريحاً فلسفيًّا بلغ الغاية من الدقة ومن اطلع عَلَى كتاب (الفتوحات) لمحيي الدين بن العربي ظهر له ذلك باجلى بيان

وأما القسم الجامع بين الآداب الشرعية ومقتضى العقل فممن كتب فيه الماوردي وله كتاب سماه (أدب الدنيا والدين) جمع فيه بين النصائح العقلية والشرعية وهو كتاب نفيس نافع وكذلك كتب ابن طلحة الوزير كتاب (العقد الفريد للملك السعيد) وهو غير كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه جمع فيه جملة صالحة من الحكم الدينية والنصائح السياسية مع ايراد الشواهد وضرب المثل باخلاق الرجال الكبار واعمالهم الدالة عَلَى سمو الخلق وحب الفضيلة الاّ انه والذي قبله لم يطرق المباحث التي طرقها علماء الاخلاق في هذا العصر فكانت مباحثهما دون الحاجه بالضرورة

روي عن الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز انه قال: يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور : ومدلول هذا الخبر وان كان الى الاقضية التشريعية أميل ، الاّ أن القوانين الشرعية انما هي مظهر من مظاهر الاخلاق في الأمة فهي تتكيف بتكيف الحاجة والعرف وتتوسع بتوسع الامم في العمران وتقدمها في الحضارة

فكلما كانت الاخلاق راقية كانت القوانين كذلك وبما أن الاخلاق دائماً عرضة لتأثير الحضارة فالأمم في حاجة مستمرة الى التربية الروحية التي تتبدل بتبدل اساليب المعيشة المدنية لما يحدث للأمم من وسائل الترف والبذخ الداعيين الى اطلاق النفس وراء الاهواء والشهوات وجنوحها الى استعمال اساليب الحيل والخديعة في الحصول عَلَى القدر الذي تحتاجه معيشة المترفين من المال

وحسب القارئ دليلاً عَلَى ذلك وعَلَى أن اساليب التربية الروحية اخذت تتبدل تبدلاً عظيماً لهذا العهد بتبدل اساليب التمدن الحديث أن يرى اهتمام علماء الاخلاق والتربية في الممالك المتمدنة بالبحث في اخلاق الأمم والتوسع في بيان اساليب التربية الروحية والعقلية توسعاً لم يبلغه الاقدمون من اليونان والعرب لان الحاجة الى التوسع دعت علماء هذا العصر لأن يطرقوا مباحث لم يطرقها من سبقهم من علماء التربية والاخلاق فكُتب سبنسر وادمون دمولان في التربية العقلية مثلاً وكتب صموئيل سميلز ويول دومر في التربية الروحية او الاخلاق هي غير ما كتب من عصرين فضلاً عن عدة عصور وطرق فيها من المباحث ما لم يطرقه الاولون

نضرب لك مثلاً هذا الكتاب الذي كتبنا له هذه المقدمة

وهو «كتاب البنين» لبول دومر فان المباحث التي طرقها وجعلها من الفضائل الاخلاقية لم يطرقها علماء العرب او اشاروا الى بعضها اشارة دون أن يتوسعوا فيها

مثاله انه وضع فصلاً في (الحرية والتسامح) حث فيه على احترام مبادئ الحرية والاحتفاظ بها باعتبار ان الحريه حق من حقوق الانسان وان من مكارم الاخلاق احترام الحقوق

ومن البديهي أن الأمة التي تتمكن منها عاطفة الحرية فتحتفظ بحقوق الحرية بضروبها كالحرية السياسية والحرية المدنية والحرية الادبية وما يتفرع عنها جديرة بان تكون ارقى الأمم اخلاقًا لانها ارقاهن معرفة بالواجب الذي تقوم بها المجتمعات

وقد حث على احترام حرية الضمير واعتبرها من اكبر الفضائل وحقه أن يعتبرها كذلك لانها اساس سعادة الشعوب الغربية المتمدنة لهذا العهد، كما أن عدم احترام الشعوب الشرقية لهذه الحرية كان سبب شقائها الى اليوم فهي في حرب دائمة بين المعتقدات. فرقت ابناء الوطن الواحد قدداً وجعلت بعضهم عدوّ بعض فأكلت الفضيلة من نفوسهم أكلاً وذهبت بألفتهم الاجتماعية شر مذهب

فالكلام على الحرية ومقدار علاقتها بالاخلاق خصوصاً حرية الوجدان وما يترتب عليها من دواعي الألفة والتعاون الذي هو أساس العمران لم يطرقه علماء الاخلاق من العرب على انهم أعظم من ابتلى بالشقاق الديني وعلى أن القرآن الكريم الذي استمدوا منه أكثر ما كتبوه في التربية الروحيه والفضائل النفسية أشار في عدة مواضع

منه الى وجوب احترام حريه الوجدان كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يضركم من ضلّ اذا اهتديتم » وكقوله تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله تعالى « ما أنت عليهم بمسيطر » الى غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة ومع هذا البيان الصريح في كتاب الله المنزل اعرض علماء المسلمين عن كثير من امثال هذه المباحث فيما كتبوه من الاخلاق مع شدة الحاجة اليها

ومثال آخر فصل وضعه مؤلف « كتاب البنين » في الحكومة الدستورية وجعل الاحتفاظ بها عنوان ترقي اخلاق الأمة

وقد قلت فيما سبق أن القوانين مظهر من مظاهر اخلاق الأمة ولو عني اسلافنا بمثل هذه المباحث وبثوا مباديها في روح الأمة واخلاقها لكان لهذا المظهر أثر كبير في تغيير شكل الحكومات الاسلامية من عصور مضت ولما بلغنا من الانحطاط في القوة والاخلاق والسياسة منزلة لا يؤسف معها على الحياة

لهذا كله ترى أن الأمم في حاجة شديدة اليوم الى الوقوف على ما يكتبه علماء التمدن الحديث في التربية والاخلاق لتحدي أهله في النافع من ذلك بما يلتئم مع روح الاقوام الشرقية وقد اخذ كتّابنا ومحبو العلم والفضيلة في أن يشعروا بهذه الحاجة وعمدوا الى ترجمة ما كتبه في التربية مثل العلامة ادمون دمولان والفيلسوف سبنسر فصار من الواجب لاتمام الحاجة ترجمة ما كتبه العلماء في الاخلاق ولقد أحسن الى العلم والوطن صديقنا الدائب على خدمة قومه ووطنه عبد الغني افندي العريسي بسده هذه الحاجة وقيامه بهذا الواجب بترجمته « لكتاب البنين » هذا للعلامة بول دومر فوجب عليّ وعلى كل

الناطقين بالضاد شكره ولا حاجة بنا الى الالمام بكل ما تضمنه هذا الكتاب من الفوائد في هذه المقدمة ، لأن قراءه اجدر منا بالحكم بعد اطلاعهم عليه وانتشاره بين ابناء العربية وعسى أن يتوفق كتابنا الى ترجمة كثير من امثاله (وامثال التربية) لسبنسر (والتربية الاستقلالية) للفونس اسكيروس (وسر تقدم الانكليز السكسونيين) لادمون دمولان التي نُقلت الى العربية وما شابه ذلك من الكتب النافعة التي تبين اساليب التربية الحديثة لقراء العربية والله ولي المصلحين

مصر رفيق العظم

كلمات موزرة

أطلع عَلَى الكتاب علّية المفكرين في سورية فكتبوا عنه ما خالجهم من التأثير وما تحققوا به من الفائدة لتهذيب الأُمة قالوا حفظهم الله :

تصفحت ما عنيت به من تعريب « كتاب البنين » فعلمت ان الله قد خار لك ان تكتب بما نحن في أشد الحاجة اليه من الاخلاق الفاضلة والعواطف الراقية التي لامندوحة لنا عنها ولا نهضة للأُمة الاّ بها ، وسرني وايم الله ما احكمته من بديع الاسلوب وسهولة اللفظ وانتساق الترتيب، وثلج صدري لما رأيته بك من سداد الرأي وجودة الاختبار فلقد ذخرت لرجال المستقبل كنزاً ثميناً يزكو بالانفاق ويعم نفعه سائر الافاق، أقرّ الله عيني بك وحاطك ورعاك انه ولي التوفيق

رئيس الكلية العثمانية

احمد عباس الازهري

اذا شئنا ان نبقى في عداد الأُمم الحية وان لانصبح خبراً من الاخبار يحكيه التاريخ وجب علينا ان نقدس مبدأ الاستقلال ونعرف قدر الحوزة ونرفع فوق كل شيء شعار الرابطة القومية ونقيم رسم الوطن عَلَى الوجوه التي يعلمها اهالي الاوطان البالغة شأو الحضارة ، وكل ذلك محتاج الى التربية الوطنية

العالية التي هي معرفة المرء واجباته نحو اسرته ووطنه، ففي هذا الباب يكون هذا الكتاب المسمى « كتاب البنين » من اوفى الوسائل بهذا الغرض السامي واجدر المصنفات بمطالعة النشء العثماني الذي لا ينكر افتقاره الى تسديد التربية الوطنية النافخة فيه روح الحياة، فقد حوى هذا التأليف لباب هذا المقصد الجليل وجاء من احفل الكتب بفوائد هذا العلم العملي الذي من تحقق به كان من أتم الرجال وافضل سكان المدنية الفاضلة، وقد تحرى مترجمه في تعريبه تنقيح العبارة وجودة السبك واسلوب العربية الفصيح البعيد عن منازع العجمة فقرن الى بلاغة معناه فصاحة لفظ حلت جيد الحسناء بالعقد الثمين، فهلم ايها النشء الى مطالعته ومطاوعته عسى يثمر غرسه في نفوسكم رجولية يتوقف عليها مستقبل وطنكم والله من وراء السداد

شكيب ارسلان

اطلعت عَلَى « كتاب البنين » تأليف بول دومر الذي عنيتم بترجمته ونشره بين ابناء لغتكم العربية . فتأكدت ان الكتاب ذو فائدة عظمى لكل مَن يطالعه وان شباننا في حاجة ماسة لما كان عَلَى شاكلته من الكتب التهذيبية الاخلاقية، فعسى أن يكون اول حلقة لسلسلة كتب عَلَى اسلوبه تتحفون بها البلاد فتخدمون ابناء وطنكم خدمة جلى فاسمحوا لي ان ابثكم عواطف الشكر

رئيس الكلية الاميركية

هورد بلس

خير ما يخرج للامة العربية اليوم شيء من كنوز الامم الغربية ففيها من كل ما يجدر بكبارنا ان يتدارسوه دع عنك صغارنا. نحن اذا نقلنا جزءاً صغيراً من تلك الحضارة الباهرة كان لنا منه مادة عظيمة في قيام جامعتنا ومدنيتنا وأجلّ الموضوعات بالعناية علم الاخلاق. فقد كتب فيه اجدادنا المصنفات الممتعة على طريقة ازمانهم والقليل الذي انتهى الينا مما يعجب و يطرب. وهكذا فعل الغربيون لعلمهم بان التربية مقدمة على التعلم ومن احرز شيئاً من ادب الدرس ولم يتأدب بادب النفس كان حرياً بان يعد شيطاناً مريداً، ولما كانت هذه الامة في بدء طفوليتها وجب ان نقدم لها باديء بدء كتب السير الفاضلة امثال «كتاب البنين» الذي عني الاخ بنقله الى اللسان العربي المبين زكاة فضله في زمن قلّ جداً من يخرجون زكوات عقولهم كما ندر من يخرجون زكوات اموالهم، وعسى ان يوفق الى نشر امثال امثاله لأمته بحول الله وحسن تسديده

محمد كرد علي

ان قوماً فتكت باخلاقهم ادواء النفس، ووطنّا أزمنت في احنائه امراض الاجتماع، حتى يأس الاصلاح من الآباء، وانقطع الرجاء من تقويم الامهات، فلم يبق لهم في الحياة أمل، ولا لهم امنية في البقاء، لحريّ بفضلائهم ان يدعموا متداعي الامل، ويحيوا ميت الرجاء، بالعناية بتهذيب البنات والاهتمام بتأديب البنين

لاجرم ان خدمة الامة بشيء من هذا القبيل، لتعظم في نظر الحكماء بحسب الحاجة اليها وبقدر النفع المترتب عليها، ولا غرو اذا قدر الفضلاء

جهد الصديق فيما بذله من العناية بترجمة « كتاب البنين » هذا حق قدره ووفوه من الاعتبار مستحق اجره فانه لجزيل بكل ثناء

وعسى أن يكون اول آثاره في نفوس قارئيه من النشء المستنير تسابق الهمم الى مثل هذه الخدم ، و يومئذ يفلح الوطن واهله وما ذلك على ارادة المريد بعزيز

عبد الباسط فتح الله

وجدنا «كتاب البنين» مشهد حكم وآداب وخير حنية للالباب، يشتمل على قواعد لتهذيب الاخلاق وتحسين احوال الحياة بعبارات نُسجت على منوال حسن البيان ، وهو من انفع الكتب للآباء والامهات والبنين والبنات . جاء مؤلفه بالحجج القاطعة على اثبات ان الحياة لا تصفو الا بصفاء الاخلاق وقوانين الآداب . وفصّل الكلام في الفضائل والرذائل وعاقبة كلٍّ من النوعين . وابان كثيراً من قوى العقل واعماله . وألم بتدبير المنزل وحسن السياسة ، والخلاصة ان مراعاة ما اورده من ضوابط الحكمة اس النجاح والعمران والقوة والكرامة وطيب العيش وتوثيق عرى الإخاء وتشييد صروح العدل والحرية على اثبت الاسس واوطد الاركان

فرنكلين هسكنس ابراهيم الحوراني

معرب الكتاب

مقدمة المؤلف

في

خلاصة الكتاب

ان ما تهذبه الكتاتيب والمدارس عَلَى اختلاف مدارجها في أنفس النشء تهذيبٌ ناقص لا يكمل الا بما توحيه الاسرة وتغرسه المطالعة وتستخلصه الفكرة والروية متى بلغ العقل اشده

فمن لم تشغله دواعي الحياة عن ان يوالي الدرس الى عهد الرجولة وقضى شطراً كبيراً من ايامه بين أسرته وجد في نفسه منها ومما يبصره ويسمعه في حجرها ما لا زوال لأثره

وكذلك الكتب فان لها في تهذيب الفتيان اثراً عظيماً وتقويماً جسيماً . فاني اذكر ما قرأته بين السادسة عشرة والعشرين من الكتب فقد كان لها تسديد حق في منهج حياتي وإحكام لمباديء اتخذتها حينئذٍ لنفسي وما برحت من ذلك العهد أن تكون لي هدى لا تغيير فيه مدى الايام وها أنا قد زرّفت على الخمسين من عمري أتاحت لي تلك الذكرى وبعثتني مباسطة ابنائي القول وحدا

بي ما وقفت عليه من مبادئهم التي داخلتهم ونشأت فيهم أن اكتب كتاباً للنابتة

فابتدأت اليوم لا على سبيل التأليف في الاخلاق والاجتماع انما هو مجتمع كلمات مختلفة ينبس بها الآباء للبنين في معرض الاحاديث التي تدور كل آن على السنة الاسرة

فكان ما وضعته « كتاب البنين » او كتاب فتيان بلغوا حد الرجولة ودعتهم الحياة الطيبة اليها

فماذا عساهم يا ترى ؟ أينظرون بعين السخط أم بعين الرضا هذه الصفحات وتلك الكلمات الصحيحة والنصائح المرّة التي استقرت في بطون اوراقه ؟

حبذا لو يشعرون حين يقرؤن بما اشعر نحوهم من نبل العواطف علَّهم يقنعون فاني قد نذرت لهم حبًّا وتوسمت فيهم خيراً فعساهم يجدون في كتابي ما وجدوا عند آبائهم ومعلميهم من اصول التربية والتهذيب فيعلمون أنه صدى ضعيف لصوت الوطن ينادي الفتية بما يتنسمه من ذكاءها و يتوقعه في طباعها و يوآنسه من اقدامها

وحبذا لو يحسنون الظن بأنفسهم فان حسن الظن يدفعهم إلى تحقيق ما يتوخون من الشمائل و يستفزهم إلى اكتساب ما يتوقعون من الفضائل

اني واثق بان هذا الكتاب الصغير يجديهم نفعاً ويكون لهم خير معوان فيسلس لهم قياد الحياة ويمهد لهم السبيل وان لم يكن ذلك فانه يقتادهم اليها بثبات جأش وقوة عزم ، ويجعلهم رجالاً قاموا عَلَى انفسهم، وساووا بين مدارکهم وقوى اجسامهم، وقبلوا مطالب الحياة والرجولة تعرف في وجوههم ، وعلموا ما الشرف وما الجمال وما السعادة الصحيحة في هذا الوجود

ذلك الكتاب يُهيب بهم إلى تهذيب العواطف والعقل والارادة والمحافظة عَلَى صحة الجسم وتقويم ما اسبغ الله عليهم من القوى وبعبارة ثانية يناديهم باتباع كلمة مَن قال من الاولين : كن ذا عقل صحيح في جسم صحيح نشيط شديد

ان النابتة متى كان الجسم والعقل فيها عَلَى سداد وإحكام تأهل أَن تقوم بشؤون الحياة عَلَى تباين درجاتها : شؤون الرجل الخاصة وشؤون رب البيت يسعى فيعمر اهله ويربي ذراريه وشؤون الوطني يدأب بالامور العامة ويستهم في نهضة البلاد واستقلال الحوزة وعلو شأن الحمى

فيجب عَلَى النابتة في اعمالها الخاصة ان تكون من ذوي العدل والصلاح والتسامح والاستبصار والثبات والنشاط والعزيمة وان تتمسك في نفسها بعاطفة الشرف وتتوثق من حب كل ما يجمل

ويحسن ويعظم، وان تبغض كل شر ودناءة وتتذمم من سوء السريرة وتنكّب عن الكذب والخوف جانباً وتضع يدها عما يحط من الملاذ

وان تدأب في مران الجسم وتربط عَلَى القلب في احتمال المتاعب لتكون جنوداً صالحة تقوم بدعوة الوطن وتعلم كيف تنفض يديها ايام الازمة والمحنة وان تسهر عَلَى صحة جسمها بتدبر عقل وثبات ارادة فتتقي بذلك شر كثير من نسَم الامراض التي تتهدد الاجسام الضعاف وتوعد العقول السخاف وان لا تأبه لمصائب صغيرة تطرأ بالضرورة عَلَى الجسم وتزداد شؤماً وأذية كلما تفقدها المرء ووجل من شرها

ليس لهذا الامر اليسير ادعو اقدام البنين بل ادعوهم لأمر اعظم شأناً واعلَى كعباً الا وهو الاقدام بسكينة عقل وطمأنينة روع على كل ما ينكص عنه الجبناء : عَلَى تبعات الامور ، عَلَى متاعب الاعمال ، عَلَى مصاعب الاشغال ، على الخطوب الكوارث حتى عَلَى الموت

ادعوهم لهذا وادعوهم لحب الحياة لأنها جديرة باهل الحياة ولكن لا حباً يقعدهم عن فداءها دون تأفف ولا تأسف في مصلحة الأمة ومنفعة الاسرة وخدمة العشراء ان دهمهم ما يوجب الذب عن حماهم

فان الرجل لا يكون عظيماً في اخلاقه كبيراً في نفسه الاّ إذا

رأى الموت امامه فنظره غير هلع ولا جزع

فعلى كل من النشء ان يتخلق بهذا الخلق مهما كانت الاحوال وفي اية صورة حضر احده الموت سواء في رائعة النهار او سدفة الليل او وحشة الوحدة او في ساحة الحرب او في اية ملمة من ملمات الحوادث واية سكرة من سكرات الامراض التي تعرض في بعض الاحايين

واعلم ان الرجل المقدام لا يقتصر بفضيلة هذا الاقدام فان ذلك من مبادىء الفضائل بل يثابر فيمتاز بالاقدام عَلَى الامور الادبية والاجتماعية فيناصب من يخالفون الافكار الصحيحة و يصادر من يتخرصون في الانتقاد و يناهض من يزرون عليه بالقول و ينعون اللهم أن كان عَلَى كرم من اخلاقه وصدق من حب وطنه او كان عَلَى بينة من وجدانه وشاهد عدل من امره

ومما يجب عَلَى البنين أن يحبوا ويحترموا آباءهم فان عليهم واجبات لهم فرضت منذ يوم الولادة وازدادت مكانة بازدياد العمر وان ينظروا لأخوتهم واخواتهم ومن كان من ذوي قرابتهم عَلَى تباعد طبقاتهم فينزلونهم من قلوبهم منزلة كرامة وان يعلموا أن واجبات المرء نحو اسرته من اعظم الواجبات خطورة ومكانة

وان يكونوا ارباب منازل يوم يبلغون حد الرجولية و يتيسر لهم القيام بحاجاتها وان يكوّنوا أسراً تكون صلة لأسرهم من نسلها.

فان امر الزواج لايسوغ تعجيله او تأجيله او ابطاله حسب ما يخطر في بدَوات النابتة . كلا فان الزواج واجب فرضته سنة الوجود وحال الاجتماع لا يحفل به الاَّ مَن كان ذا مكانة في حياته وصحة في اخلاقه الا وان الوطن يحتاج الى بنين والنسل يحتاج إلى تسلسل النسل

فمن لم يتزوج ولم يكن رب اسرة إذا توفرت لديه الاسباب وكان كفواً فقد أَتى بالاَثرة وحب الذات وخان واجباً نحو الوطن من جل الواجبات

الاسرة مخلدة للمرء يتأصل ذكره في مستقبل اولاده كما تأصل في ماضي اجداده

وحيث تشتد الأَسرة تشتد الأُمة

وما من أُمةٍ فسدت اخلاقها وفقدت الرابطة في أسرها الاَّ وقد خار أمرها وحان زوالها

فمن اعتاد أَن يقوم بواجبات أَسرته توفر عَلَى أَن يقوم بواجباته نحو الهيئة الاجتماعية وتسنى له أن يأتي بما يجب عليه نحو أُمته

ان أُمتنا اليوم أُمة ديموقراطية لا ريب فيها فان اسف قوم عَلَى ماضي الأُمة ايام لم تكن ديموقراطية فما من احدٍ يود أَن يكون ابنه راتعاً خاملاً

أن فتياننا سيصبحون غداً رجال الأُمة فعليهم أن يفتخروا بهذا الاسم و يعقدوا الخناصر عَلَى تشريفه وتمجيده ويحترموا القوانين ممثلة سلطة الأُمة لا سلطة الحكومة وان لا يثيروا عليها ثائرة او نائرة إذا ارادوا لها تنقيحاً بل عليهم أَن يأتوا بالتي هي ازكى لئلا نفقد الأَمن والطمأنينة في البلاد و ينبغي لهم إن كانوا غيورين عَلَى حريتهم وحقوقهم أَن يحترموا حرية ابناء وطنهم وحقوقهم وان لا يسعوا في سن قوانين او اتخاذ وسائل تجر عليهم وبالاً فانما مصلحة الأُمة المشتركة والمحافظة عَلَى الراحة العامة ومساواة الناس بعضهم ببعض واحترام الحقوق كل ذلك يجعل لحرية الفرد الحد المعقول ليس إلا

وعَلَى الفتية أن يداخلوا قلوبهم أَن حقوق الناس في الديموقراطية شرع بين كل الافراد فلا الذكاء ولا العلم حتى ولا المال ولا الاثرة الحسنة تجعل لصاحبها مزية او فائدة خاصة

نعم إن توازت الحقوق فان من كرم الاخلاق أَن تتفاوت الواجبات لان الواجبات تجسم وتعظم وتكبر وتكثر كلما تدرع المرء في الحياة بالذكاء والعلم والمال لاسيما أَهل الكُفى فانهم مدينون لعشراءهم وغرماء لأَمتهم بما لديهم من وفرة الوسائل فعليهم أَن يجهدوا في درء المصائب ويخصوا من اوقات عملهم وقتاً ويوقفون

من عزائمهم قسطاً يصرفونه في مصلحة الأُمة والمشاريع العامة

ومما يجب عَلَى كل امرىء ديموقراطي أَن يجهر بملء فيهِ بالفضيلة الكبرى الا وهي حب الوطن

فانه ان وجب على افراد الأُمم حب اوطانهم فقد قضى الواجب قضاءً مبرماً عَلَى كل رجل من هذه الأُمة أن يحب وطنه باكثر مما يحبون فان الوطن لا يحمل مستقبله إلا ابناؤه لانه ليس من وراء الأُمة ولا من فوقها قوة تهديها السبيل إن ضلت ولا عناية تنقذها ان هلكت

ان أُمتنا في اوروبة وفي العالم اجمع لبين خطر عظيم وانحطاط جسيم . وقفنا عن النهضة كأنا اضعنا العزم وقنطنا من المستقبل الحميد بين امم وثيقة القوى طيبة الحياة تزداد نماءً هائلاً في غضراء العيش فاحدقت بالأُمة ضِعة وغضاضة اشأم من الموت لولا الموت الزوآم لن يلحق بهما فورا

هو الموت لاقدر الله ايها النشء وهو الوطن فاحببه على علاتهِ حباً لاعجاً تفديهِ بمالك ونفسك وبنيك وتُعمل في حبه ما لك من القوة والاقدام وتحيي الفضائل التي اماتها البنون فضائل السني والعمل والنمو فنرقى ويرقى الوطن ونزداد قوة

فاعملوا أيها الفتيان بثبات وحزم ولا تنوا . واقلبوا الارض

ظهراً لبطن وبطناً لظهر كما يقول الراوية فنولون (احد كتاب الفرنسيس ١٦٥١ — ١٧١٥) تجدوا كنزاً تستفيدون منه وتفيدون الأُمة

اعملوا لهذه الامة واحبوها من صميم الفوآد حباً يختلب منكم قوى الروح . احبوها في ماضي ايامها وغابر مجدها وحاضر مصائبها بانها تمثل لكم العظمة والكرامة و بان مرعاها خصيب واقليمها نقي وسماءها صافية

احبوا الوطن لاسباب مرت واحبوه لداعٍ تنخرم بجنبهِ الدواعي وذلك لان الوطن وطنكم وانتم ابناؤه

فعليكم ان تشربوا عقولكم ووجدانكم ذلك الحب وتستمسكوا بالتفاني فيه فان حب الوطن امر لاجدال فيهِ ولا خصام

وعلى رجال النشء ان ينزلوا الاسرة وعواطف الشرف والواجب والاستقامة والعدل منزلة الوطن الذي لاحب مع حبه ولا مكانة مع مكانته فانه لامرية في ان ذلك اساس الاخلاق وقوام الاجتماع

ان حب افراد الأَسرة واحترام تلك الفضائل قاعدة ضرورية لكل أُمة أُختلفت عقائدها واصبح فتيانها اعراء تأُخذهم الشبهات في دينهم .

فعلى ذلك الاساس المتين وجب ان يلقي وجدان النابتة عصاه . عَلَى ان النابتة لا يشتد ازرها ولا يستقيم امرها الا متى خلصت من الريبة والانشقاق اللذين تضعف بهما قوى الاخلاق وتضطرب الاعمال وتختل

الا وان الامة ليعوزها اليوم رجال ايمان واقدام وارادة

فاجعل اللهم « كتاب البنين » بلغةً لتربية اولئك الرجال

بول دومر

الباب الاول

فى الرجل

الفصل الاول	الارادة والملكة
« الثاني	الواجب
« الثالث	الاقـدام
« الرابع	السعي والعمل
« الخامس	تهذيب الاخلاق
« السادس	العدل والاخاء
« السابع	الحرية والتسامح
« الثامن	تهذيب العقل
التاسع	تأثير الاخلاق في الجسم

الفصل الاول

الارادة والملكة

— عليك بالارادة واعمل ما وجب عليك

مبدا آن تنضوي تحتهما جميع مباديء الحياة الطيبة

اعمل الواجب و كن رجل الواجب في كل امر اينما كنت . ذلك ما قضت به الاخلاق الحميدة عَلَى الرجال ولا يتم ملاك ذلك بالرغبة بل بالهمة والارادة والقوة والامرة عَلَى النفس

فان الامرة عَلَى النفس ضرورية في الاخلاق الا انها صعبة المراس بعيدة المنال فمن سعى بنفسه الى طيب الحياة لا يكتفي بان يكون اميراً عَلَى نفسه يقتادها حسب مشيئته بل ينبغي له ان يسيطر عَلَى نفسه وجسمه ويتصرف بمطالب قلبه وحركات اعماله حسب ارادته

الامرة عَلَى النفس مدعاة لصلاح الرجل فيتملك بها شؤون حياته ويتمكن من السعادة في وجوده

ولكن انّى للمرء ان تستتب لنفسه تلك الامرة وهي عزيزة المنال بدآة بدء سلسة القياد بعد المران؟ واني له ان يتصدى لبواعث

النفس ويقمع رَغَباتها ويقدع جَذَباتها ؟ وكيف له ان يستنصر بالعقل وينأى عن مجاراة الهوى ومجاراته لطيفة عذبة حين لاينظر الى العاقبة ؟

— ذلك يستقيم له بتربية الارادة وإعمالها . الم تر قيصر الروم يوم استشاط غضباً وتميّز غيظاً عَلَى الذين خانوا ذمته وهموا بالايقاع به كيف باخ غيظه وتنهنهه غرْبه بعد ان ثاب الى رشده؟ غيظ ثارت ثائرته في نفسه فحكم الروية فكانت الغلبة لها فصرخ مبيناً ان له الامرة عَلَى نفسه كما له السلطان عَلَى الارض بقوله

انا الامير عَلَى نفسي كذاك عَلَى
ملكي وهـذا الذي في الارض ابغيه

اما من ضعفت ارادته فعبثت به الاهواء وناءَ تحتها فليس له من نفسه عوامل تزجره وحوائل تمنعه كما حال ذلك في نفس القيصر بل تزلق قدمه حيث تستهويه عواطف نفسه وتستدرجه ميول قلبه

وما كتبه قورنيل (احد شعراء الفرنسيس ١٦٠٦ — ١٦٨٤) عن القيصر شائع في صغار الامور كما هو في كبارها عند الذين لم تطرْبهم اهواؤهم . وكثير من الناس من يقاومون أنفسهم فيغلبون واما من قويت ارادته واستوثق من السلطان عَلَى نفسه فلا

غالب له لان رسوخة الارادة مع توالي الايام تدفع ان تكون الامرة في المرء للعقل والحكمة بلا منازع ينازعهما او مشاطر لهما في امرهما

قال سنكا (احد فلاسفة اللاتين ١٢٨ — ٦٥ قبل الميلاد) « لاسيادة ان لم تسد الارادة » قول نفصله بعبارة ثانية لرجال الأُمة: لايتيسر للمرء ان يسود الناس الا متى كانت السلطة له عَلَى نفسه وكان عقله يملي عليه اعماله

فلا ذريعة بعد هذا للنهضة الا بتلك القوة التي كتب لمن اخذ بتلابيبها بالسعادة فيجب عَلَى الفتى ان يبذل ما في مدَّخره للتحلي بهذه القوة ويعزف عن كثير من الملذات حتى يكون رجلاً يهيمن عَلَى نفسه ويتطامن لارادته عَلَى مشيئة عقله

هذا وقد انزلت الحكماء قوة الارادة منزلة قوى الانسان الحاكمة فلا يجاذبها المكانة الا العقل المسيطر عَلَى الفكرة والواجب والتمييز . ولا يساهمها في مثواها الا الشعور المتسلط عَلَى الحس والعواطف والميول

فهي كما افصحت الحكماء واقرَّه العقل الصحيح قوة رئيسة بين قوى الانسان والخلال الجديرة بهذ الاسم

. . . . . .

ان الارادة التي لاتردد معها ولا زعزعة فيهـا لتصلح جميع ما فسد من الاخلاق كما انها لتصلح كثيراً مما اختل من الامور المادية

فمن علقوا بها فكت قيودهم وكانوا احراراً حقاً لانهم يقومون على مدار كهم واعمالهم و يهدون افكارهم وعواطفهم وخيالهم و يجعلون كل ما في انفسهم تحت زعامة العقل و يسيرون كما يملي عليهم الوجدان والحكمة و يتأهبون لينهجوا في شؤونهم وفق مبادىء الحياة التي يتطلبها العقل .

فبالارادة يدرأ المرء عن نفسه ما ساء من الاهواء ويدفع منها ما اشتدت سورته و ينفي عنه ما كانت فيه تهلكته ولا يتبع من العواطف الا ما كانت فيه كرامة ونبل ولا يشايع من الميول ما يمس كرامة الواجب بل يزوّر عن همسات قلبه وخطرات وساوسه وما الوساوس منشاؤها الاّ ضعف العزيمة

فمن احب ان يكون فاضلاً كريماً فعليه ان يكون من ذوي الارادة المستحكمة فان المرء يبلغ بها غاية الفضيلة مهما كثرت سيئاته وخبثت سجاياه وساءت ميوله وفسدت اذواقه

و يحسن بالمرء ان يتخذ له مباديء اذا استنصحتها الارادة القوّامة تروده فوراً الى المضاء فيما يعزم عليه من الاعمال فان في ذلك شأناً عظيماً لمصالحنا ومرافقنا لان عليها مدار الحياة

هب انك تعلم فائدة التقشف فجعلت مبدأك ان لاتفرط في الطعام او حسبت مثلاً انه لايحسن شرب الكحول او التدخين

فيخطر في نفسك ما يصدف بك عن مبدئك فاشحذ الارادة حينئذ حتى لا يتطرق اليك ما يدعوك لغير مبدئك واعلم ان معالجة الارادة في هذه الامور الصغيرة تهيئها لان تجزم بالعمل في الاعمال العظيمة

وعلى الارادة ان تصرف عن النفس ايضاً ما يحط بها من الميول في الاعمال التي توسطت مكانتها

فهب انك رجل علم واذارة عمل لاتفتأ عن عملك وانت تعلم ضرورة الرياضة الجسدية لتسديد الصحة والتوازن بين قوى الجسم فعمل عقلك بياض نهاره حتى كلّت حجيراته فدعاك داعي الراحة في منزلك وسولت لك نفسك ان تقضي ليلك في الملاهي او غيرها من لذائذ لاتجدي لاعصابك نفعاً فضلاً عن انها تخالف قوانين الصحة وتنافي دساتير الحكمة فان كنت من ذوي الارادة ضربت عنها صفحاً وطويت كشحاً وعملت فيما يحتاج جسمك اليه من الحركة فخليت السبيل لراحته وراحة عقلك

تلك مزاولة للارادة سهل مرانها تفيد من حيث انها مزاولة ولكن لها فائدة تذكر فتشكر ألا وهي الممارسة على عمل الارادة في عظائم الامور وحرج الاوقات حيث يجب على المرء ان يعلم كيف يمضي فيفوز بثبات عزيمته ورسوخ ارادته واستقرار حزامته فوزاً

لامزيد عليه لمستزيد

واعلم ان الفوز سواءً في الاعمال الخاصة او العامة يتوقف على الارادة . نعم ان الارادة ليست بالاداة الوحيدة في الظفر باعمال الحياة الا انها ام الوسائل ان سقطت سقط غيرها

هذا أثر الارادة في النجاح بكل امر عَلَى حدته فما بالك بتأثيرها في حياة من يثابر عليها و يعملها معملها ؟

أن مَنْ رسخت فيه ارادته استبشر بالمستقبل الوضّاح فلا يدع في اعماله للصدفة مجالاً ولا للحظ اثراً الا قليلاً فهو العامل عَلَى نجاحه وسعادته . ومن فقدها و كان من ذوي الفطنة كان نجاحه عَلَى مشتهى الارياح وليس لفطنته الا اثر واهٍ في نجاحه فهو ولا شك العوبة الحوادث يسير في سبيل الحياة كسفينة اضاعت سكّانها في بحر هاجت مياهه فلا يدري اين يسار به بل يسير عَلَى حكم الهواء والمجاري حتى تأذن الامواج بابتلاعه

على ان ارباب الهمم الخامدة والعزائم الفاترة الذين ماتت ارادتهم قلائل كاولئك الذين تأصلت فيهم الارادة وطبعوا عَلَى العزم والمضاء في الامر

واكثر الناس اليوم من تلك الفئة التي تزعزعت ارادتها

وضوءلت عقولها حتى تمكن منها التردد فلو علمت كيف تُعمل لارادة لكان بوسعها ان تكون على خير مما هي عليه ولكانت توطن نفسها على التصبر والتثبت

فما هي عليه اليوم من التردد في الافكار والتوقف عن الاعمال ادواء تزداد كل يوم تمادياً حتى تبلغ قوة الارادة فتصيب جانباً منها فيختل نظامها و يبطل عملها

واعلم ان التردد والتوقف في بعض الاحايين خطأعظيم خطره يفضي الى فتن مستطيرة ومحن معقودة لاسيما اذا استحكم فيمن عهد اليه ادارة الامر بخلاف العزم والحزم فانهما صفتان ضروريتان لمن وسّد اليه قيادة جيش او ادارة ولاية او تسيير أُمة

هكذا قضت الحكمة ان يقف المرء على مواقع العزم والارادة في الاعمال العامة والخاصة

ولنا الف دليل في التاريخ على مكانة الارادة . منها أن كل رجل من رجال السياسة او القيادة كان ذا ارادة وعزيمة لازعزعة معهما نذكر مثلا في معرض الحديث: هذا نابوليون (احد قياصرة الفرنسيس ١٧٦٩ — ١٨٢١) رجل الارادة القوية والقيادة الصحيحة قد رجع القهقرى حين اثقلته ارادتا بلوخر (احد قادة الالمان ١٧٤٢ — ١٨١٩) وولينكتون (قائد انكليزي ١٧٦٩ — ١٨٥٢) . فلو

طبعت احدى إرادتي هـذين الرجلين عَلَى اقل وطأة من إرادة نابوليون لكان الغلب للحملة الفرنسية يوم واترلو (قرية في بلجيكا عَلَى مسافة ١٥ كيلو متراً من العاصمة) وليس هذا بالحدس او الوهم ولكنه الحق الصراح فان جنود الانكليز كادت تلقي عصا التسليم لولم تستفز ولينكتون إرادته فجالد وثبت بجيشه حتى المساء وكذلك رجال الالمان فانهم انهزموا شر هزيمة يوم ليكني (قرية في بلجيكا) امام نابوليون إلاَّ أن بلوخر اراد أن تكون الغلبة له فسعى كما اراد وصمد إلى دويّ المدافع في واترلو فاجتمع الجمعان فماتت عزيمة نابوليون امام تلك العزيمتين اللتين لا مطمع ولا مطمح وراءهما

ولنا في غير التاريخ حقائق تكشف عن منزلة الارادة الرفيعة فانك تذكر ايها الفتى ذلك الاستاذ الكريم احد تلاميذ الحكيم زينون (من فلاسفة اليونان ٢٦٤ قبل المسيح) بينما كان يلقن تلاميذه احد معتقدات استاذه الحكيم « ان الالم ليس بمصيبة » اذ شعر بدبيب النقرس في جسمه فلم يعبأ به بل تغلب عَلَى فعلته بقوة ارادته

وقد بيّن لنا غيتي (احد شعراء الالمان ١٧٤٩ — ١٨٣٢) أثر الارادة في نفسه فقال « احاطت بي الحمى حتى استهدفتني فأعملت ارادة لاتردد فيها فلم تخلص اليّ بمكروه ولم تصب مني مقتلاً »

واعلم ان الارادة متى رسخت في الفرد وصلحت ولم تتراخ في

عملها كما يرشدها العقل اصبحت فيه ملكة ومن رسخت فيه الملكة رسخ فيه الثبات والاقدام، صفات دونها بالكمال والمنفعة والعزّة مافي بني الانسان من صفات الكمال

وما قيل عن فوائد الارادة فاحرى به الملكة .

أن ملكة الارادة تدعو الى الصلاح والفضيلة والغنى والسعادة . فبها تتهذب الاخلاق وتنمو قوى العقل ، وبها يرقى المرء في حياته رقياً ليس بعده مطمح لناظر فهي صالحة بما لها من الفائدة في الامور المعنوية والمادية ، وبها يكبر الرجل عقلاً ويعظم صلاحاً ويسمو كمالاً

واعلم ان نجدي الخير والشر في الحياة قد يختلفان فنجد الشر ينبسط على آحادير لايلبث من يدفع نفسه فيها ان يهوي الى هوة الشقاء . بخلاف نجد الخير فانه صعب المنال لا يبلغهُ الامن لا يألو جهداً ولا يذخر وسعاً في تسديد ارادته وبعبارة ثانية لايتطاول اليه الا من استقرت فيه عزيمته حتى اصبحت فيه ملكة راسخة

ان الكمال واصلاح الذات درجات لاتنتهي ايها الفتى ! فاسعَ وراءها واحرص على كل خلة حميدة من الفضائل وانزع عن كل خصلة من الرذائل فان بدرت لك منها بادرة فتيقظ جهدك لدفعها وتوقّ ما استطعت من كل ميل ساءَ مآله وعاطفة خبث

اثرها حتى تكون المسيطر على نفسك المهيمن على امرك . ذلك عمل صالح تمسّك منه مواسّ الخير

ومما يوازي هذا في الصلاح عمل يخلص عنك لمنفعة الناس المعنوية والمادية وذلك ان تنصح وتقول وتمضي بما تقول

ان هذه اخلاق الكرام الذين استمسكت فيهم الملكة ، فلا يحيدون عنها ولا يبغون بها بدلاً ، بل يدأبون فيها ويلوذون عليها ، كما ينشدهم الوجدان ، ويهديهم العقل ، وتبعثهم الارادة ، ويرون ان يحكموا كما كان يفعل ذلك القيصر الفيلسوف بعد حكم الوجدان بانهم يضيعون يومهم عبثاً إذا لم ينفعوا فيه احداً او لم يفكروا في انماء ملكة الارادة او لم يسعوا في تسديد قواهم لمجاراة الحياة ومعمعان التنازع

ذلك المعترك الذي لا محيص عنه لا يغلب فيه الا رجل الارادة متى استقر عليها فيسعى في مصلحته ومصلحة ذراريه فيكبر وينهض لتحقيق امانيه

الاوان الارادة متى تأصلت تأخذ بالمرء الى بحبوحة من العيش والسعادة لا يصل اليها بذكائه وثرائه

فمن احب ان يظفر في الحياة ويكون من اهل الحياة وجب عليه ان يتخلق بهذه القوة حتى يتطبع عليها وما بقي من شروط الظفر يأتيه عفواً دون تطلب

تلك ملكة ابتغيها لكثير من رجال الأُمة فعلى النشء ان يعدوا من انفسهم لها ارادة ورجولة واقداماً

واعلم ان الامم التي يتقوض اليوم مجدها ويثل عرشها لا ينتابها العدم بفقد رجال العقل والفطنة بل بفقد اولئك الرجال رجال الارادة

ان أُمتنا لم تفقد ولله الحمد اولئك الرجال لكنهم اصبحوا بمكان المظنة والتهمة . اما رجال العقل والعلم فلا يزالون ضاربين اطنابهم في ارضها بيد انهم لا يعتمون ان يحرجوا في امرهم ويبرم بهم بعد حين لاسيما وقد نفض رجال الحزم والعزم ايديهم من المرافق العامة فريق اضطراراً وفريق اختياراً ولا حاجة لأن أُبيّن ما ينشأ عن تلك السياسة من المخاطر والمخاوف

ان أُمة الانكليز تقدر مكانة الرجل بارادته قبل كل قدر لا كما نقدره نحن اليوم

وحسبنا دليلاً على ذلك ما تجري عليه مدارسنا وترمي اليه بريطانيا العظمى يوم توزيع الجوائز فان الاولى تجيز بالجائزة الكبرى من كان اشحذ قريحة وأنبه خاطراً من اترابه . اما الثانية فلا تجيز بها الا من امتاز بسمو ارادته ورسوخ عزيمته . ولا ريب انهم المحقون واننا المخطئون

فطر الانسان وفطرت فيه ذرات العزيمة يصحبها دافع للمعالي فاذا اهملت تلك الذرات ولم يتعهدها المرء بالتهذيب لبثت خامدة في النفس كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً لأن اخلاق الانسان كجسمه إذا لم يروّضه و يبعثه الى السعي والعمل ضعف وان كان قوياً

فيا ايها الفتيان انا جهدنا في تهذيب العقل ايام الشباب فمتى نجهد في تربية الارادة ؟ فقدحان للشبيبة ان يسعوا وراء هذه التربية وانماء تلك الاخلاق الكريمة لان ذلك اول ما يجب عليهم ان يُعنوا به ولا يتم لهم ذلك الكمال الا اذا توفروا عَلَى تنمية الارادة وادمنوا عليها واصرّوا عَلَى مزاولتها ولم يبرحوا عن إعمالها فيما يصلحها في هذه الحياة

وغاية ذلك ان يكون المرء ذا ملكة يسوّف بها هواه فيتمكن من ادارة شؤونه ويحسن ترتيب اعماله و يكون عاملاً عَلَى سعادته وسعادة الناس، ساعياً في مصلحة الأُمة وحفظ كرامتها

فاذا هممت ايها الشاب الذي تقرأ كتابي ان تدرك هذه الغاية فاذكر كلمتي :

— عليك بالارادة

الفصل الثاني

الواجب

هب ان المرء كبت نفسه واستتبت له الهيمنة عليها واطلق العنان لارادته فمرنت فيه حتى أستقرت وأصبحت ملكة له فماذا عليه ان يعمل ؟ وماذا عليه ان يريد ؟

— عليه ان يريد عملاً صالحاً يمليهِ العقل والوجدان ويقوم بما وجب عليهِ في هذه الحياة . وهذا اوان القول فقل :

— اعمل ماوجب عليك .... فقد علمت ماذا تريد

الارادة اداة ضرورية ذات بال نتاجها الخير واليمن . وما نتاجها الا المصلحة وبعبارة ثانية ما يجب ان يعمل ألا وهو القيام بالواجب

القيام بالواجب ! كلمات لا اوقع منها عَلَى النفس ولا اكرم منها عَلَى النفس . ملؤها المكانة والاقدام والاخلاص . فلا يسع الكاتب ان يحدّد لها تعريفاً او يجعل لها شرحاً ، فان فعل فقد اتى بما يزيل من مكانتها رونقاً ، ولم يستوفِ لها قسطاً . على أنه لافائدة بتحديدها فانا نشعر بها في القلب والتحديد لايزيد فيها وضوحاً . فان قلنا كما قال زعماء الحكمة « الواجب ما اوجبه القانون والوجدان » او « الواجب

ما اوجبه العقل عَلَى مقتضى كرم الاخلاق » فقد جئنا بما لا ينيف افصاحاً عَلَى معنى « الواجب »

طبع الانسان عَلَى الواجب فالواجب فطري تأصل في اعماق القلب تأصل عاطفة الحب . فلا يقوم به الاَّ كلّ مَن نبلت نفسه ورسخت فيهِ إرادته ولكن جرت العادة أن يقال : المرء ميسَّر للقيام بالواجب يأتي به عفواً عن غير علم . نعم ان ذلك حق بيد انه ينبغي للمرء ان يدرك ما وجب عليه فان القوانين لم تكشف إلا عن يسير من الواجبات والباقي يحمل عليه العقل والوجدان

شرعت القوانين من الواجبات ما به قوام الأُمم ولكنها واجبات رئيسة في بابها اما ما يأمر به علم الاخلاق فهو اكثر عدداً وأعلا شأواً وذلك لم تأتِ به القوانين ولم يخط في كتاب لانه ليس في مكنة احد ان يكتب من اجله سطراً

عَلَى انه يتسنى لنا ان نخط مع الايجاز والايضاح كثيراً من علم الاخلاق ونجعله قانوناً للواجب نسكن اليه في شؤون الحياة بغير تردد في الامر ولا اجهاد في الروية، فيكون ذلك لصغار الامور واما كبارها فتستدعي إعمال العقل واستشارة الوجدان مليًّا . وذلك مما لا يحصى ولا يستقصى، فلا ينطوي تحت قاعدةٍ دوّنت، ولا يراعي مادةً سُطرت

وقد تنشأ مما دوّن من مبادئ الاخلاق قاعدة الحياة الاخلاقية فعلى كل أمة تود ان تحتفظ بمكانتها ويمكّن لها في الارض وتشرف عَلَى باهر المستقبل وعظيم الايام ان يتبع كل فرد من افرادها تلك المبادىء الاولى وليس لاحد ان يجعل قانوناً لتلك المبادىء لانها تتجلى واضحة عند البحث في واجبات المرء الخاصة

ما هي الموانع التي تحول دون القيام بالواجب ؟ او ما يناوىء الواجب في النفس ؟

— امورٌ اولها حب الذات الباعث عَلَى الانانية ثم العواطف والشهوات ثم الكسل والجبن

فحب الذات عدوٌ ألدّ للواجب وكثيراً ما يعرض له . فعلى الذين كملت انفسهم وتأصلت فيهم إرادتهم ان يحترزوا اشد احتراز من حب الذات وسلطانه لئلا يلج بالمرء فيزيغه عن المضاء في امره

ولا أُريد بذلك انه ينبغي ان نتنحى عن حب الذات ان كان فيه ما يستفزنا إلى أن نمضي في شأننا . كلا فان ذلك لا يتيسر لاحد لان من سنة الوجود والعدل أن لا يفتر الانسان من السعي في مصلحته لان مصلحة الذات حاجة من حاجات الحياة إلا انها لا تؤخذ قاعدة اخلاقية تبنى عليها المصالح . فعلى المرء متى جبه الواجب مصلحته ان ينأى عنها و يسلك سبيل الواجب بغير تردد

لان حب الذات، وان يكن حباً للذات كما بيّن ابيكوروس (احد فلاسفة اليونان ٣٤٢ — ٢٧٠ ق) حب سيء المآل وخيم العاقبة إن جرت عليه الأمم . فمن أحب ان يعمل صالحاً لنفسه وللأمة وجب عليه أن يقوم بالواجب . وان من يسعى وراء مصلحة ذاته ولا يفكر الا في حبها ولا يجعل العدل لها حداً ولا الواجب مسيطراً وظن انه يحسن صنعاً لنفسهِ فقد اخطأ خطأً عظيماً وارتكب زللاً جسيماً

قال الفاضل جون لوبوك (احد ساسة الانكليز ١٨٣٤ — حي) « ان خنت الواجب او التفت عنه فقد اخطأت السعادة لنفسك » فأخذه الشاعر الانكليزي واردسوارث (١٧٧٠ — ١٨٥٠) فقال : « علامة العاقل الفاضل ان لا يدع حديثاً للمخاوف في نفسه ، يمضي حيث يدعوه الواجب ، ويصادر ما يربض له من المخاطر في سبيل ما وجب عليه ، فيغلب على امرها بعد الاتكال على الله تعالى »

هكذا يجب ان يكون حب الذات تحت زعامة الواجب والعقل في العزيمة على الامور فيفيد ويروّح نفس المرء

وما قيل في حب الذات فيقال في العواطف والشهوات فانها عدوة للواجب فلا تصلح ان تكون مناراً للهداية ولو كرم اصلها ونبل فرعها ، لانه ليس من شأنها ان تبعث الناس على الاعمال . بل ينبغي

ان تكون العواطف تحت مشيئة العقل يمسك بها ان خالفت قواعد مكارم الاخلاق او عصت امراً لقانون الواجب

وكذلك الشهوات فقد يجب ان تكون تحت سلطان الحكمة لأن مطالب النفس ان هاجت خرجت عن طور العقل وكابرت المرءَ فيما يجب عليه من معالي الاخلاق . ولا يسود عَلَى الشهوات ويرمي بها تحت زعامة الحكمة الا رجل الارادة

ولا حاجة في تكرير القول بان بين الشهوات والواجب حرباً عوانا فقد شاع ذلك وذاع حتى ملأَ التاريخ والقصص والروايات في كل جيل وقبيل

ان من استقرت فيه الارادة كان له الغلب عَلَى شهواته ومن ضعفت فيه عزيمته كان العوبة بيد اهوائه فيجعل السلطان للهوى علَى الواجب . ومن كانت هذه حالته فلا يلبث ان يتسرب اليه الانحطاط في الاخلاق والمصائب في الجسم .

تحفَّ في البحث وانظر ما اخذ الى العار بذلك الرجل اذ انصرف عن منزله وزوجته وبنيه ليعيش مع أُخرى من النساء الحقيرات وتمعن في ذلك الصيرفي اذ لحق بالبلاد الاجنبية وترك خزائنه وخزائن من كانوا يثقون بامانته خالية من المال ، يتجلّى لك ان الآخذ بهما الى ذلك شهوة اطاعاها فنسيا الحكمة والفطنة

وخانا الواجب

خلِّ عنك هذه فألوف على شاكلتها تحدث كل يوم وتقضي على الناس ان يقتصوا ممن يخونون واجبهم ويدينون لاهوائهم

على انه لاينبغي للمرء ان يضرب عن اتباع هواه مخافة القصاص بل اطاعة للواجب لانه واجب وليس ثمة سبب يعلوه او يوازيه في الفضيلة . فعلى المرء ان يقوم بالواجب رغماً عن حب الذات والعواطف والشهوات ولو تكلف في ذلك العنت وتجشم المصاعب

ولا يقل الكسل والجبن درجة عما تقدم من الموانع التي تتصدى للقيام بالواجب

القيام بالواجب ولا سيما الواجب العين يستوجب همة وجلداً يقلقان ضعاف العقول والاجسام فيقولون : لماذا العمل وقد سهلت طرق الراحة وطاب القعود ، فيتنازعهم عاملا العمل والراحة ثم يجنحون الى القول بان الراحة اهون شيء ، فاذا لم تنهض بهم الارادة وقتئذ وتسيطر على عواطفهم لتحافظ على مكانتها ظفر الكسل وطأطأ الواجب فانحنى وانثنى . بخلاف من سمت فيه ارادته وتأصلت عزيمته فلا يهش للكسل ولا يذعن له ولو اعتورته في ذلك المتاعب وابرمته المصائب ، لانه يخجل ان يخون واجباً ولو في صغير الامور حتى انهُ يحاذر ان يأتي ما تشم منه رائحة الجبن لان الجبن مستحيل

تسر به الى الرجال العظام فلا مهين كالجبن ان صحبه الكذب

ان الجبن قد شاع وهو ذريعة لكب الذات تبعث على خيانة الواجب فعلى من رأوا خطراً في القيام بواجبهم ان يقدموا ولا يتلكأوا لأنه ينبغي ان يقوم المرء بواجبه عن طيب خاطر واقدام نفس مهما كانت العواقب خطرة فالمخاطرة في تلك الحالة لاتزيد الاقدام الا شرفاً ويمناً

ومما ينبغي للمرء ان يأنس به فداء الحياة في سبيل الواجب حين تمس اليه الحاجة وما اجمل فداءها في امر عظيم

اننا در بنا بان نقصف اغصان الحياة لالعلة ولا لفائدة بل لسخافة تلحقنا او مرض يرهقنا من جرّاء الغباوة والجهل فنموت من حيث لاندري موتاً لالذة فيه ولا سروراً

ومع هذا فانا ننكص جزعاً وفزعاً حين نرى ان الحياة تباع بثمن بهظ الا وهو القيام بالواجب

شعرت ذات مرة في الشرق الاقصى ان الموت يحتك حول جنبيّ فما هلعت ولا اضطربت بل كنت لاانفك عن مهاميّ والقيام بواجبي وقد شاهدت تلك السكينة فيمن كان يلتف حولي من كبار النفوس

واعلم ان لاموت خير من الموت في حب الرجولة والقيام

بالواجب . فمن جبن واعرض عن ذلك الموت الشريف العزيز فقد ارتكب اثماً وحسب حسباناً باطلاً لان من استأخر تلك الساعة لم يصبها مرة أُخرى ومن فاتته فاته روح الوجدان ومسرته

وقد كان من الحكمة ان أُعرب عن الموت او عن اعظم فداء يطالب به الانسان لأُبين عظمة امر الواجب وكيفية وجوب احترامه وسلوك سبيله واتباع سنته مهما حرجت العواقب ولكني اجتزيء فاقول

اعمل ما وجب عليك وعَلَى الله الاجر والمثوبة

نعم اعمل الواجب اينما نزلت وحيثما رحلت ولو كان مراً . فان القيام بالواجب عمل صالح لامحيص عنه تتقاضاه مكارم الاخلاق

لو تقضى المرء بنظره الى ما يفيد لا إلى ما فيه مصلحة نفسه لرأى ان مصلحة نفسه تقوم في القيام بواجبه لان رجل الواجب يقع عَلَى طمأنينة من وجدانهِ فيجد في حياته فوائد لايتطاولها سواه ويصيب اجره عَلَى استحقاق بما قدمت يداه

ومن تأمل في هذا الوجود رأى ان فيه العدل يتجلى اكثر مما في الحسبان ومن روى فيه وجد ايضاً ان لاصحاب الفضيلة وأُولي العزم قسطاً وافراً منهُ

ذلك مما ينشرح له الصدر ويثلج بهِ الفؤاد وان لم تجعله سنة الوجود

دليلاً عَلَى مكانة كرم الاخلاق . واعلم أن القيام بالواجب يمليه العقل وتحمل عليه الارادة وُحبابهُ ان يستنيم له الوجدان فلا شيء من الماديات يحاكي القيام بالواجب في هذه المزية

ولقد يتداخل الواجب في شؤُون الحياة و يتشعب فتصدر عنهُ الواجبات وتنقسم الواجبات الى اقسام تتفرع الى فروع لانهاية لها حسب تباين الاوقات والاحوال عنـد كل فرد بالنسبة لذاتهِ ولأُمتهِ . وعلَى هذا تنفصل واجبات المرء الى شطرين : واجبات ذاتية وواجبات اجتماعية . وقد تستغرق الواجبات الاجتماعية التي يرأسها الواجب العظيم نحو الوطن بحثاً مدققاً في هذا الكتاب

أما الواجبات الذاتية فهي واجبات عَلَى المرء نحو نفسه وأسرته والناس أجمعين وقد تشتبك وتختلط هذه الواجبات بحيث لايميزها ولا يحلُّ غامضها إلا كتاب مخصوص في علم الاخلاق

فينبغي لكل فتى أن يفيها حقها و يقوم بها خير قيام في كل آن وقد يهون أمر القيام بها إذا لم يكن تضارب بينها او تناقض . وكثيراً ما يقع الانسان بين واجبات متعاكسة وفروض متباينة

لو كان بوسعنـا أن نجعل للواجبات منازل صحيحة حسب مكانتها لسهل عَلَى العقل والوجدان أن يرجعا اليها فيما يشتبهان فيه و يمضيان امرهما بدون تردد ولا اضطراب . ولكن الفلاسفة قد اخفقوا

في مساعيهم وضل الاخلاقيون عن الطريق في ابحاثهم فلم يجدوا وصلة لذلك ولا سبيلاً

لان لكل من الواجبات عواطف لا تدخل تحت قيد ولا ترتيب غير ان الشعور الصحيح وما درج عليه الناس وما يوحيه القلب يجعل لبعض الواجبات منازل يفضل بعضها بعضاً كالواجب نحو الوطن مثلاً فانه رأس الواجبات متى عرض لغيره من الواجبات عُمل به و بطل عمل الاخرى حتى ان واجبات الأسرة تسقط حين يدعو واجب الوطن ولو كانت اشرف واعز شيء عَلَى النفس

الا وان الامة قد تضافرت عليها الاعداء وشنت عليها الغارات وكادت تضرب عَلَى يدها في عقر دارها فهي تصارخ بنيها المعونة في بذل اقدامهم واهراق دمهم وابداء افكارهم

فاسعوا لها ايها الفتيان، فان السعي وراء حياتها لأعظم ما تفرضه السنن والشرائع . قال هيغو (كبير شعراء الفرنسيس ١٨٠٢ — ١٨٨٥) سنة ١٨٧٠ يوم زحف الالمان عَلَى بلاد فرنسا يصف نساء بعثهن حب الوطن فرضين

بالطوى والهول والموت عَلَى سبل الواجب نحو الوطنِ

هذه ساعات حرج ومحنة ليس للعقل أن يفكر فيها فان

الوجدان يحثُ والواجب يبعث ولا واجب يداني واجب الوطن في المنزلة . وأما في السراء والرخاء فان الواجبات تتضارب كثيراً مع بعضها وليس للتمييز بينها قاعدة يعتد بها على انه إذا لم يكن بد فيكون افضل ما يعمل به واجبات تجوس خلال الديار . فذوي القربى اولى بالمعروف من غيرهم واهل الوطن اولى من سواهم

ركب الخطـل احد القسيسين الانكليز إذ هجر زوجه وذراريه معوزين معيلين وقصـد إلى افريقيا ليبث دعوة الانجيل والنهضة للحضارة بين اقوام غشيهم الجهل فخـان واجباً صريحاً بحجة أنه يقوم بواجب مبهم . فآثر واجباً الريبة في صحته عَلَى واجب الحقيقة في منبته . ذلك خرق ينبو عنه العقل وخيانة يتقزز منها الواجب . وعَلَى اولئك الذين ذكرهم صاحب رواية دون كيشوت (قصة اسبانيولية وضعها سرفانت احد كتبة الاسبانيول) ان يسعوا وراء طواحن الهواء إذا لم يدعوا من يتضورون وراءهم جوعاً . وأعلم أن الأُمة لا يقوم باعبائها إلا رجال العقل والارادة والاقدام الذين يسيرون في سبيل الحياة تحت ظل الواجب بكل ثبات جأش وعظمة نفس

فاحبس نفسك ، ايها الفتي ، عَلَى ان تكون رجلاً تحتاجه الأُمة عاملاً عَلَى ذلك المبدأ :

— اعمل ما وجب عليك

الفصل الثالث

الاقدام

رأيت ، ايها الفتى ، أن القيام بالواجب تكابده في بعض الاحايين مصادر ومصاعب لاتتذلل إلا بالاقدام

فالإقدام فضيلة من الفضائل وقد كان عين الفضيلة لدى الاولين فمن كان يستمسك بحذافيره يستمسك بالأثرة الحسنة لأنه لم يكن يؤبه لفضيلة غيره

كان يقول الاقدمون إذا ارادوا وصف الأسر الكبرى إن زكى اصلها ولم يمس فرعها شائبة ولا عائبة « انهم رجال إقدام ونسوة عفة » حتى كانوا يبالغون في تحديده فيقولون انه رأس الفضائل إن قام سقط الباقي . ومن الجهل أن نُنزله اليوم منزلة وسطى فهو لم يزل فضيلة كبرى تشتد به الحياة الطيبة لان المرء وان كان من اولي الالباب والارادة لايدرك مبتغاه بغير الاقدام بل يبقى عاقصاً بقرنه عن عظائم الامور ايام الحرج والشدة

يقال إن الاقدام ليس من الفطرة في شيء بل هو سجية

يكتسبها المرء بالمزاولة

— نعم إن في ذلك روحاً من الحقيقة ولكن كثيراً من الناس يولد مقداماً بالطبع وفي استطاعة كل الافراد أن يكونوا من المقدمين بلا استثناء فالاقدام فضيلة قد تكتسب كما تكتسب الحكمة والارادة

ان اولئك الذين يقدمون عَلَى القتال في ساحة الحرب ويستظهرون هم اولئك الذين قد تمكنت في اجسامهم رذيلة الجبن فاصبحت اعضاؤهم ترجف فزعاً باديء القتال

قال توران : (قائد للويس الرابع عشر ١٦١١ — ١٦٧٥) « اذا التحمت الحرب ارتعشت فرائصي هلعاً وقد نهضت فيها منذ عشرين سنة » وكان يخاطب جسمه عند ابتداء الحرب بقول تشوبه الحفيظة وتخالطه السخرية « لو كنت تعلم اين اقودك لزاد اختلاجك »

واعلم ان الاقدام الحق من شيم رجال الارادة الذين وطّنوا انفسهم عَلَى ان تكون الامرة لهم واستفزتهم عاطفة الواجب الى ان يقدموا عَلَى فداء الارواح

وكما ان المرء يتوفر عَلَى إعمال الارادة بالمزاولة فله ذلك في الاقدام ايضاً فان اقدم حيث يعظم الخطر اندفع من نفسه لان

يقدم فيما بعد عند الحاجة

الا وان من اهوى بنفسه الى لجج البحر وتيّار العاصف ليتدارك سفينة في الغرق اهوى بنفسه ذات المرار عما قليل وهو مطمئن البال رابط الجأش

وهكذا الحال مع الجندي فانه يصطك خوفاً حين يدوي الرصاص عند بدء القتال ثم يكرُّ بعد ذلك عَلَى لعلعة المدافع فيشعر بالموت يتخبط حواليه ولا يخامره اضطراب ولا يخالجهُ جزع

اما وقد تبين ان بوسع المرء ان يمرن عَلَى الاقدام فيجب عَلَى الذي ان يروّض نفسه عليه فان للتدرب عَلَى الاقدام في صغير الامور وسيلة للاقدام في كبيرها عَلَى المخاوف والمخاطر ، عَلَى البلاء واللأواء ان وجب الامر ، حتى عَلَى الموت

الاقدام واجب يوجبه الواجب ولذلك لا ينبغي ان يحملنا عَلَى الاقدام ما نتوقعه من المكافاة ونتوخاه من مرضاة الناس فان كثيراً من القوم يفخرون باقدامهم فيقدمون ان جمعتهم جامعة بين الناس ابتغاء محمدة وأكرومة و ينكصون ان خلوا بأرض قوم

وليس لنا ان نرمي هذه الطائفة بالجبن فهي مقدامة الا ان ذلك ليس من معالي الاخلاق في شيء لان من ابتغى مكافاة لحسن صنعه بدلاً عن مرضاة الواجب ازال من مكانة فعلته قسطاً

عظيماً وقد اصاب لارشفوقو مرماه حيث يقول « الاقدام الحق ان تأتي في الوحدة ما تأتيه بين الجماعة»

الاوان الأقدام الحق ما يبعث عليه الواجب . الاوان الاقدام اقدام في كل امر فمن تأصل فيه الاقدام اقدم عَلَى كل امر ومن جبن جبن في كل امر وهان عند الناس امره . فلا شيء يحط بشأن المرء كالجبن لانه لا احط من الكاذب والجبان عَلَى ان الكذب ضرب من الجبن فعلى من اراد ان يمكّن لنفسه من الرجولة ان يكون مقداماً هماماً

يقال عن العامل او الزارع او اي رجل كَبٍّ عَلَى عمله لايصرف وقتاً عبثاً ولا يدع لقواه راحة انه مقدام . فالاقدام لا ينحصر اذاً في مضمون واحد بل هو شامل عام . الاقدام الذي نهض بالعامل او الزارع الى العمل استفز الجندي في ساحة القتال وجعله يعرض للقوارع والمهالك والموت ، وحمل الباسل عَلَى ان يناوىء كل مكروه ومرزيئة ومخوفة، ودفع المرء الى ان يقوم بغير تأفف ولا تردد بمهام الحياة ومطالب الواجب وتكاليف العواطف إن كرمت ورغبت فيما فوق الذي تطلبه مكارم الاخلاق

الا وان الجبن جبن في كل امرٍ يُقعد عن العمل ومتاعبه ، والقتال ومصاعبه ، ويحمل عَلَى الفرار إذا العدو هجم ، او الخطر

ألمّ ، او الموت دهم

الجبن يثني العزم ويدعو لحب الذات ويضرب عن القيام بالواجب ان كان فيه عنت او خطر ويعرض بصاحبه عن أن يتعهد لزوميات الاسرة ، ويمسك عن القيام بما تجشمه الحياة من المتاعب وتأتي به من جميل المحاسن

الجبن دنيئة وضرب من الحمق يحسب اهله ان به راحة ولا يعلمون ان الراحة لا تشترى الا بالدؤب والاقدام فان الجندي إن هلع يوم الحرب ففر ، تعرّض للقتل اكثر ممن يبادر الاعداء ويحافظ على موقف الواجب حيث لا يعظم الخطر . وانّ مَن خانته عزيمته فآثر البطالة على العمل مضى إلى ايام فقرٍ اشد ضيقاً عليه مما لو سعى عن طيب قلبٍ وامّن المستقبل لنفسه

ذلك جزاءُ مَن خان واجباً ، ونكّب عن الإقدام جانباً ، جزاءً وفاقا .

وليس الإقدام على الموت ان لا تحجم عنه إن حضر بل أن تترامى عليه وتجبهه بغير جزعٍ ولا فزع ، بل عليك ، ايها النشء ، أن ترضى به ، ان حضر ولم يكن بد ، ساكن الجأش لا ينتقع وجهك ولا ينصل لونك

فقد سارت بموت سقراط (فيلسوف اليونان ٤٧٠ — ٤٠٠ ق .

م) الامثال منذ قرون وما كان ذلك بسبب انه لم يفر من ظلم القضاة بل من اجل انه رضي بالموت غير مشفق، فثبت ثبوت رجال الواجب والإقدام والصلاح ولم يأسف على حياة قام فيها خير قيام

وقد ذكر افلاطون (احد فلاسفة اليونان ٤٣٠ — ٣٤٧) في احدى مقالاته ساعة موت استاذه فقال «قضت القضاة في آثينا على سقراط بالموت فدفع اليه احد اتباع المجلس كوب سم فاخذه رابط الروع بغير تغير في اللون ولا تنكر في الوجه، لا يرتجف ولا يتأفف. فوضعه على شفتيه وقال «جاز لي أن أنادي الارباب فتقضي على حياتي سعيداً. إن هـذا لهو دعائي فاستجيبي ايتها الارباب» ثم جرعه غير غضبان ولا آسف

ولما تحلّق حوله مريدوه واخذوا ينحبون ويعولون خاطبهم، والجَلد يعرف في وجههِ، بقوله «طمأنينةً لا جزعاً»

فذكّر بموت هذا الرجل الحكيم فقد حقّ له أن يُذكر، وفي التاريخ والقصص وما نذكره في الذاكرة الف قضية كهذه تأخذ بالالباب وتدهش الابصار

شهدت منذ خمس عشرة سنة او عشرين موت رجلين طالت سكرته فيهما واشتدت وطأته عليهما ولم يغب رشدهما. اصاب الاثنين داء السرطان فدب رويداً في وجهيهما حتى أكل منهما

وافسد امرهما وتدرج بهما تدرجاً اليماً، حتى أيقنا انه لم يبق لحياتهما الا ايام معدودات ، فاصبحا نهبا بين الاوجاع والآلام وفكرة الموت، يمتعض منهما الناظرون اليهما فيشفقون

كان احدهما اوجن برسو مدير دار المعلمين والاخر جوفرن احد العملة في اول امره ثم احد النواب في مجلس الأُمة وكلاهما كانا من رجال المكانة وان اختلفت اطوارهما في سبيل الحياة فاظهرا في سكرة الموت انهما من رجال الاخلاق الحميدة رجال الصبر والاقدام ،فلم تثبط عزيمتهما ولم يقعد بهما مرضهما عن السعي، ولم تثنهما الآلام والاوجاع ولم تدرأهما فكرة الموت عن المهام ، بل خندقا عَلَى انفسهما بالصبر و بقيا عَلَى ما كان عليه من الجلد ، باسمي الثغر ساكني القلب، يريان هوة القبر ولا يضربان عن واجب الحياة حتى قضيا نحبهما

فموتهما وموت سقراط سواء في الفضل والمنزلة الرفيعة

غرقت الغواصة فرفده منذ أشهر ايام كنت اكتب هذه الكلمات والعهد ليس ببعيد فاحتضر فيها رجال . ذلك ان فرفده سقطت في خليج بيزرت (مدينة عَلَى سواحل تونس) وفي احدى حجراتها عشرة نواتيّ وربّان شاب يرأسهم، فرست في القعر يعلوها عشرة امتار من الماء . وكان هواء الحجرة قليلاً بحيث لم يتمكنوا من

التنفس زمناً كافياً ففسد الهواء وتقاطر الماء من بين غشاء لم يحكم سداه ولحمته حتى كادت الغواصة تموه، فسعى رجال لايقاظهم وتدارك امرهم فلم يفلحوا لقلة الوسائط في المرفاء. واني اضرب صفحاً عن تفصيل القضية واجتزيء بقولي انهم تدار كوا الادوات ولبث رجال الغواصة في حجرتهم، او في سجنهم، او في قبرهم، يضربون على الصفائح ليعلم بهم من سعى في انقاذهم. ولكن الماء كان يتصاعد الى انفاسهم حتى ضاقت فسحة الاجل وحضر الموت فجهدوا وحاولوا الخلاص فضاقوا ذرعاً ولات حين مناص

ثم نهضت الغواصة بعد بضعة ايام الى سطح الماء فلقينا الفتية وجوههم مستبشرة صابرة، اعصابهم متبسطة غير متقبضة، كأنهم رقدوا على سكينة من النفس، وروح من الوجدان، شأن رجال الاقدام رجال يقومون بما وجب عليهم ولا يعبأون بقيمة لحياتهم

ومن يعلم ان للملاحة سجية الاقدام والشجاعة لا يرتاب ان رجال فرفده ورباها عافوا الحياة أشرافا ورضوا بالموت غير جازعين ولا كارهين، حتى انه يجدر ان يكتب على صفائح ضرائحهم

خدموا بني اوطانهم فقضوا شهداء فيما للوفا وجبا
فذروا الزهور على رموسهم « فلقد حكوا بوفاهم العربا »

وقصارى القول ان جميع الحكماء والاخلاقيين الذين لم تكن

مبادئهم مفسدة ومجلبة للانحطاط حسنوا وجه الاقدام عَلَى الموت حتى ان مريديـــي زينون ذهبوا الى الافراط والغلو وقالوا بالانتحار. ولا يسعني ان أشايعهم في ذلك او أجاملهم. كلا! فان الانتحار جبن في اكثر الاوقات وخيانة للواجب

جبن ان عمل به المرء تحامياً من اعباء الحياة او تفادياً من العهدات والتبعات او دفعاً لآلام في الجسم او وخز في الوجدان لاقبل بهما. وخيانة للواجب لان الحياة اول واجب عَلَى المرء نحو ذاته واسرته وأُمته. نعم ربما قد يسوغ الانتحار وذلك ان كان فيه ما يلأم صدع الشرف اذا انثلم

عَلَى انه لايجوز الانتحار في هذه الحالة. بل من الواجب ان يبقى المرء في قيد الحياة، حتى يكفر عما فات، ويصلح ما بالذات. وذلك حق من وجهة الاخلاق اما من وجهة الانسانية من حيث هي فليس لاحد ان يلوم من يأنف ان يحيى بالهون

قال الشاعر جوفنيل (احد شعراء اللاتين الهجاة ٤٢ — ٢٣ ق م) «اعظم الشر شراً ان تؤثر الحياة عَلَى الشرف فلا تفديها بما يجر عليها عزاً وفخراً» والحق فيما يقول لان الشرف مزية لاترجع الى نصابها ان أُصيب المرء بفقدها. فمن أسود وجه شرفه كتب له المستقبل عَلَى صفحات حياته ما رآه دانت (احد الشعراء الايطاليين ١٢٦٥ —

١٣٢١) مكتوباً عَلَى باب الجحيم « يا ايها الذين غشوا الجحيم لايحسبن احدكم ان يرتد عَلَى اثره »

تلك حالة يأس لم يقل بها احد من الاخلاقيين فأدعها والوم نفسي بما اوقفت القارئ عليها . ولكن ذلك ضروري فان الفتى وان استحكمت فيه الارادة وطبع عَلَى العزيمة وكان من أُولي الالباب والاقدام لا يستطيع ان يعلم من تلقاء نفسه تلك الملمات والاهاويل ولا يمكنه ان يحمل ويقضي عليها الا بعدان يرى جميع وجوهها

سنّ صولون (احد قضاة اليونان ٦٣٨ — ٥٥٩ق) الشرائع في آثينا وفاته امر القاتل اباه يقين ان تلك الجريرة لا يجترحها احد من الناس وأنا لاستطيع ايضاً أن اظن أن البنين يفقدون الشرف اوتنتابهم ضعة او حطة . ولكن ليعلم كل منهم جميع ضروب الاقدام ويعمل بمقتضاها لان للاقدام مراتب لاتنحصر في الامور الادبية والمادية التي فصلناها حتى الآن بل للاقدام مرتبة خاصة تدعى بالاقدام في الامور الاجتماعية

وقد قالت الحكماء بمرتبة اخرى للاقدام اقول عنها كلمات في هذا المقام : بيّنت الحكماء اختلافاً بين الاقدام في الامور العقلية وبين الاقدام في الامور الادبية وصرّحت ان مفهوم الاولى ان يرتأي العقل امراً و يحدث فكراً لم يطرأ عَلَى غيره فيصدع به ولا

تلغته عنه مطاعن الانتقاد ولا مصادرات الاضطهاد

ويظهر تفصيل ذلك فيما جرى لغاليله (شيخ علماء الطبيعة الايطاليين ١٥٦٤ —١٦٤٢) حينما جاهر بدوران الارض وحكم عليه ديوان التفتيش (مجلس تأسس في القرون الوسطى لعقاب المسلمين واليهود والمنشقين عن الكثلكة في اسبانيا فتأسست له فروع في البلاد الاوربية سنة ١٢٣٢) فانه قد جبن ورجع عن رأيه واقر بالتوبة امام الديوان الا انه اقدم وما برح يعتقد بحديث فكره دون ان يظهره

فاذا كان هذا التدقيق في انواع الاقدام بسيطاً في حده فليس كذلك فيما بيناه من ذي قبل فان الاقدام في الامور الاجتماعية مزية ضرورية لكل فرد عاش بين ظهراني الأُمة وحاكت في صدره الوطنية وأَحب ان يسعى وراء مصالحها العامة

فعلى كل من ينتمي لحب الوطن ان يجاهر بافكاره و يصرّ عليها عند ضلال الناس وعند الحاجة ، ويناهض من ناوأَه فيها و يدرأ عنه من ينتقده باطلاً او يلحق به سباباً او تصيبه منه غيبة ، وينهض رغماً عن كل امر وكل فرد ، ان كان عَلَى شاهد عدل من وجدانه ، ويقدم اقدام الرجال و يتخذ العهدة عَلَى نفسه فيما يجاهر به من افكاره واعماله . وان يعرض للمخوفات والشدائد إن كان عَلَى سداد

من عقله و بيّنة من واجبه، فان رجل الاقدام لا تأخذه حركة الضلال وان عمت بليّتها . بل يقاومها و يثبت مندفعاً وراء ما اُختطه لنفسه ولو لقي في سبيل ذلك مرًّا

وعلَى الفتى إذا كان ممن يتشيع للفضيلة و يأنف من الرذيلة أن يؤيد ما يحب ويحبط عمل ما يكره لاسيما وقد اصبحت الرذيلة في يومنا بمكان اعتبار والفضيلة هزواً

وليس للفتى الناهض إلاَّ أن يسير في سبيل الحياة علَى ما يعتقد به ولو كان اكثر الناس لا يعملون بذلك نفاقاً او جبناً، وان لا يعمل الا بما يطابق قوله ولا يقول الا ما يوافق رأيه غير مداجٍ ولا محابٍ

إن هذا هو الإقدام في الامور الاجتماعية غير انه صعب تناوله قليل قبيله ولكن لا صعب على من هداه العقل واستحكمت فيه الارادة واتخذ الواجب رأساً للفضائل فهو ذاك المقدام علَى كل امرٍ لاسيما الإقدام في الشؤون الاجتماعية

قلت ان الإقدام واحد في كل امر وكما أن وحدة الاقدام قد تكون بين الافراد تكون بين الأُمم ولذلك كانت الأُمم طوائف : فريقٌ شجاع مقدام وفريقٌ جبان خائر

ومن الأُمم من تدرج من المنزلة الاولى الى الثانية بان فسدت فيها الافكار وتنكرت الاخلاق وتغيرت العزائم وتبدلت البواعث

واستبدلت الرجولة فانحطت الافراد واستبدلت الأُمة غير الامة

وللامة المنحطة في بعض الاحايين نهضة لغابر رجولتها ورجعة لغارب مجدها ان امسكت بنفسها ولم تزغ عن السداد . غير أن ذلك قليل لكنه غير مستحيل ففي التاريخ شاهد صدق . الا وان في ذلك امنية امل لمن خاف في أُمته تنكراً في الاخلاق أو ضعضعة في الهمة او فتوراً في الإقدام

ان التفتنا عن هذا ونظرنا إلى أُمم الارض كما هي عليه اليوم نجد كل أُمةٍ قامت بمقام غير مقام اختها فمنها من كان في أعلى عليين من مدارج العظمة والكمال ومنها من كان في اسفل سافلين من الرذيلة والانحطاط

فاذا قسمنا الأُمم حسب منازلها إلى شطرين رأينا ان الاولى تمتاز عن الثانية بالاقدام، وكبر النفس، وحب الاستقلال، والحرية والثانية تختلف عن الاولى بان ماتت عزائم جسمها وضعفت روابط اخلاقها حتى هانت واصبحت رقيقة لغيرها ضرعة في امرها

سر حيث مكّن الله للامم في الارض ترَ رجالاً يقدمون في ساحات الحرب كما يقدمون في الاشغال وتتابع النسل فالذي اصلح العامل والزارع ورب البيت اصلح الجندي فجعله باسلاً . فينتج من هذه القضية ان المقدام مقدام في كل امر

وهكذا تكون الامم المقدامة مقـدامة في كل عمل فمن كان يقدم منها في الأعمال يقدم في ميادين القتال فيستظهر . الا وان الظفر لمن اقدم سواء في الصناعات او في الحرب

فعليكم ، ايها الفتيان ، ان تحكّموا عقولكم وتقـدموا عزماً ، (فتكون الأُمة من القوة في مكان منيع)

الفصل الرابع

العمل والسعي

اعلم ان الحياة بالسعي والعمل وانه لافائدة من الفكرة والارادة اذا لم تكن غايتهما العمل . فالعمل والسعي شرطان متلازمان لتساوي قوى الروح والجسم، فهما قوام حياة الرجل كما انهما قوام حياة كل أمة من الامم

قضت بالعمل سنة الوجود وشريعة الاخلاق عَلَى كل فرد من الافراد لان من عمل افاد نفسه وعشراءه وأُمته

الا وان الامة ليعوزها اليوم رجال من بين ذراريها يعملون، فقد اربى فيها رجال القول واصبحوا بمكان ثقة من البلاغة حتى امتُدحوا منذ قرون مدحاً عرفوا كنهه ايام الخور . وان دمنا عَلَى هذا زحف العدو علينا، فمهما يبلّغ الكتبة ويبلغون، و يقولون فيعربون فلن يغني قولهم فتيلا ولا نقيرا بل ندمر تدميراً ونساق وراء مركبة النصر صاغرين

أظهرت أمتنا ولله الحمد في سالف تاريخها المجيد انها تعمل ما تقصر عنه كل امة وثمة الوف من السنين انقضت في السعي والمجد شاهدة لنا بالفوز وعهدنا ليس ببعيد

فينبغي لنا اليوم ان نسترجع حب السعي والعمل حتى يمجد مستقبلنا ونحيي حياتنا الاولى

وكما وجب على الفرد ان يعمل لخدمة وطنه فقد وجب عليه ان يعمل لخدمة ذاته

فمن ابتغى مكانة بين الناس وعلواً عمل بغير فتور ولا ملل لان الفوز في هذه الحياة لمن ظل عاملا حازماً ، لا تدخله سآمة من دؤب ، ولا اعياء من لغوب

واعلم ان للعمل خلة اخرى وهي انماء قوى الجسم والروح وصيانة الصحتين الجسمانية والاخلاقية . فالعمل حركة والحركة حياة والخمول او الكسل فتور والفتور ممات

فالعمل عَلَى تضارب ضروبه عقلياً او ادبياً او جسدياً كان تنطوي تحته مظاهر الحياة الطيبة التي تشرأب اليها نفوس العظام . ولو لم يكن عمل في الحياة لما حسنت في هذا الوجود حياة

ولذلك وجب عَلَى من بدرت منه بادرة نزاع الى البطالة والكسل ان يشحذ قوى الارادة حتى يقلع عما تاقت اليه

نفسه ، لان من مس قلبه الكسل ولم يربأ بنفسه عنه علق به الخمول واستحكم فيه مع توالي الايام حب البطالة وذهب ما طبع عليه من الاخلاق وما اكتسب وقعد عما اوجبه عليه الواجب وثمة الخسار

وقد يندفع المرء الى العمل بالمزاولة كما يتطرق الى تربية الارادة بالمزاولة ايضاً فلا مستحيل مع الجهد والوكد ولذا أُسدي لفتاي النصيحة بقولي :

— اعمل حتى تمرن عَلَى العمل

واجمع الى ذلك القول قولاً آخر :

— كن ناشطاً عاملاً . واقضِ معظم الايام في المهام .

واعلم ان ليس كل عمل بعمل . فالعمل ما كان منه عَلَى حكمة ومنفعة ونتاج وثمرة فليس بكاف ان ينزع المرء الى اي عمل كان ، بل عليه ان يجنح لما فيه الفائدة سواء في الاعمال العقلية او الصناعية

فان العمل المفيد سنة ازلية من سنن الوجود فرضت عَلَى كل امريء ، فبها يكبر المرء شأناً ويمجد شرفاً . فالعمل ضرورة لأَكثر الافراد واجب عَلَى كل الافراد

القِ ببصرك عَلَى سير بني الانسان يتجلَّ لك ان العمل في كل جيل كان قوام حياتهم واداة رقيهم وآلة سعادتهم . فبالعمل

كما بالذكاء والاقدام ساد الانسان على العجماوات واستخدم قوى الوجود لخدمته . والحضارة من حيث هي حضارة لاسيما حضارة اوروبة اليوم ليست الا من نتاج عمل الانسان

يقال في اغاني العوام « ان الحرية في العمل » وهذا صحيح لان في العمل غنية للمرء ومكانة لا يبلغها من استحوذت عليه البطالة .

العمل ضرورة لامندوحة عنها للفقير اوجبته عليه الحياة والقانون والهيئة الاجتماعية وقد وجب العمل على الغني كما وجب على الفقير وان كان ذا يسار يتمتع بما خلفه له غيره من الملك .

بالله عليك ! اية فائدة للارض ام اية منفعة للبلاد ام اية مصلحة للهيئة الاجتماعية من رجل لايعمل ولا يثمر ؟ الجواب — لافائدة ولا منفعة ولا مصلحة

بل اية مكانة للحياة اذا لم يشاطر المرء بني الانسان في امرهم ولم يمالئهم على الشؤون الاجتماعية والوطنية ؟

يتحتم العمل على الغني لان في مكنته ان يأتي مالا يأتيه غيره ، لانه تدرع لهيجاء الحياة بوسائط فعالة ليست بيدي غيره ، وقد يتيسر له ان يعمل ما يشاء وينزع الى المشاريع العامة والاعمال النافعة لانه لايحتاج للسعي وراء قوت يومه

و يجمل بالمرء اذا كان ذا دار للصناعة او محل للتجارة او بيت للصرافة او اراضٍ يستثمرها ان يحمل ولده عليها ان كان في الاستطاعة ، و يشركه في امره حتى يساهمه بديئة بدء و يسير فيما بعُد مسيره . وان يدع له المشيئة في اصلاح شأنه وانماء عمله بما لديه من الثروة ، فاذا لم يتمكن الشاب الغني أن يخلف اباه في عمله لاسباب ، فله ان يبتدع لنفسه عملاً كأن ينشيء مصانع او محال تجارية او يستثمر اراضي لاتنتج الا بالمال فيستغني بموارد غير موارد ابيه

ان الصناعة والتجارة والزراعة ميادين للعمل فسيحة الاكناف مترامية الاطراف فاليها يجب عَلَى سواد الفتيان ان يكون مطمح انظارهم ومطمع افكارهم فان لكلٍّ مكاناً ولا مانع يمسك بهم عن اي عمل معقول

ومن لم تكن له وجهة لتلك الثلاث فله ابواب اخرى مشروعة تفيد الموسرين والمحاويج منها العلم والفن والادب والجندية والبحرية والملكية

عَلَى ان كل ابواب المعاش يسهل دخولها على الفتى المثري و يتذلل لديه كل ما يصعب لدى غيره لانه تخرج اكثر من سواه في العلم فيصطفي اي طريق من العمل اراد واية محجة شاء

هذه مميزات الغني عن الفقير الا انها تذهب هباءً منثورا ان نشأ في الترف و بطر في بحبوحة العيش ، لان ذلك يدعوه الى

الانحطاط في الجسم و يعكفه عن الاعمال ٠

فلا تأسوا ايها الفتيان ! فانتم في شرخ الحياة وريعان الشباب فاعملوا فان حظكم من الحياة ما تعملون

الا وان اول الرحيل ليس بذي بال اذا كان السفر بعيداً ، الا وان حظكم من هذه الحياة بين ايديكم ، فاعملوا مهما كانت بيئاتكم عسراً او يسراً ضراء او سراء

اعملوا واقدموا حزماً ٠ فان طيب الحياة ورغد العيش ليس لمن كان غنياً منكم او ذكياً ، بل لمن جمع في نفسه بين رسوخة في السعي وارادة مستحكمة في العمل

فاعملوا كداً كداً ، لانفسكم ولذويكم ولأمتكم ، فتروّحوا النفس وتسروا الخاطر

ان العمل ترافقه السعادة في الحياة ، وتهون بجنبه اخطار المعاش ، و يخفف وطأة الهموم اذا ساورت ، و يظاهر على احتمال النوائب اذا احدقت

العمل سنة جليلة ملؤها الرجولة اوجبتها الهيئة الاجتماعية وجوباً مقضياً ٠ فالعمل مصدر الفضائل والفراغ كما في المثل ام الرذائل ٠ فمن لاعمل له كان كلاً لاخير فيه للمجتمع الانساني ولا لنفسه فالعمل لامحيص عنه في الحياة فمن لم يعمل صالحاً عمل

بالطبع شراً

العمل قوام الحياة والفراغ مفسدة لها ومميت . لان الحديد اذا أُهمل صدى . وكذلك العقل والاعضاء اذا تهاون المرء في امرها وهنت وتداعت الى التلاشي والاضمحلال

فمن دعته دواعي الحياة فنشط الى العمل حفظ قواه ودامت له صحته ، ونأى عن طوارق الحدثان ، وسلم من شرك الوهم الذي يلحق بمن استحسر عن الاعمال ، ومن ثم تطمئن نفسه فلا يستشير ميازين الجو ، ولا يرصد حالة السماء ، ولا ينظر في المرآة لون اسانه للمقابلة بينه وبين جسمه كما تفعل الكسالى كل صباح . بل يعيش عَلَى كدحٍ من العمل فيتقي نسَم الامراض التي تتهدد العقول والاجسام ويحيي صحيح العقل صحيح الجسم

العمل يدعو المرء ليقوم بواجب الحياة ويحمله عَلَى احتمال مالها من صغير النوائب ، مثلوج الفوآد طيب الخاطر ، يبسم عن ثغر ملؤه المسرة واليمن

اما الفراغ فمدعاة لأن يمعن المرء النظر ملياً في ادنى ملمة فلا يعتم ان يكبر امرها ويعظم شأنها فتجسم عليه الاحزان وتتضاعف الآلام فتعتوره الكآبة وتختلجه السآمة وتتخبطه السوداء داء النفس ورأس ادواء الجسد

ذلك يشاهد بأجلى مظاهره في بلاد غير بلاد اوروبة حيث يشتد الاقليم وتثقل الحرارة فيعظم كل امر ويظهر عَلَى صورة لاتظهر في البلاد المعتدلة

يعيش بنو اوروبة في غيرهـا بوسط يضمر لهم سوأ فلا الشمس ولا الجو ولا الارض ولا الحيوان ولا الحشرات تمحض لهم الود فيعمل اكثرهم يسيراً وينصاع الى الراحة فتنتابهم عوامل الفناء وتعبث بهم الادواء فيبدهم الموت عَلَى التوالي . لكن منهم نفراً قليلاً يسعى ويعمل فيحصر نفسه في أعمال العقل والجسم فينفي عن جسمه المهالك والمخاطر ويقوم بهامهِ احسن قيام ويحفظ صحته وتبقى له الحياة . كل ذلك دليل عَلَى مكانة العمل الذي اوجبته الحكمة عَلَى بني الانسان .

ولذا يعذرني الفتيان ان رأوا الحاحاً في نصحي واحفاءً في كلامي فاني اتخذتهم لي تلاميذ علقت بهم حباً . فعفواً ايها الفتيان ان رجعت الى قولي :

اعملوا كدحاً كدحاً ، ولا تركنوا الى الفراغ فتخلدوا اليه .

فان راحة الجسم بعمل العقل وراحة العقل بعمل الجسم

الفصل الخامس

تهذيب الاخلاق

لايكمل تهذيب الاخلاق في الشاب ولو بلغ حد الرجولة ، بل يضطر اليهِ في ريعان الشباب اكثر مما بعده ، وتعظم حينئذ فائدة التهذيب لانه لايملك عَلَى المرء في ذلك العهد الا نفسهُ وحياتهُ فينصاع الى امرها و يسترسل في اتباعها . واعلم أن الحياة مرّة اذا اخلّ الشاب بامرها ولم يصلح بالها و يحسن تقديرها من تلقاء نفسهِ لاعن انذار منها

ليس في نفس الانسان عَلَى عهد الطفولة الا شوائب صغيرة تنمو مع نمو العمر . فان لم تزدد نمواً فقد كفاها شؤماً انها تصبح في المرء خلة اشمئزاز لا طاقة له بها في شرخ الشباب ، كالكذب مثلاً فهو طبْع في الطفل ذميم ، فاذا تأصل فيهِ ودرج عليهِ اصبح هجنة تحط من شأنهِ . وهكذا الحال في النهامة فهي خصلة تكره في الطفل ، فاذا شب عليها كانت فيهِ خلقاً مستنكراً يدنيهِ من البهائم

و بعد فيتضح ان المرء يحتاج في عنفوان الشباب لأن يزوي عنه معاير ومعايب كان يدفعها في عهد الطفولة ، وذلك لامرين اولهما

لان الحكمة لايستتب لها الغلب في الشاب ، وان الكمال لايبلغ منصته احد من الناس . ثانيهما لان الحياة بعد عهد الشباب لاتخلص من مساوئ وشوائب يجب التحفظ منها والاعراض عنها ان علقت، واستئصالها إن تأصلت

وللشاب آونة من حياتهِ — وبودي لو يكون ميعادها عند تلاوة هذا الكتاب ولم يتقدم عليها بالعمر — ينبغي له فيها ان يمحض الاخلاص و ينقر عن طبيعة اخلاقهِ، فيقلبها ظهراً لبطن و يروي فيها، فيشذبها و ينفي عنها ما خبث و يستقرّ عَلَى ما طاب و يسعى وراء ما يجب المسى اليهِ من الفضائل

هكذا كان يسبر فرنكلن (احد ساسة الاميركان وعلمائهم، مخترع الشاري ١٧٠٦ — ١٧٩٠) طبائع نفسه عَلَى التدقيق والاعتناء، فيكتب في صحيفة ماله وما عليه ، ما قلّ فيه وكثر من سوآته وحسناته ، وما فقد منها وما اكتسب . ولقد يقال : ليس في وسع الناس جميعاً ان يقصدوا قصد هذا الرجل وليس للمرء إلا أن يتخذ له مباديء يحتفظ بها في نفسه دون ان يسجلها في كتاب ، بيد ان كثيراً من الشبان يودون لو يخطون ما يحققون و بأي المباديء يتصفون ، وقد سرت على اثرهم وانا ابن الثامنة عشرة ولكنني لم اكن اتفقد ما كتبته بل كنت اتبلغ بذكراه فامضي في امري

ومن الضرورة أن يعلم الانسان أي الرذائل والمعايب يجب أن تنزع من النفس وأيها يُسكت عنها ، واي الخلال والفضائل يجب انماؤها إن كان لها في القلب اصل ، وأيها نتلمسها إن لم يكن

فاذا علمت ذلك ونهضت بك الإرادة والاقدام فقد فزت فوزاً مبيناً

ينبغي لك باديء بدء ان تلزم نفسك قسراً وقهراً ثم تعالجها عَلَى حب الحقيقة والجمال وحب الخير وعظائم الامور وعلو الهمة

وان لاتعطف ولا تعكف عَلَى حب الدناءة والخساسة بل تأبى وتنبو عن القبائح والخبائث

وأن تجزم بالحكم عَلَى نفسك باستهجان كل شين وعيب . واعلم ان لا نُدحة للمتساهل في هذا الواجب فان لم يكن بد فللجاهل الغِمر ليس إلا

ومما يجب تهذيبه و إنماؤه في النفس كل ما نبل من الميول وكرم من العواطف فان الميول النبيلة بواعث تبعث الهمة فيجمل اثرها في الروح والجسم كما تسوء الميول السافلة . والميول من حيث هي ميول تحيي الشعور وتذهب بالخمول الذي يطوّح بالمرء و يودي به اكثر من الرذائل ، اللهم إذا كانت الامرة للعقل والارادة

لا للميول، لانها إذا استكانت لهما فيما يوحيان اليها بقيت متوازنة في الانسان منتظمة الاحوال

إذا تبين هذا فهي حرية بان يعمل بها عند تنازع الفضيلة والرذيلة فى النفس واعتلاج الخير والشر

ولا يقصد من تهذيب الاخلاق إلا تربية الرجل على ان ينتصر للخير فى تنازعه مع الشر وأن يتخلق بعادات ومباديء لايدب معها الشر إلى النفس حتى يخف ضيره عليها

ومن شاء ان يكون من رجال العمل لا المماحكة في القول وأن يسلك به الوجدان طريقاً سويا حتى تطيب حياته وجب عليه ان ينبري للخير على مقتضى ما رسخ فيه من حسن المباديء ، لان من بلغ هذه الأمنية بلغ الكمال بأمه ووطد لنفسهِ حياة مسرة وسعادة

ومن دعاه داعي الشر فعمل شراً لاقى جزاءه لامحالة باضطراب نفسه وبخز وجدانه . وكثيراً ما تتجلى المجازاة على الشخص تجلياً لاريب فيه

إن العدل لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها ، بله ما ندر ، ولذلك ترى الآلام والندامة تعقب اقتراف الشر وترنق صفو الحياة، على حين ان الخير والفضيلة ينبوعا اليمن والبركة

من سعى في تهذيب اخلاقه قام بواجبه لان تهذيبها اول واجب عَلَى المرء نحو ذاته، وقد ينزل عنه درجة تهذيب العقل وإن كان من الضرورة في مكان عظيم

فوجب علينا أن نبادر إلى تهذيب اخلاقنا لأن التهذيب يعود ايها الفتيان علينا وعَلَى الذين ترعرعوا بيننا من عشراء وانداد بالنفع، الا وان الهيئة الاجتماعيه لتستفيد من خلالنا وفضائلنا وتؤذى بما فينا من المغامز والملامز

مرّ بنا انموذج من الرجولة ايها الفتيان فاي المبادئ يتخذ الشاب حتى تكمل فيه؟ — يتخذ قبل كل مبداء أن يكون من جارل الصدق والحقيقة . واعني بالصدق أن يكون صادقاً في ذاته واقواله وافعاله لنفسه وللناس اجمعين، لأن النفاق والكذب عاران لايقاسان بعار من أتى بهما خان واجباً

أن من كذب هان وجنى عَلَى نفسه حياة تضيق مذاهبها ضيقاً ليس بعده من ضيق، لان الكاذب إن اراد اخفاء كذبه كذب مرة أخرى، ثم يكذب ثالثة لاخفاء الثانية وكلما اراد الاخفاء كذب أخرى وهلم جرا، حتى يحرج مركزه و يبرمه امره، الا إذا نزعت منه عاطفة الحياء والخجل فثمة لا حرج ولا ابرام

واعني بالحقيقة ضرباً من الصدق وهي أن يتصف المرء بما هو

اهله ولا يتزيى بزي غيره فيخفي كنه ذاته و يغشي حقيقة امره فالتصلف والتكلف عيبان لايسع إحتمالها احد من الناس ، فعلى من نزغته نفسه إلى ان يتزيي بما هو ليس من اهله أن يجهد النفس في أن يثوب إلى حقيقته فيبلغها لا محالة

وقد يسهل عَلَى المرء أن يلزم الحقيقة جسمه و بزته فعليهِ أن يلزمها اخلاقه وحياته لا نهُ لاجمال مع الاخلاق ان مازجها التصنع . ولا جرم انهُ إذا انزلت الزينة والتظاهر المنزل الاول من الحياة أهملت كمالاتها ودعائمها . وقد كتب شارل و يز الالماني صاحب الاخلاق الكريمة والعقل الصحيح صفحات ذات شأن عن الحياة الطيبة فقال «ان مصدر السعادة والقوة والجمال في الحياة من الحقيقة

فمن كان من رجال الصدق والحقيقة تسري إلى ان يعلق بما لايقل مكانة عن هاتين الخلتين وتدرب مزاولة الاخلاص والحرية والعدل والاستقامة

و يقصد من مزاولة الاخلاص والحرية ان يقول المرء الحق في كل زمان و يكشف عما يكنه صدره من عواطف وافكار

وقد يشرك العدلُ الاخلاص والحرية في امرهما بمواقع كثيرة فيأخذ بهما إلى صحيحهما و يجعل بين البشر في علائقهم طمأنينة تمليها عليهم عواطف الاستقامة والشرف

ثم أعني بالاستقامة ان يتحلى المرء بالشمائل التي ذكرت فيكون عادلاً مستقيماً ثابتاً في امره غير خادع ولا مداهن لايحيد عن الطريق السويّ ولا يرتاد غير الحق

واعلم أن لافضيلة تعلو الاستقامة فقد كاد يكون فيها جماع الخير للرجل، فمن ازدان من الفتيان بهذه السجايا او تيسر له ان يأخذ بها هذب معظم اخلاقه، وما بقي من ضروب الكمال يأتيه عفواً بدون جهد

عَلَى انهُ لا يسوغ ان نسدل ستراً عَلَى باقي خلال الكمال لان لها مكانة كما للاولى وها انا اكتفي بتعداد صدر منها

١ التوسط في القول والعمل لان ذلك دليل عَلَى كبر الارادة وصحة العقل

٢ كتمان السر وحفظ اللسان لان المرء إذا كان فاووهة اصبحت جامعته مع الناس فظة غليظة وحقة جافية لاطاقة بها

٣ التواضع ولا اعني به التذلل بل ما قال عنه لابرويار (احد كتاب الفرنسيس ١٦٤٥ — ١٦٩٦) « نسبة التواضع لمكانة الرجل كنسبة الظلالة للصورة تظهر بها جلية واضحة »

٤ البشاشة والبشر وهما دليلان واضحان عَلَى لين العريكة في الرجل

٥ الترتيب في الافكار والاعمال العقلية والصناعية الذي

لولاه لفقد جزؤ من النجاح

٦ مران العقل الذي به تمرن الارادة مراناً ليس بعده من مطلب

٧ القناعة والتقشف اي الاعتدال والبساطة في المطعم

ومن الضرورة ان نلحق بهذه المعالي مدانى نستنكف منها ونعرض عنها ألا وهي الخلاطة والخلاعة وشرب المسكرات والبذاءة والفحش والفسق وكل ما له علاقة بالبهيمية

فعلى الفتيان ان يجزموا فيحترسوا من الخلود إلى هذه الملذات المحطة بالشان . واذا لم يكن في أنفس الشبان دافع إلى تلك الخصال وزاجر عن هذه الخلال تساهلت الاخلاق في التخلي عنها وأُصيبت صحة الروح باكثر من صحة الجسم لانه يستحكم في أخلاق الشاب عادات سيئة ما آلها واذواق وخيمة عاقبتها

ألا وإن الاعراض عن شجرة الشر قبل ان يذاق طعمها اقرب تناولاً للمرء من بعد المذاق، لان من اعتاد ان يأكل مطاعم توبلت لا يستلذ بعدها بمطاعم غير مأولو أحكم طبخها . فاولى بالفتى ان لا يحاول معاناة أمور خطرة على الاخلاق ولا يواقع ما يخالف قواعد الحياة، بل عليه ان يراعي تلك القواعد في كل حين . ويجدر بالمرء ان يعلم ان المكانة في الحياة تكتسب بهذه الخلال كما تكتسب صحة العقل والجسم

واعلم ان إحترام الناس للرجل لايكون الا بمقدار مكانه في الحياة ومن يكرم حياته يُكرَّم . وانما تكون كرامة الحياة في كرامة النفس وفي النزوع عن كل ما ينتقصها امام الوجدان واعين القوم كالملاذ الدنيئة مثلاً

ومهما وجبت عَلَى المرء كرامة نفسه فقد وجبت عليه كرامة غيره لاسيما الشيوخ والنساء ومن امتاز بفضائله او علمه او القيام بواجبه ، فان من كرم الاخلاق ان يحترم الرجل الناس بلا تزلف او تذلل . جرى على السنة القوم في يومي هذا ان يقولوا : لا كرامة للناس عند النشء ، فاذا صح ذلك كان عنواناً عَلَى ضعف الاخلاق وفقدان كرامة النفس للنفس ، وذلك مما يجب ان نحرص في دفعه ونثابر عَلَى درءه

ولئن قيل حقاً في فقدان الكرامة عند النابتة فقد يقال في الانحطاط وفقدان الانتظام . وليس بخاف ان في ذلك ضرراً عَلَى الأُمة واي ضرر ، فانه حيث لايستقر نظام لايستقر جيش ولا تزهو حضارة ولا تحيى أُمة ، فبالنظام والترتيب ، ايها النشء ، تستجم الامة قوتها وتلم شعثها

واعلم ان الحرية ومكانة الرجل لاتمسها منقصة ان عنت لشرائع وقوانين تُفقد الامم بفقدها ، وتصبح الجنود شراذم للانهزام وسبة الدهر وعار الابد

فمن حافظ من النابتة عَلَى إمرة نفسه والترتيب في افكاره كان من رجال الواجب والاقدام الذين يتوفرون عَلَى كرامة الانتظام في الجندية والترتيب في الهيئة الاجتماعية . واعلم ان في الاذعان للقوانين مقدرة عَلَى قيادة الناس ، وان الجندي الذي يخالف القانون لا يصلح ان يكون قائداً يرجى منه الخير

فاقول للفتى وانا عَلَى يقين انه يصغى لنصحي :

— كن رجل ترتيب في امرك

واقفي عَلَى ذلك بقولي :

ـ حافظ عَلَى كرامة نفسك وكرامة الناس واحتفظ بمكانتك في الحياة

واختصر النصائح فاقول :

١ عليك بحب الحقيقة والصدق في كل امر

٢ عليك بالاخلاص والحرية والعدل والاستقامة

٣ عليك بالاعتدال وكتمان السر وحفظ اللسان والتواضع

٣ عليك باطاعة القانون والقناعة والتقشف والبشاشة والبشر .

ان هذه واجبات مختلفة المنازل في المكانة . والواجبات واجب اتباعها ، ايها النشء الناهض !

الفصل السادس

العدل والاخاء

إذا رام الفتى ان يعدد واجباته نحو اترابه وضع في طليعتها : العدل . وان احب ان يرفع منار حقوقه في الهيئة الاجتماعية كان رأسها : العدل

فالعدل واجب عَلَى الانسان مدين به للانسان ، وحق تستدينه منه العشراء والأُمة فيطالبهم به . ولذلك كانت الحقوق والواجبات أُموراً متلازمة ان قام الرجل بواجبه وفّى الناس له حقه .

وما قيل في العدل يقال في الاخاء . الاّ ان الاخاء واجب عَلَى المرء نحو المرء ولو لم يكن حقاً صريحاً يداعي به . فاتباعاً للواجب ينبغي للمرء أن يكون من ذوي العدل والاخاء

ان العدل والاخاء سنة صعبة عَلَى النفس لكنها روّاحة للنفس ، بها يترقى مجتمع البشر

ويلوح للناظر ان عاطفة العدل في الرجل فطرت قبل ان يفكر في تهذيب الاخلاق ، فهي احد ار كان الاخلاق الكريمة

واحد مبادئها التي لولاها لما قامت قائمةولا سنت سنة عَلَى وجه الصحة بين البشر. فعاطفة العدل حقيقة واضحة كالحقائق التي يستند عليها في علم الهندسة ، اذا داخلنا الشك فيها بطل علم الرياضيات و بطلت كل معرفة نفخر بها عن حق

اما وقد تبين ذلك فعلينا ان ننزل العدل — والعدل إعطاء كل ذي حق حقه — فوق كل جدال وخصام . لانه اول عروة وثقى ترتبط بها الأُمم

إن الامم لم تنشيء في اول نشأتها هيئة الحكومات الاصيانة للحوزة وحيطةً للعدل فهي لا تحيي حياة وفاق والتئام الا بعد ان يجري العدل على وجهه بين افرادها .

فمن لم يملك عليه حب الذات والشهوات شعر من نفسه بعاطفة العدل كل حين ، فيميز كل ما يخلص عنه او عن غيره من الامور. فان كان عن غيره مدح او قدح وان كان عنه شعر بأَمْن في سرّبه او وخز في وجدانه

قال برودون (احد كتاب افرنسيس ١٨٠٩ — ١٨٦٥) «خلق الانسان للعدل» وقد اتى بالأُمم برهاناً على ذلك فقال:

« لم تشرع القوانين حقيرة كانت او عظيمة الا وقد كانت موضع شك وخصام شديد ولكن غلبة العدل عَلَى حب الذات

خلة للروح لابد منها يظهر بها سلطان الوجدان وتجلى كفالته للعدل فيعجب بها المعجبون »

فواجب العدل نحوا لأتراب والاقران فرض عين ينبغي اتباعه لكل أمريء من هذه الأُمة

واجب العدل يقضي عَلَى كل فرد باحترام الناس في حياتهم وحريتهم وعقارهم وشرفهم ومعتقداتهم وعواطفهم . وبناءً عليه حقت لنا مطالبة ذلك من كل فرد

وقد وجب عَلَى الأُمة ان تسن هذا في قانونها حتى تطالب به الناس ولكن القانون لا يبحث إلا عن المحسوسات، اما علم الاخلاق فأمره اشد عناية من ذلك، فانه يزجر عن كل ما يضر حتى انه ينهى عن فكرة الضرر ولو لم يعمل بها ، فيقضي بالاقلاع عن كل امر لا لوم عليه ولا سوء فيه إذا كانت غايته سيئة ، وذلك ما لا يتسنى للقانون ان ينص عنه

وثمة امر عظيم وهو الاستقامة . فالاستقامة يفهم منها ان يدأب المرء في القيام بالواجبات التي يأمر بها القانون وعلم الاخلاق . وما بعد الاستقامة من شرف يتطاوله . الا وان الاستقامه غاية علم الاخلاق فينبغي لكل حي ان يقتفي أثرها باتباع هذا المبداء :

— كن عادلاً مستقيماً

وقد يرق جانب هذا المبدأ ان وصلناه بمبدأ آخر :

— كن صالحاً لين العريكة اخاً لاخيك الانسان .

للتهذيب والارادة قوة تجعل الفتى عادلاً فهل لهما ان يجعلاه صالحاً ؟ — يزعم كثير من الناس ان ذلك من مستحيلات الزمان ، وان الانسان اما ان يخلق من الاخيار واما من الاشرار ، وليس بوسع احد ان يبدل ما خلقته سنة الوجود .

فهل يصح ذلك ؟ اني سائلهم قبل الجواب هل تكثر الاشرار ؟

قال جان جاك روسو (احد فلاسفة الفرنسيس وكتابهم ١٧١٢—١٧٧٨) : « ان مجموع الرجال من الاشرار اما الرجل فهو من الاخيار » اي ان مجموع الانسان شر وكل فرد من افراده لا يخلو من الخير . وقد يظهر لي من ذلك الحكيم انه قد اصاب بقوله لان لكل امرئ نصيباً من الخير تتفاوت الناس بوفره او نزره

فعلى رجل الملكة ان يُعمل الارادة معملها في انماء فضيلة الخير في قلبهِ إذا كان شطره منها يسيراً . لان الصلاح ورقة الجانب عاطفتان كريمتان تزيدان الحياة كمالاً فوق كمالها ورونقاً فوق رونقها ومن أحسن ممن يتحلى بهما ؟

فكن صالحاً لين الجانب للناس يكن ذلك الناس لك . فان القوم والقوم كثير يبادونك بما تباديهم : إن خيراً فخيراً وان شراً فشراً

فمن الحكمة والروّية وكرم الاخلاق ان يمرن الفتى منذ النشوء عَلَى الصلاح ويكتسب ما استطاع من هذه الفضيلة إذا لم تسبغ عليه سنة الوجود

وأعلم أن الاخاء ومحبة الناس لايقلان درجة عما تقدم فأحبب ذوي القربى والارحام كما تحب نفسك واتخذ كل عضو من بني الانسان أخاً لك توده عَلَى السواء فلا تضمر لاحد منهم وحراً ، ولا لاية أمة وغراً لا داعي له ولا سببا

فان كان مفهوم الشرائع انه ينبغي لك ان تود كل بني الانسان بدون استثناء وتنبسط لحب رجال البيئة التي انت فيها كانبساطك لحب رجال كمشتكا (شبه جزيرة في شرق آسيا تحت سلطة روسيا) او بتاغوني (قصبة في امريكا الجنوبية تحت سلطة الارجنتين) بلاد لست تعلمها وربما لن تراها فذلك امر لايعتد به لانه ليس ثمة من حقيقة

نعم ان واجب الاخاء علينا يشمل كل رجل غريب الديار مجهول الاصل ، نعينه عند الرزايا او الضرورة . بيد انه ينبغي لنا ان نحب من جمعتنا واياهم آصرة العنصر فعاشوا وعشنا بينهم ، ورأونا ورأيناهم ، وتعرفوا الينا وتعرفنا اليهم ، حباً راسخاً يتماسك في صميم قلوبنا اكثر من تماسكه لغيرهم ، وان نتضافر جهدنا على

اعانتهم في الامور المادية والمعنوية تضافراً لاناُتي به لسواهم

فلهم وجب علينا الاخاء الحق لان رجال اُمتنا رجال اجدادهم اجدادنا، ومستقبلهم مستقبلنا، ارتبطوا بنا بحيث يأمر الواجب وتقضي مصلحة الأُمة بحبهم ومعونتهم

فتوازروا، ايها الفتيان، وتكاتفوا وكونوا اخواناً، فانتم في حاجة كبرى للاخاء. الا وانكم انتم المسؤولون غداً عن مستقبل الأُمة

ان اشتداد الازر والاتحاد من الضروريات لتناهضوا الاخطار التي تربض لكم وتصادروا الاهاويل التي تتربص بكم. الا وان الفتن قدنارت نائرتها فحاصت ولابت حول الامم. الا وان الأُمم الحية خفت الى النمر فنمت، والميتة بعثت من رقدها فتحركت

فلا تدعوا أُمة حية انتم من نسلها تتداعى إلى الإضمحلال ويقرضها التفرق والانقسام ويفنيها البغض والشحناء، فانتم لاترضون ان يتألب عليها الاغيار بتهاونكم، ويستأصلها عن بكرة ابيها بتنازعكم، ولا ان تقوى قواها فتجلى عن حماها، ويسحقها البلى وتنقضّ عليها زعازع ترون في الافق ركام سحابها

فتحابوا وتعاونوا، ايها الفتيان، وكونوا حراصاً عَلَى الاخاء بين قضكم وقضيضكم: عظيم القوم يود حقيركم وحقيركم يود عظيمكم واعلموا انكم متضامنون متكافلون، ان أُوذي احدكم عن غير

عدل ولا جزاء فلسوف تؤذون عاجلاً او آجلا ، ولسوف يؤذى قوم آخرون حتى يعم المصاب قبيلكم

التكافل والاخاء امران يهونان واجبات الذات حتى انها تلطف في سبيلهما . فالمودة خير من وحشة القلوب واهون على النفس من وحر الصدور .

أليس من العدل والاحسان ، ايها النشء ، ان يكفل اهل الذكاء والعلم والتهذيب والغنى من لم يتمتعوا بما به يتمتعون ؟ فمن ضاقت عليه مذاهب الحياة يقدر قيمة المحسن والشفيق بما يفوق احسانه وشفقته بمئات

الا وان للاعمال الصالحات مكافاة فاحسنوا ، ايها الشبان ، على مكانتكم ، ولا تكونوا مشحشحين ، تخلفوا الاحسان ان لم تكافأوا ، بل اصطنعوا العارفة واعملوا الصالحة فالعمل الصالح لايفنى

وهل انا في حاجة بعد هذا لآتي بنصائح في الاخاء وقد كثر ما تقدم ؟ فان قلت عليك بالصداقة — والصداقة صيغة الاخاء — او عليك ان تعلم كيف تتخذ الاصدقاء فتعلق بهم من صميم الفوآد وتمحض لهم المودة مدى الابد رددت ما قالت به الحكماء والاخلاقيون والشعراء في كل جيل وقبيل

الصداقة امر روحي لايعيبه احد من الناس ، عرف بها رجال

المدارك الكبرى والصلاح وقد قال لافونتين (احد مشاهير الشعراء الفرنسيين ١٦٢١ — ١٦٩٥) شعراً من قصيدله يردد من المهدالى اللحد :

« لذيذ الحياة صديق صدوقُ »

فالمودة والصداقة والاخلاص كلمات نخر ترن في آذان النابتة ، فان قدر للنابتة ان لاترن هذه الكلمات في آذانها فقد اكفهر لهـا وجه السماء وتغير وجه الارض وفقدت الحيـاةُ سبب الحياة ورونق الحياة

الفصل السابع

الحرية والتسامح

ان الحرية كالعدل حقٌّ من حقوق الانسان

نقصّ بناظرك عن أمم تجد أن للحرية شعبا اهمها ثلاثة لايمكن توضيح حدودها ايضاحاً وافياً وهي الحرية الادبية والحرية المدنية والحرية السياسية

فالحرية الادبية يراد بها حرية الضمير وحرية الابرام والعمل بشرط أن يكونا مختصين بالرجل لا بغيره

اما الحرية المدنية فقد يستمدها الرجل من القانون لاجل علائقهِ ومعاملاته مع الناس وليس لها تدخل مع الشؤون السياسية ، عَلَى انها تقرب من الحرية السياسية وتكاد ترتبط معها في كثير من الامور . فاذا قلت ان الأُولى تختص بالقانون المدني والثانية بالقانون السياسي فلا أجعل بينهما مميزاً كافياً . لخير التعاريف ماتقدم ، لأَن التحديد بينهما نظري يختلف باختلاف النظرات السياسية

لقائل ان يقول . هل للمرء حرية الضمير والابرام ؟

الجواب عَلَى ذلك — لا ريب فيه ولكن كلٌّ بمقدار ، فبقدر ما يلوي

الرجل عن اتباع اهوائه وخواطر نفسه ومما يبه وشوائبه يكون حرًّا

وبعد فان الحرية تستقيم للرجل ان كان هماماً مريداً يأخذ زمام نفسه بيده ويجعل اعماله تحت تصرف عقله

ان الحريه الادبية رأس ضروب الحرية واشرفها مكانة ، فيزدان بها الرجل عَلَى مقدار معالي اخلاقه . فمن شرفت مبادئه واستقرت إرادته كان حراً يتمتع بنفسه عَلَى ما يتراءى له، وليس للظالمين من يدٍ عليه . ذلك ما قصده لامارتين (احد شعراء الفرنسيس ١٧٩٠ — ١٨٦٩) بقوله «ان الانسان في الحياة الدنيا اما ان يكون عبداً لله او للنفس او للمطامع ، فكن فاضلاً تكن حراً سواءً كنت تحت امرة الامير ، عَلَى ضفاف السين (نهر باريس) او ضفاف التيبر (نهر رومة)، فان الحرية رهن يد الرجل . ذلك هو الحق الصراح لان الفضيلة والارادة اداتان للحرية الادبية »

ان الحرية الادبية امرٌ خطير يثلج به الوجدان ، ولكن رغبة الرجل في الابرام والعمل ونعرة الفطرة فيه لاتكتفي بتلك الحرية فللمرء حرية أُخرى تعرف بحرية الابرام والعمل

ولو لم يكن عَلَى الأُمة واجبات لبث الحرية لاسيما الحرية المدنية بين افراد الوطن لكان عملها ليس بذي بال . وهنا مجال القول فقل:

ان الحرية المدنية حق للانسان مفطورٌ عليه

ما القصد من الحرية المدنية ؟ — حدد الذين نادوا بحقوق الانسان الحرية المدنية فقالوا وجماع القول ان للمرء :

١ حرية الذهاب والاياب دون معارضة استبدادية

٢ حرية القول والكتابة والطباعة والنشر دون مراقبة

٣ حرية القيام بشعائر اي دين كان

٤ حرية الاجتماع عَلَى السكينة دون سلاح

٥ حرية التمتع بالاملاك

و يضاف الى هذه الحقوق حرية الجمعيات . وقد جاء في القانون « ان الحرية يقصد بها اتيان كل امرٍ لا يضرُّ بالناس » وجاء فيه ايضاً « ان حرية الانسان واسعة مطلقة لا حدّ لها الاَّ متى اضرت بحرية الآخرين » وعَلَى هذه القاعدة تستند الحرية المدنية . فعلى كل امرئ من الشبيبة ان يداخله هذا المبدأ و يمضي به ، فقد صرّح القانون بقوله « ان كان من الواجب ان نحافظ عَلَى حريتنا فمن الواجب ان نحافظ عَلَى حرية الناس . وان كان لنا الحق في الحرية فعلينا ان لانبخس حرية الآخرين »

فينتج من ثمة مبدا آن ينحصران في هذا القول :

— عليك بالغيرة عَلَى حريتك . والكرامة لحرية غيرك

وورد في القانون « ان من لوازم الحرية الطمأنينة على النفس وحرية التملك »

ولا حاجة للبرهان على ضرورة هذا الأمر لان اول مفهوم الحرية طمأنينة الرجل . فاذا فقدها ضاعت فائدة بقية انواع الحرية لان من يزج به في السجن ظلماً وعدواناً لا تفيده حرية القول او الكتابة مثلاً

اما حق التملك فقد كفله الدستور . وحق لي أن اذكر عنه كلمة في هذا المقام فأقول : ان حق التملك تتمة للحرية المدنية ولازم من لوازمها لانه لو عدم الرجل من حق التمتع بماله ونتاج اتعابه او انفاقه على الفور او الاحتفاظ به أو استثماره حسب ما يوافق رأيه لكانت حريته محصورة تتعلق بارادة غيره . فنتيجة الحرية المدنية حق التمتع بالاملاك ولا حرية للمرء بدون ذلك الحق

واعلم ان من ضروب حرية الضمير حرية المعتقدات الفلسفية والدينية . ذلك لامراء فيه لأن كل امرئ يعتقد بما يحلو له وليس في مكنة احد ان يمسك به عن اعتقاده . فان ما يدور في خلد الرجل لا تتناوله يد مراقبة او عامل استبداد

وغير خافٍ ان ذلك ليس بكاف فللمرء حرية في أن يجاهر بما

يعتقده و يقوم بشعائر دينه، لأن من الظلم الذي تقشعر منه الابدان والجور الذي لا يحتمل أن يمنع الناس عن اتباع دينهم او يكرهوا على اتباع دين به لا يؤمنون. فذلك امر يثير ولا كالمثيرات ويحنق ولا كالمحنقات

واعلم ان حرية المعتقدات التي يدعونها بحرية الوجدان عزيزة لدى انفس الاحرار الذين تقدست افكارهم عن الجمود. فينبغي لنا ان نكرم شأنها ونعزز امرها، لاسيما قد كفلت كرامتها شرائع الأمة. فمن الضرورة ان يحترم الناس جانبها ويقومون باجلالها وان يحث اولياء الامر وذوو الولاية والخاصة من الأمة على الاحتفاء بها حثًّا ليس في القانون. فانما القانون لا يشمل كل قصاص ولا يوجب كل واجب في الهيئة الاجتماعية

وينبغي للفتى ان يتفهم ان احراج الناس في معتقداتهم ولو كان طفيفاً عمل حابط يزداد شؤماً وهجنة ان قصد منه المضرة والاذى

فالمعتقدات مهما كانت وفي اية صورة تمثلت تراعى حرمتها ويكرم شأنها، وليس لاحد ان يكره الناس على اتباعها فينبغي لنا ان نحترم كل دين او عقيدة دون ان نكون من اهلها

فاحترموا ايها الفتيان، اديان الناس وطالبوهم باحترام دينكم فان

ذلك واجب من الواجبات وحق من الحقوق

واختصاراً لما تقدم من وصاتي اقول للفتى الناشيء :

— عليك بالتسامح والاحتفاظ بعقيدتك . وأعلم أن للناس ديناً لا تدين به ، فلا تقل ما يجرح عقيدتهم ، فالعقيدة امرٌ خاص بالوجدان يجرح ولو بخفيف المسيس

فالتسامح واجب من الواجبات يقضي به الاخاء ولين العريكة والعقل الصحيح والذوق السليم . ارجع البصر فيمن يكتنفك من البشر تجد اناساً وددتهم واكرمتهم ، واذكياء بلغوا ما وراء الغاية ، وعظاماً تختلف عقائدهم يدينون باديان لاتشابه بين بعضها . فالاختلاف في المعتقدات امر طبيعي

هذا هو القرن الاخير قلّب الطرف في اعظم رجاله عقلاً تجدبين من تجد « هيغو » الذي لايدين بدين يجاهر باعتقاده في الله و يدعوه امام ضريح ذراريه حيث يقول :

«انا اعراض نتلمسك ونتجسسك في الاشفاق يا فرد يا صمد! فلا نكاد نهتدي لغامض حكمتك . انك انت العدل فلا شرٌّ ولاموت . عمت نعماؤك العالمين واضاء نورك الارض . فآمنّا بك و بوجودك ، ولو كنا لانفهم كنه امرك . »

فالاديان والفلسفة حلت معضل المشكلات في الحياة وما بعد الحياة فاختر منها ايها الفتى ! ما يحلو لك ، ودع الخيار لغيرك ، لانه لا علم لاحد بصحة ما يخالج فكره حتى يكره عليه غيره وما كان الاكراه يوماً على الدين جائزاً

و بعد فاعلم ان في التسامح لدينٍ تظنه عبثاً كرامةً للحقيقة واحتراماً للحق

الفصل الثامن

تهذيب العقل

عَلَى كل فتىً ان يجعل همه بادئ بدءٍ تهذيب اخلاقه وصلاح نفسه، وذلك لأمرين اولهما لان مكانة المرء في هذه الحياة بكرم اخلاقه وثانيهما لان اولياءنا لم يبلوا الغلة بتهذيب النفس في معاهد العلم الاَّ يسيراً

واما تهذيب العقل فانه بمثابة تهذيب الاخلاق الا انه ينزل عنه درجة ، إن اهملنا جانبه فقدنا وفقدت الأُمة فائدة عظيمة مما اودَعته سنة الله فينا من القوة ، وخذّا واجباً من أجل الواجبات نحو الذات الا وهو واجب الترقي واصلاح النفس والنهوض إلى المعالي

لم يبلغ تهذيب العقل في مدارسنا اليوم على اختلاف طبقاتها سوى مبلغ تمس بعده الحاجة ، فما في مدارسنا الا مبادئ تهذيب لا التهذيب ومقدمات علم وادب وطرق تعلم ليس الا

فالعقل اداة، سواء ساء صنعها او حسن وضعها ، تفيد إن أُعملت وتتداعى الى الصداء والفناء ان اهملت . ويفقد الرجل إن اغضى عنها مصلحة من حياته ويضيع عبثاً سني شبابه

فليس لاحد بعد هذا ان يقتصر عَلَى ماتعلّمه في المدارس وزين به عقله، فان الرجل لا يستفيد حق الاستفادة إلاَّ متى استقرت فيه الارادة وتسنى له ان يكون في غنية عن الاستاذ، فلازم العلم كما يشاء العقل . تلك لعمري واسطة يرسخ بها العلم حق الرسوخ لأن بها نفهم ما لم نكن نفهمه من قبل، وندرك ما كنا نقنع بالالمام به، ونقف عَلَى الافكار بعد ما كنا نقف عَلَى معنى الكلمات، ونبلغ اللب بعد ما كنا نكتفي بالقشور

فعلى كل فرد من الشبان ان يتعلم من تلقاء نفسه و يهذب عقله مهما كانت احواله حرجة ولو انهى دروسه العليا

فيعد نفسه للمران عَلَى ما سيتخذه من العمل ان لم يبدأ به، وقلما وجد من يقضي اياماً عديدة في دروسه العليا ولم يأخذ للمستقبل عتاده . فكثير من رجال النابتة يسعون وراء ما يختص بمستقبلهم من المعارف التي تخيّروها لأنفسهم في المدارس الخاصة لها كمدارس الحقوق والطب ويمرنون عَلَى صناعتهم في المعامل او دوائر التجارة او بيوت المال او استثمار الاراضي، فعليهم ان كانوا من اولي الارادة أن يدإبوا النفس جهدها في ادراك صناعتهم و يقدموا بيقظة انتباههم عَلَى مستقبلهم فان افراط السعي في هذه السبيل حميد

ولكن مهما كانت حاجات الحياة تستوعب اوقاتهم فقد يتيسر

لهم ان يخصّوا وقتاً لتهذيب العقل بالمعارف لان ذلك يفيدهم فيما يسعون وراءه من الصناعات . فان من يسعى وراء تهذيب عقله يسعى بالطبع لسمو افكاره وازدياد معارفه وتنمية قوة التمييز فيه

أَلا ترون ايها الفتيان ان أذكركم كيف يتم ذلك التهذيب ؟

— يظهر لي أَن لا فائدة بالبيان الصريح لان بلوغ الغاية يأتي على مئة طريقة مختلفة الشعب، وان لكل امرىء وجهة لا يتحرّاها غيره، بيد انه لا يدرك احدكم هذه الغاية الا إذا كانت الكتب من الدرجة الاولى

على ان كل الكتب تشترك في الفائدة و يرتاح لها العقل، الا انني ادعوكم الى نفائس الكتب التي تتعاورها الايدي في المدارس وتتناولها الاعين بضع ثوان

ففي كل جيل وقبيل مئات من هذه الكتب النفيسة ينبغي للمرء ان ينظر فيها نعماً حتى يتشرب عقله بها و يجعلها من اعز الخلطاء عليه فيعرج طوراً عن مؤلفات كونفوشيوس (احد فلاسفة الصين ٥٩٠ قبل الميلاد) الى مؤلفات كانت (احد فلاسفة الالمان ١٧٢٤ — ١٨٠٥) وطوراً عن اوميروس (احد مشاهير شعراء اليونان صاحب الالياذه ١٠٠٠ قبل الميلاد) إلى هيغو وآونة عن اشيل (احد شعراء اليونان ٥٢٥ — ٤٥٦ ق) الى شكسبير (احد شعراء الانكليز

١٥٦٤—١٦١٦) وقورنيل

(لو وقفت موقف المؤلف ازاء قومي لقلت « عليكم بالقرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة ومقدمة ابن خلدون والعقد الفريد والاغاني والبيان والتبيين واشهر مشاهير الاسلام وأم القرى والتربية الاستقلالية وسر تقدم الانكليز وروح الاجتماع وحضارة العرب والتربية لسبنسر واصول النواميس والشرائع لبنتام وروح النواميس والشرائع لمونتسكيو وتاريخ التمدن الاسلامي . وحريٌّ بالفتى الكريم ان يتلمس كل ما كتبه ابن رشد وابن حزم وابن تيميـة والغزالي وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب)

فذلك زرع لا تلتووا ايها النشء، عن حصاده ابتغاء إنماء الذكاء وتسديد العقل وترقي الشعور

ولا تبخسوا رجال العصر مؤلفاتهم ولا تطعنوا عليهم ولكن ارجعوا البصر الى حيث يزدان قرن الادب العظيم بموليار (احد كتاب الفرنسيس الهزليين ١٦٢٢—١٦٧٣) ولافونتين وقورنيل وراسين (من مشاهير الشعراء عند الفرنسيس ١٦٣٩—١٦٩٩)

(ولو خيرت لذكرت من رجال هـذا العصر : جمال الدين الافغاني ، محمد عبده ، احمد لطفي السيد ، محمد رشيد رضا ، رفيق العظم ، عبد الحميد الزهراوي، شبلي شميل، جرجي زيدان، عبدالرحمن

الكواكبي ، يعقوب صروف)

وعليكم بمطالعة شعر فيرجيل (اشهر شعراء اللاتين ٧٠ — ١٩ ق) وهيغو ولامارتين وآخرين يلذ شعرهم فان الشعر عذب رقيق يطرب به الشعور و يهتز له الذكاء

(ولو شئت لقلت « عليكم بشعر ابي العلاء وابي الطيّب وابي فراس والشريف و بشار وحافظ والبارودي)

وقد يعد التاريخ من اعظم المطالعة لذة واكثرها استجلاباً للارتياح وقد يفوق الرواية المأساة او القصصية حسناً في مشاغب الحوادث وصدق وقوعها ، فان الحقيقة تعلو كل خيال في العقل ، فكم تمرُّون في التاريخ بحزين الاموات وشقي الاحياء في فصل واحد ، وكم تجدون فيه من الحوادث والدسائس والمعجبات والمضحكات ما هو جدير بتقويم قوى الروح بلا نصب واكتساب فنون السياسة بلا تعب

(آخذ بيد الفتي الناهض الى تاريخ ابي الفدا وابن الاثير وابن خلكان وابن ابي اصيبعة والطبري وابن خلدون وتاريخ صلاح الدين وخلاصة تاريخ العرب لسديو المستشرق)

فالتاريخ لاجرم افضل من شتاء القصص التي اكتظت بها مكاتب العصر بحث المرء في عشرات منها حتى يعثر على ما هو جدير بالمطالعة

عَلَى ان في بعض هذه القصص ما ينطوي عَلَى دقائق اخلاقية وفلسفية وجغرافية تلذ مطالعتها اكثر من كتب هذه الفنون الثلاثة . ادرك هذا لافونتين فقال « ابرم النفسَ علمُ الاخلاق اذا لم يكن عَلَى سبيل القصص »

واعلم ان المطالعة من حيث هي مطالعة مفيدة الا مطالعة كتب السفاهة والهجر فان العقل والادب يقضيان علينا بان نميطها عنا . على ان لكل كتاب وان لم يصلح ، مزية تأخذ بفكرة الرجل ، وذلك امر خطير لان المرء قد يسرّي عنه بالمطالعة ما يطرأ عليه من المصائب وقد حقق ذلك مونتسكيو (احد قضاة الفرنسيس ١٦٨٩ — ١٧٥٥) فقال « ان العمل خير علاج لكرائه الحياة فانا لم احزن وقت المطالعة البتة »

واعلم ان لتخفيف المصائب ضرباً آخر لايقل وقراً في النفس من الاول الا وهو البحث في الفنون وما خلفتهُ لنا القرون من البدائع والنفائس وما نراه يبتدع من جميل الصناعات

فالنشء في حاجة كبرى الى تهذيب عقولهم في معاهد العلم على هذه الصورة صورة المشاهدات ، غير ان مدارسنا قد تراخت في ذلك بحيث لاتعلم الفتيان الا ما يختص بالفنون لا الفنون ولا تنمي فيهم قوة التمييز فحسبنا تقصيراً

لاعلم يشوق اكثر من هذا العلم فبه تسر النفس وتقر العين ايها الفتيان ! ففتحت دور الفنون كل مستغلق لكل مريد وفيها كل قديم الصناعة من مباني غطت بها اجدادنا وجه الارض وقصور غابت عنا في نائي الديار . فعلى كل فتى منكم ان يختلف اليها ويكمل تهذيب عقله بتصوير ما يترسمه من الصناعات والفنون التي تحدو ولا ريب الى ترقي العقل لاسيما وقد كثرت وسائط الرسم

واُعلم ان من احب جميل الصناعات كحبه لجميل الكائنات وأُتيح له ان يميز الجميل في المصوَّرات والمنقوشات والحفريات فاز بنعمة كبرى وتوفر على ترقية آدابـه وعقله وكان من ارباب الذوق السليم

عَلَى ان حب الجميل يعلق بعلائق خفية مع حب الخير والسؤدد ولذلك ستؤثر الاجيال شهرة أثينا ومجدها كما اثرتها من قبل أُثرةً لازوال لها ، لان هذه المدينة قد علمت كيف تجمع الى اساطين الحكمة دهاقين السياسة وتضم اليها زخارف الجمال

وقد كان الاغريقيون يتبارون في الجميل عَلَى رؤوس الاشهاد وعيون الملأ اما نحن فانا لم نبلغ مكانتهم بل الشوط بعيد بيننا وبينهم . واُعلم انه لو كانت الفنون في بلادنا زاهية اكثر مما هي عليه لما رأى الناس ان يشيدوا المباني متناقضة الضروب لان الجميل في المدن

يكاد يكون مفقوداً

فاذا ناديت النابتة للرغبة في الفنون الرفيعة استدرجتها من ازمة الخمول التي تهدد بلادها بلاد الصناعات من ذي قبل

الا وان الفنون الرفيعة بنات الخيال وقوة الابتداع كما ان الخيال ابو الشعر والاحلام

فان لم يكن الغني من ذوي الفنون الرفيعة ولا من الشعراء فقد قوة من الخيال ، وقد عرفنا ان العقل الصحيح والارادة المطبوعة لايضعفان الخيال بل يهذبانه ويجعلانه صالحاً مفيداً . لانه اذا لم يقيد الخيال بالعقل تشوشت الافكار في المرء ووهم الامراض في جسمه . ولا ينحصر مرض الوهم في رواية موليار فقط بل هو شائع بين طبقات الناس بحيث ارى من الحكمة ان أبين خطر الخيال إن تألب على النفس ولم يكن تحت سيطرة العقل على وجه الاعتدال ، فانه يدعو والحالة هذه الى ان يكون الرجل طيّاشاً لاحلم فيه

فالعمل والهمة يقرّان النفس ويحظران عليها اضطراب الخيال . واعلم انه متى اعتدل الخيال وكان تحت زعامة الحكمة كان له في النفس من حسن الأثر ما يؤول بصاحبه الى حميد التناسي والتغافل

اخبر ليشتنبرج (احد علماء الالمان ١٧٤٢ — ١٧٩٩) انه كان يهيم مراراً في بيداء الخيال فيقضي بضع ساعات في الاوهام والاحلام

وفي كل ما يمثله له الخيال وقد قال « لو لم افعل ذلك في فصل الشتاء لما عمّرت ما عمرت » وكثير من هم عَلَى شاكلته

ألم تهم ايها الفتى بابتكار الصور في المتنزهات يوم الفراغ ؟ الم يخطر لك تبديل الكون غير الكون ؟ الم تمرّ في خيالك حوادث السنين ببضع هنيهات ؟ الم تفكر بتشييد القصور وعمارة البيوت حسب ما يخطر في بدواتك عَلَى طراز تبتدعه وانموذج تخترعه ؟ الم يدرْ في خلدك ان تصنع ما لا مثال لجماله ولا شبه لحسنه وكماله ؟

كل هذه من بنات الخيال والاحلام تلذ بها النفس وتدفع فيما بعد الى الاعمال الممكنة

فلا تضيق الخناق عَلَى الخيال، ايها الفتى، فقد تبين لك نفعه بل تعاهدْه بالعمل إن آنست منه فتوراً، واجعله تحت قيد العقل فتكون في مأمن من جماحه واعتداله

الفصل التاسع

تأثير الاخلاق في الجسم

العقل الصحيح في الجسم الصحيح

— اردت بكتابة ما يقوله الاولون ان اكرر ما تطاّلت الى تكريره نفس رجال التربية عَلَى اختلاف مشاربهم وما أَلفته اسماع القارئين الاحداث في المدارس والكتاتيب وفي اكثر الاندية العامة. ولا بأس بتكريره فهو مبداء شريف ينبغي ان نستعصم به لانه يتضمن عَلَى ايجازه ما تبعث اليه الحكمة في ميدان تنازع البقاء الاوهو : ايجاد عقل صحيح في جسم صحيح

وليس ذلك طلب امرين مختلفين كلا بل متلازمين لا أنفكاك لاحدهما عن الآخر فلصحة الجسم او مرضه اثر بيّن في الاخلاق والعكس بالعكس .

ان الاخلاق لاتكمل الا بكمال صحة الجسم وهكذا الحال في الصحة فانها لاتستوي للمرء مع اضطراب في الفكر وكارثة في القلب ومنقصة في الاخلاق .

ولا يكفي صحة الجسم ان يمرن الانسان عَلَى رياضة البدن

ذلك ضروري غير انه كما اسلفنا ليس فيه الكفاية .

قلت ضروري لان نمو القوى والاعتياد على اقتحام المتاعب ورشاقة الجسم ونشاطه لا تأتي الا بالرياضة . فالرياضة واجبة لسداد الجسم نسعى اليها بهمة لا تفتر ولا تستحسر . فان قضي على المرء ان لا يكون في مهامه نصيب لرياضة الجسم فعليه بموالاة السعي (المشي) وهذا امر يسير لا مضرة فيه ، وبملازمة ركوب الخيل ان امكنت الحال ، وبالسباحة ، وبغير ذلك مما يشرف من الالعاب ويمتاز بحراك العضلات ويأتي بحميد التناسي

ولا حاجة لبيان فائدة النظافة التي ان اهملها الانسان افسد عليه صحته وكان في عداد الذين تخلوا عن الادب والتهذيب

واعلم ان واجبات الصحة اكثر من ذلك ، فانها تحتم علينا بان نجمع بين الاعتناء في صحة الجسم وصحة الاخلاق وان نجعل الروح تظاهر الجسم على احتمال دواعي الحياة وتكبد المكاره ودفع المهالك

أيرتاب احدكم ان للروح اثراً عظيماً في الجسم ؟ والروح كما اعربت الحكماء جماع القوى الادبية والعقلية ؟

— غير نكير تأثير الجسم في الاخلاق فان ضعف الجسم يوهن الذكاء ويفسد الشعور ويذهب بالارادة .

هذا تأثير الجسم في الاخلاق فما تأثير الذكاء الخالص والارادة

لراسخة في الاجسام وفيما يعروها من الجراثيم ؟ وما تأثيرهما في دفع لامراض والشفاء منها اذا لم نستطع ان نجانبها ؟

— علمتنا التجارب وارشدنا العقل الصحيح ان لها تأثيراً حميداً في ذلك اذا لم نجزم بانها تدفع الامراض حق الدفع، فقد رأينا ان العواطف اذا اهتاجت، والشهوات إذا ثارت، ومطالب النفس إذا تحركت، تجر على الجسم اضطراباً فجائياً او مرضاً او موتاً، كالهلع إذا اشتد، والفرح إذا طرأ على غرة او جاوز الحد، والغضب إذا احتد، وقد يرتعش الجسم من الفزع ارتعاشه من البرد

علم الناس ان الفزع من الامراض ولا سيما من الاوبئة يهيء صاحبه لقبول العدوى، وان المصيبة تصيب اكثر الاحيان من وجل منها، وان من لم تأخذه الرجفة كان في حرز امين وحصن حصين. فينجم عن ذلك ان للارادة الراسخة وللاقدام اثراً صالحاً في الجسم يحفظه من الامراض

مر بنا في فصل سابق كيف نجا «غيتي» بارادته من الحمى الهائلة التي كانت تعبث به وقد قال « يخال المرء ان ليس للارادة اثر في الامراض، بلى انها تبعث في الجسم نشاطاً يصرف عنه ضرر العوادي»

ان في ذلك لآية على اثر الاخلاق في الجسم يوم حرج المصائب، على حين ان البرهان يثبت مما نشاهده في الاطباء

والممرضات اللاتي يلازمن المصاح فانهم يتعرضون للامراض المعدية والاوبئة المشؤمة ولا تلحق بهم اذية بما في انفسهم من دافع الواجب وقوة الارادة

انظر من احاط بك من الخلطاء والعشراء، فمن لم يفتأ عن ان يتداعى المرض و يتوجع لخوالي المصائب وحواضر النوائب و يحاذر من طواريء الخطار كان من اولئك الذين فقدوا من الحياة روح العزيمة والجلد والاقدام فضعفت اجسامهم . ولا بدع فان ضعف الاخلاق يأخذ من قوة الاجسام العظام و يعدها للامراض والعلل المخوفة

والعكس بصغير المصائب التي لامحيص عنها، فان وطأتها تخف إذا لم يحفل بها المرء ولم يتراخَ عن عمله من اجلها لان الهمة في الحياة مصحة تحرق كل جرثومة دأبها الاذى وتزجيها صاغرة في دوران الدم

واعلم ان بعض الامراض تنتج من ضعف الاخلاق، فتنشأ عن سوء الخلق والضجر وحب الأثرة مصائب تفضي الى قصر الحياة وسوء العاقبة وكريه الموت

فان تداعى المرء الى السآمة والملل وكان لاطاقة له وللناس بنفسه رمته السوداء وافسدت عليه جسمه فضعف وتدرج الى

الاضمحلال . وان تهاون في ضبط نفسه ملكت عليه اعصابه وسرى اليه داء الوهم « الهستيريا » . وان جارى حب الأثرة صرف همه في نفسه وصحته وسارع الى المحافظة عَلَى جسمه والمراقبة عليه ، وخيل له ان صغير النوائب كبير فتغشاه ثمة الامراض حتى تودي به

ان هـذا اثر الاخلاق في الجسم فلو رجع هؤلاء القوم الى رشدهم واستفتوا ارادتهم لاعتنوا بما هو اعلَى شأوا واشرف شأنا و تجافوا عن معاير الاخلاق وآلام الجسم

ادرك هذا فوشترلوبن (احد الاطباء النمساويين ١٨٠٦ — ١٨٤٩) فقال « لم يعرف الاقدمون ايها الناس داء السوداء ولا داء الوهم ، فكونوا اشرافاً كالاغارقة ، وشداداً كالرومان ، علها تزول تلك المصائب الهائلة »

ولا داعي للبيان باكثر من هـذا فقد ظهر ان الاخلاق تؤثر في الجسم تأثيراً يذكر ، وان العقل والارادة ونبل العواطف تعين على صيانة الجسم من الامراض وتطيل الحياة وتجعل امرها صالحاً طيباً

فياحبذا لو يقنع النشء الناهض أن له الامرة عَلَى نفسه كما له السلطان عَلَى افكاره . وحبذا لو يتوسم في نفسه خيراً عند كل طارئة اوحادثة .

وماذا عسى أن أقول حتى يجزم الفتى في ذلك الاعتقاد .

أيجمل لديه أن آتيه ببرهان شاهدته في نفسي؟ — اني اعتقدت منذ شرخ الشباب أن لي الزعامة عَلَى جسمي فكنت المهيمن عليه حتى اليوم

أما وقد ظهر أن الاخلاق تزوي عنا الامراض فهل لها ان تأخذ للشفاء من الادواء ان دهمتنا لاقدر الله ؟

— نعم ذلك لا ريب فيه. ان السكينة والشجاعة عند المرض والرغبة في الشفاء تأتيان بكثير من المحاسن . وقد علم ذلك الاطباء حتى انهم حسبوا من الحظوة العظمى مداواة من شرفت عواطفه ورسخت ارادته لانهم يجدون فيه عوامل تدفعهُ للشفاء وزواجر تنأى به عن ضعف العزيمة

وكيف لا تشفي ملكة الارادة من الامراض عَلَى حين ان هوائج العواطف ولواعج الشهوات تشفي المريض دفعة واحدة ؟

فكم من المقعَدين في فرشهم دهمهم الخوف فخفوا الى الركض سالمين من القعاد ، وكم من المفاليج في بيوت لعبت بها النيران فاستحوذ الخوف عليهم من هول الموت فنهضوا من فرشهم راكضين .

قص علينا احدهم ان بعض هؤلاء المفاليج ذهب الى حيث يقضي صلاتهُ فرأى الناس في جلبة يتصارخون مخافة اسدٍ اتى جوارهم من مجمع الحيوان فسارعوا الى الهرب ولبث الرجل في مكانه

وحيداً يملؤه الرعب فجرى دمه وازداد خوفه حتى اشتد عصبه وذهب داؤه ، فدلف لينجوا كما دلف غيره ، ولما سكنت الضوضاء وذهب الروع وجدوا المفلج قد تسلق مكاناً علياً في نافذة من نوافذ الاولياء الصالحين لايدرون كيف بلغه ، فارادوا ان ينزلوه فعز عليهم حتى انزلوه بعد جهد ووكد

كل ذلك دليل عَلَى ما للعواطف من التأثير في الجسم . وانواع أُخرى من العواطف غير الخوف تأتي بتأثير لايقل مكانة عما تقدم، فقد قصوا ذات المرار قصَصَ ذلك الرجل إذ ضعفت اعصاب لسانه حتي تعذر عليه الافصاح، فعمد طبيبه إلى اختراع آلة تشفي المصاب من مصابه ، وقد اعرب له عن فائدتها فتاقت نفسه اليها حتى لم يكد يستطيع صبراً ، فلما احضرها الطبيب طار لبه فرحاً ، فاخذ الطبيب في العمل ووضع ميزان الحرارة في فمه كيما يقف عَلَى درجة الحرارة، فظن المريض ان الميزان هو الآلة المقصودة بالذات ، فجاشت نفسه شوقاً حتى صرخ : شفيت ،فشكراً لك ايها الطبيب . فبهت الذي . . .

هذا ولا تكاد تنتهي اعجوبات هذه القصص التي تؤيد تأثير الاخلاق في الجسم ، فالتأثير لامحالة في صحته ولا جدال في حقيقته . وقد قفّى بعض الاخلاقيين عَلَى قولي « ان الاخلاق

تؤثر اثراً عظيماً في الجسم» بقولهم «تقرأ اخلاق الرجل فى اسارير وجهه» وقولهم «الخُلق الحسن مدعاة للخُلق الحسن»

ولست أُبرهن عَلَى ما يقولون ولو كان به الكثير يعتقدون، فاني لا أرى ذلك اعظم فائدة مما اسلفت عَلَى حين اني لا اجزم حق الجزم بصحة ما يقولون عَلَى ان الشبه لا ريبة فيه بين اسارير الوجه وعواطف المرء وافكاره واخلاقه وهيئته وصنعه

فان قال قائل هل في الامكان غير ذلك ؟ الجواب يستحيل ان لا تلوح العواطف الثابتة في النفس عَلَى الوجه، لان كثيراً من العواطف غير المستقرة تتبين جلية عليه كالفرح والحزن والخوف والحماس فكيف بلين العريكة والشرف والمكانة ؟ فانها تعرف في وجه المرء كما تعرف الرذيلة والدناءة والسفاهة . ولذلك يستطيع الناس لاول مرة ان يعرفوا كنه اخلاق الرجل والمرأة ولو لم يكونوا عَلَى اضطلاع من علم الفراسة ،لان اثر الفساد يتمشى عَلَى الاسارير تمشياً لا ريبة فيه ، وقد يشاهد تأثير الاخلاق مشاهدة في جمال من غاب عن بصرك سنين واستبدل اخلاقه . نضرب لك مثلاً امرأة حسنت اخلاقها وصلحت آدابها ودل عليها جمالها، فدرجت عليها ايام فجرت فيها وفسقت ، فتراها ولا ازيدك علماً قد انسلخ عنها رونق الحياة. وقد شاهدت ذلك مشاهدة عيان فدهشت عَلَى الفور وذلك

انني كنت امتّ بسابق معرفة إلى مزارع ذكي الفوآد مستقيم الطبع جميل الصورة راجح العقل واسع العلم دقيق النظر دون فخر منه، يقين ان ما يعلمه ليس بشيء مما لم يعلم، شأن ارباب العقول النيرة، وقد كان بيني و بينه عقدة وداد ارتاح الى حديثه · غاب عني هذا الرجل بضعة سنين ثم لقيته فلم تحضرني هيئته لانها تنكرت عليّ وتبدلت بان استل من وجهه رونقه، وانتزعت سيماؤه، وانسلخت مكانته التي طالما قد تعشقتها فيه فلم ارَ اليوم مني دافئاً اليه ولا جاذباً

فعلى مَ وقع الصديق ياترى ؟ تبيّنت الخبر فعلمت ان اخلاقهُ تغيرت عن بكرة ابيها وهجر أسرتهُ وفجر، وحمل زوجه عَلَى الهجران فآوت إلى اهلها وأوى إلى ما تنبوعنهُ مكارم الاخلاق · كل ذلك ظهر لي في اديم وجهه

فيا ايها الفتيان ! ان الجمال ينبئُ عن حسن الاخلاق، فهاته فتاة — وقد يكثر من كان مثلها — صدّقة الخطَر والنظر، يرف عَلَى وجهها التواضع والحرية، وتقرأُ في عينها سورة العدل والاستقامة فهي حسنة الخلْق لانها حسنة الخلُق

فاليكم بمن كان عَلَى طرازها ايها البنون ! ان اردتم رفيقة في الحياة، فقد اصدقتكم النصيحة، فعليكم بالجمال فالجمال اخو الصحة والصحة نتاج العقل الصحيح وتكوين العواطف الكريمة

الباب الثاني

فى الأسرة

الفصل العاشر	ذوو القربى والارحام
« الحادي عشر	المحبة والوداد
« الثاني «	الزواج
« الثالث «	البنون
« الرابع «	السعادة والثراء
« الخامس «	نقص الانفس

الفصل العاشر

ذوو القربى والارحام

الأسرة وما ادراك ما الأسرة ! الأسرة لفظة رقيقة المبنى عظيمة المعنى في كل طور من اطوار الحياة

فما من وليد يخيل له ان الكون يتجسم في أسرته ، وان له فيها معصماً يعصمه، وكنفاً يستظل به، وحياة يستمدها منها، الاَّ وقد جعل للاسرة غاية اجلاله . وما من فتى تحيك فيه الآمال وتبعثه الثقة في نفسهِ لاستقلال ذاته في حياتهِ، ويذكر ماضيهِ ويحنّ للمنزل الذي دب فيهِ، وأنس باعزاء ترعرع بينهم وبلغوا بلغوا اشدهم، الاَّ وقد جعل للأسرة منتهى شغفه . وما من رجل ولا من اب علق حباً في أسرتهِ ،وسكن لها في معمعان حياتهِ، فطوى عليها قلبهُ ورآها منبعث روحه وعليها مستقبل ايامهُ ، الاَّ وقد جعل للأسرة جماع احترامهِ . وما من احد رقّ قلبهُ وعظمت نفسهُ الا وقد جعل للأسرة اعظم اكرامهِ

فالامم العظام والملل الشداد لم تستوفِ قسطها من البأس والقوة الا من ترقي الأسرة في الاخلاق، فالأسرة قاعدة ان وهت

هوت الأُمة وهوت الدولة، لانها بدءٌ لطيف تتكون منه الانسانية، وملاء جمعته سنة الوجود فكان اصلاً تتشعب منه الامم المتمدنة. فلو أنحلت رابطة الأسرة بادئ بدءٍ لاستحال على الانسان كل ترق وصلاح في المدنية والاجتماع

فالأسرة ملاءٌ ضمته سنة الوجود فاشتد ازر الانسان به وتدرج الى التعاون مع عشراءه والتعاضد مع ذويه حتى نشأت من ذلك روح التكافل والتضامن بين الناس

وعلى هذا درجت السنون ودرج التكافل فتكوّنت كل مدينة في الارض من الأسرة. ثم اخذت كل مدينة تنمو بارتباط العلائق حتى تجددت أسر اخرى بتجدد الروابط والمصالح العامة فاتسعت دائرة المدن من أسرة واحدة في متسع من الارض او منحصر، حتى تكوّن الوطن. الا وان الوطن لهو الأسرة الكبرى، الا وان الأسرة لهي الوطن الصغير

وطن وأسرة اسمان يرنان في الاذن رقة وشرفاً وعظمة على وتيرة واحدة، فما حب القلوب الا لهما ولا فداء الارواح الا في سبيلهما ولا قوة الشباب ولا عزم الرجال الا لاجلهما

ان الاولين الذين نبلت اخلاقهم ومجدت اعراقهم قد أقاموا قواعد سياستهم واركان دينهم على احترام الأسرة فكان الاغارقة

الذين اشتهروا بالبأس ، والرومان الذين اتصفوا بالغلظة لا يحترمون من الارباب الا اجدادهم منبت الأسر . فكان الابناء يعبدون الاباء والاجداد الاحياء عبادتهم للاجداد الاموات . يحتضر احدهم فيقوم بنوه يقضون له عبادتهم حيث كان يقضي عبادته لآبائه او حيث يقيمون له معبداً . هذا في الاولين واما في هذه العصور فتدين بعبادة الاجداد شعوب مختلفة وأمم مؤتلفة يربو عددها على خمسماية مليون من الناس في شرق آسيا ، وذلك مما يؤيد ان لا انتشار لدين كدين عبادة الاجداد . وأعلم انك إن اكرمت اليوم اجدادك اكرمك بنوك غداً اضعافاً

نعم انه لا يسع الفتى ان يطالب اليوم بعبادة الناس الذين نسل منهم ، الا أنه يجمل به ان يجعلهم من قلبه في مكان ، وان يفكر فيهم ويخصهم بالمحبة كلما تجددت ايام الحياة ودنت اوقات الممات ، وان يذكر إن استطاع ان يعلم نسب اولئك الاجداد الذين قضوا حياتهم في المتاعب والمصاعب وجهدوا وجاهدوا بأنفسهم ودمائهم في سبيل الوطن حتى وطّدوا القدم في هذه الارض ارض الأُمة

هب انه لم يتسن للفتى ان يقف على معرفة نسبه وكان ابوه كما هي الحال مع اكثرنا زارعاً لم تلازمه السعادة ولم يسلسل آباءه إلى اجداده ، ففي مكنته ان يتصور اجداده و يبعثهم من اجداثهم في

فكرته فيودهم لاقدامهم على السعي والقتال ويحببهم بسبب تمكنهم من الحياة على هذه التربة الزكية وتحت هذه السماء الصافية سماء الوطن الذي احتفظوا بحوزته فورثناه عنهم بعد ان رغب فيه كثير من الامم

فاجدادنا اعاظم لانهم جعلوا الأمة عظيمة القوة متماسكة الرابطة وتعاونوا على الحضارة في اوروبة فكانوا وكانت للامم قوة وشرفا

فعليك ، ايها النشء ، بمعرفة اجدادك ومحبة آبائك . وان وفقت ووقعت على تاريخ اسرتك فاكتبه مع الازمنة والامكنة والحقه بتاريخ حياتك والقِ به الى بنيك فيعلموا ثمة شرف الاجداد وشرف الآباء وفي ذلك بلغة وكفاية

يرى المرء ان احترام اولى القربى الذين مضوا قبل ان يخلق كنهٌ غريزي في النفس لا يفهم سره ولا يدرك امره ، الا انه يتنزل عن احترام الابوين درجات لان احترامهما يبعثه الحب الصراح من صميم الفوآد ممزوجاً بالحنين ومعرفة الجميل

ولكنه متى بلغ الطفل اشده علم سبب حبه لوالديه فيحبهما لانه يرى ذلك واجباً شريفاً تلذ به النفس

وقد شذ مَنْ لا يحب ابويه فخالف الانسانية في اخلاقه كما يخالفها الانسان احياناً في جسمه ، واولى بهؤلاء ان لا يكون لهم حسبان مع بني الانسان لانهم في نقص من ضروريات الانسانية

الا و إن حب الوالدين واحترامهما واكرامهما واعانتهما واجبات تنادينا من كل صوب، فاسداء المعروف اليهما واجب يتحتم علينا منذ نستمد الحياة منهما، و يزداد تمكناً كلما ازداد حبهما واعتناؤهما في حياتنا وتفانيهما في مصالحنا

هل لك ، ايها الفتى ! في حسبان ما اصاب أمك من الهموم والشجون والمصائب والمتاعب والارق والسهر من جرّاك ؟ وما مس اباك من شق النفس والسعي وجرح عاطفة الشرف بعض الاحايين برًّا بك وتعطفاً على جسمك وحباً في مستقبلك ؟ فكم طابت له الحياة لو عاش قصصاً في اثر الذين احبوا ذاتهم واحجموا عن تكوين الأسرة واستأثروا بالمنفعة دون غيرهم ؟ لم يركن الوالد الى ذلك بل حبس حياته وأمك لمنفعة شخصك وتكاد الخطار لدواعي صحتك وصليا بالمشاق في شؤون تربيتك

لالذة للمرء أكبر من حب الابوين له لانه حب خالص غير مشوب يأوي اليه و يستظل بجناحه . ولا حب كحب الام، فان الولد مهما لانت جوانبه ورقت عواطفه وصدق الاخلاص لأمه لايجازيها على حسن صنعها ولا يحبها كما تحبه ، لان حبها لايشعر به إلا اياها ولا يعلم كنهه إلا اياها ولا يقوم به إلا اياها

وقد بيّن نادو (احد المطربين الفرنسيس ١٨٢٠—١٨٩٣) في

شعر له هذا المعنى فقال

الا ايها الطفل الوذود الا ارحلِ
فانت من الاوهام حلم تلذ لي
زعمت بحب للأميمة صادق
وما حبكم للأمهات بأمثلِ

تختلف محبة الوالدين وكرامتهما باختلاف عمر الانسان فقد يعفى عن المترعرع كلمات هجر تفرط منه لا تعفى عن الشاب . فينبغي للشاب و إن يكن قد شب عن طوق طاعتهما ان يظهر لهما أمارات الاحترام والاكرام اكثر مما كان يظهره وهو في ضراعة السن وحداثة المولد . وليس للابوين ان يحملاه عَلَى إرادتهما فيما يود ان يصنعه من الاعمال الا في المهمات التي يجب ان يستجمع عليها رأيهما، فيجب حينئذ ان يتبع نصحهما . وما من احد يتدبر نصائح الوالدين ، ان بعثها الحنين والمعرفة في تصريف الامور والحرص عَلَى مكانة الولد وشرفه ، الا وقد نجح في امور حياته

وأعلم ان التراضي بين الابوين والبنين لايقوم عماده إلا بالتوادد لان المودة تضمد جروحات المصائب وتحل عقد المشكلات فعلى النشء ، و إن تلاحمت وثائق حاضره وآتيه بأسرته التي ابتدعها لنفسه ، ان يفرش لابويه المحبة في كل دور من ادوار حياته

ويجعل من قلبه مكاناً يذكر فيه ما قضاه معهما من الايام، وان يواتر بين حبهما ولو بلغا عتيا ، ويوسع لهما في المودة ولو بعد الممات . فان من طابت حياته وخفض للوالدين جناح الذل من الرحمة وشاطرهما في الرأي بما يعمل، ذلكم هو الشريف العظيم

قال العالم الشهير باستور (احد اطباء الفرنسيس ١٨٢٢ — ١٨٩٥) يخاطب ابويه يوم اطاف الناس به ليقيموا حيث ولد تذكاراً من حجر الرخام لجميله وسؤدده :

« سلاماً ورحمة ايها الابوين! فقد قضيتما الحياة على القناعة في بيت حقير، فبارك الله لكما ! فمابي من حسنة إلا منكما»

ثم ذكر ماثر كل منهما فقال :

« أماه ! داخلني حماسك فجمعت بين عظمة العلم وعظمة الوطن»

« كانت حياتك يا أبت ضنكة مرة فعلمتني التثبت والتجلد . وأوحيت إليّ : ان أشخص ببصرك إلى السماء وانهض بقلبك إلى المعالي . علمتني فأبنت لي ما للأمة من المجد والعظمة »

ذلك اسداء الجميل يعترف به باستور لابويه كما كان يدأب في منفعة بلاده ، فتلألأ به مطلع مجده وازدان مشرق سؤدده وفي ذلك مثل صالح للناشئين

إن من احب ابويه ومحض لهما المودة دخله حب الواجب

لبقية افراد الاسرة عَلَى اُختلاف تفاوتهم ممن لهم شطر وداد في قلبه

الاخوة والاخوات ايها الفتى ! إن هم إلا قطع منك اعزاء عليك ولا كالاصدقاء يكاد يكونون آباءً لك وأُمهات إن كانوا اكبر منك سناً ، او بنين او بنات إن كانوا اقل عمراً . فعليك بحبهم فان حبهم وحيٌ من سنة الوجود . وعليك ان تحدب عليهم فتمنّ بعائدة من عطف واحسان من رحمة ، لان الاحسان لهم واجب عليك من الواجبات . واُعلم انه ان علقت بهم حباً ازددت قوة فوق قوة ، فقد حسن كل ما يأخذ بنصرة الأسرة و يجعلها صالحة للبقاء حسناً تنتفع منه الأُمة ، لانه كلما اشتبكت علائق الأسرة ازدادت الأُمة ارتباطاً وثيقاً في الوطنية

الانسان لايمجد ولا يفيد الأُمة إلا بالأسرة ، فبها تنمو عاطفة الوطنية وتبلغ مبلغها من التماسك ، وبها يعلم المرء كيف يراعي كرامة الزوجة التي بها صلاح مجتمع البشر ، و كيف يتطبع عَلَى كرم الاخلاق وطهارة الاعراق وطيب المخالقة

فالأسرة سبب للمحافظة عَلَى شرف الرجل بين الناس و باعث يتقاضى المرء ان يحافظ عَلَى كرامته وكرامة ذريته ، لانه يطالبه بان يخلف سيرة حسنة كما خلفها له من كان قبله

وقد يكبر المرء شرفاً بأسرته إذا تركت له ارث مجد فعليه ان يسعى فيما يورّث بنيه ما ورثه عن آبائه حتى يكبروا كما كبر مجداً

الا وان مصلحة الذات ومصلحة الامة امران يوجبان تكوين الأسر وبث حب تكوينها في المجتمع الانساني

فيسوغ لي بعد هذا أن اقول للناشيء اختصاراً لما تقدم :

اخصص والديك بالمحبة والاحترام والاكرام في كل طور من الحياة ، وفي كل بيئة من البيئات . وابتدر ذوي اللحمة والنسب على تفاوت درجاتهم بالتوازر والتناصر . والزم المودة للأسرة من حيث هي أسرة واكرم الزوجة ، ولا ترأفن بنفسك عن محامد لاتكتسب الاّ في منزل الأسرة

الفصل الحادي عشر

المحبة والوداد

دينوا ابو يكم ايها الناشئون كما داناكم بحب خالص لايخالطه كذب، واجعلوهما من قلوبكم في مكان ولا تلقوهما في طي النسيان

ووجّهوا انظاركم إلى مقتبل الايام فان ذلك جل ما يطلبه منكم آباؤكم . كنتم تحت جناحهم تستظلون فاصبحتم اليوم تدركم تبعة اعمالكم، فاسعوا وراء مكانتكم وامضوا إلى حيث تدعو الحياة والصلاح والشرف، وأدأبوا فيما هو سبب الوجود، واسلكوا طريق الواجب او السعي والعمل، واطرقوا باب السعادة او باب المحبة والوداد

فالسعي والمحبة حياة طيبة للرجل تأمر بهماسنة الوجود، وسنة الاخلاق في قولها : عليكم بالسعي والوداد

فاعملوا ونافسوا وأسعوا، فان ذلك ما شرعته سنة الوجود، سنة مطلق حكمها، شديد وطأها . وودوا فان الوداد سجية رقيقة الجانب يعلق بها كل ناشيء ويواقع امرها . المحبة واجب لطيف تهوي الفتية إلى القيام به . غير أن ذلك يجب أن يكون تحت امرة

العقل ليصلح شأنهُ متى أثارته العواطف

المحبة أمر لاتلصق به خسيسة او نقيصة، بل عاطفة لطيفة على النفس، طاهرة كطهر السماء، صافية النوء، شريفة العرق، ذات شأن عظيم تصد عن كل قبح وفحش وكل رذيلة تحط بالمنزلة والمكانة

المحبة مصدر الحياة وقاعدة الأسر، فبها قوام تكوينها وملاك بقائها، ومعها تخف أعباء الأسرة وتلذ للنفس مهامها وإن كان بها شق عليها، فلا تحاكيها عاطفة بتأثيرها على القلب

المحبة زمام يقود بني الانسان فتتم به السعادة لكل امريء، فأحبوا إن أحببتم أن تُحبوا. لان من ليس بوسعه أن يود حق الوداد لامحب له، وإن من كان في مكنته أن يحب الناس والامم، ذلكم هو الرجل الذي في طاقته أن يسوسهم ويملك عليهم، لان الوداد يبعث الوداد

فعليكم بالوداد، ايها الناشئون، من صميم الفوآد واعماق الروح، واحترسوا، إن أشربتم المحبة قبل أن تقعوا على رفيقة في الحياة، من الملذات. وانهضوا بأنفسكم لاسيما عن الملذات البهيمية وعما يحط بالمكانة ويثلم الشرف وحافظوا على عهد الشباب وضنوا بنضارة العواطف والصحة، واحتفظوا بمكانتكم بين الناس فان الانسان ليخسر كل هذه المزايا ويختل شأنها ببضع ساعات في الملذات البهيمية

فيأسف عليها مدى الحياة

من الناس من يفرط في هذه الملذات ، فاولئك هم الذين انحطت أخلاقهم وخبثت عواطفهم وقليل ما هم . ولكن مزاولتها وما تتوهمه الشبيبة من أن الملذات صفات لازبة للشباب تدعو إلى فساد عدد كبير من الناس . إلاَّ الذين بلغوا من الإرادة معظمها فراعوا كرامة انفسهم وحافظوا على شرفهم ، فانهم لايذعنون لما سبق من التعلل ، بل ينهضون بانظارهم إلى السماء عما يتراكم على الارجل من الادران ، فيجبسون انفسهم طاهري القلوب طيبي الاجسام لوداد حق يرفعهم إلى ما فوق الانسانية على حين ان الذين فسدت اخلاقهم يرتفعون إلى ما تحت الحيوانية

وان خير للمرء أن يرى الوداد الشريف يختلج في صدره وهو في العشرين من عمره ووجد من يأمل ان تكون رفيقة الجنب في حياته فقد تمكن من مصادرة اللذات البهيمية ، لانه يرى في وداده لتلك الرفيقة ما يربأ بنفسه

واعلم أن لا اطهر ولا أجمل من وداد الفتى ووداد الفتاة ، ولا اشرف ولا ابدع من زوجين يفترّان عن ثغر ملؤه اللطف والبهاء

فحيَّ على الوداد ، ايها الفتيان ، حيّ على الوداد ! ولكن عليكم بحسن التخيّر لمن تودون ، فاستنصحوا الحكمة واستشيروا العقل قبل

مجاراة عاطفة المحبة والوداد ، تلك العاطفة اللطيفة القوية ذات الشأن الكبير . ودعوا العقل يسيطر على القلب فيحدو عنه اكاذيب العواطف والاّ أسفتم عما قليل على ما استدرجكم إلى هذا الوداد

فاعملوا الرويّة فيمن تختارون وودوا من تصلح للمودة ومن إذا علقتم بها ملكت لبكم ولم تستطيعوا ان توثروا عليها عوضاً او تبتغوا بها بدلاً

ولا تخذوا ، ايها الفتيان ، رفيقة لكم و بهجة لقلوبكم الا من ترعرعت في حجر العفة والنزاهة وكان على وجهها وهندامها حسن المكانة ومسحة الاستقامة وصبغة الكرامة وروعة الجمال الدالّ على صحة الاخلاق وصحة الجسم وكثير ما هنّ

ودّوا تلكم الفتاة فتودُوا ، لان الوداد كما اسلفنا من قضايا سنن الوجود يبعث الوداد ، فان لم تروا منها وداً فودوها واصبروا على ما تكرهون ، فان الصبر ليأزر وان الكراهة مع تداول الايام لتزول

خلِّ عنك كراهة هذا الامر فذلك مما يقع في الندر لان الاستبصار وحنين القلب يزويانك عن ان تقع في هذه الملمة

ودوا تودوا وتذوقوا لذة الحياة الدنيا . فيا للوداد تمازجه العفة والاخلاص ! و ياللمحبة من سر يتمتع به قلب الفتى !

إن من عرف كنه ذلك السر فبنى قاعدة حياته عليه أمن حسن المستقبل لنفسه وضمن السعادة والظفر لحياته ، وان من جعل رأس حياته الود الطاهر النقي الابيّ الآخذ إلى مكارم الاخلاق ومعالى الامور فكوّن أسرته عَلَى أسه احسن صنعاً عَلَى مقتضى الاخلاق الشريفة والعقل الصحيح والحكمة الراسخة

فالود سبيل لايسلكها الا رجل الواجب وملكة الارادة والاقدام فيجمع بينه و بين مكانته و يؤلف ما بينه و بين افكاره واعماله في الحياة

— فامضوا الى هذا ايها الاعزاء ! وكونوا عَلَى تبصرة ممن تودون

وليكن من الود والعقل اتحاد يسبّلك ، ايها الفتى ، جنبات الصواب فيمن تختار من الفتيات

اراني الله فتاي وفتاتي عما قليل تمثالاً للأسرة تنسل منها أمة حية

الفصل الثاني عشر

الزواج

تتكوّن الاسرة باتحاد الفتى والفتاة او بالزواج . فالزواج رابطة حلّ بيّن بين الزوجين كما أن الوداد رابطة الادب بينهما . وما الزواج الا امر ابرمه الشرع فيعقد الزوجان به الخناصر عن تراضٍ من اوليائهما عَلَى ان يخلصا لأنفسهما مدى الحياة ، ويتعهدان بان يقوما بما يفرضه الزواج ويتقاضاه ظهور البنين من الواجبات وقد جاء في القانون ما يأتي :

١ « عَلَى الزوجين ان يتواثقا عَلَى حفظ الذمام والتناصر والتعاون »

٢ « على الرجل ان يأوي المرأة تحت جناحه وعَلَى المرأة اطاعة الرجل »

٣ « عَلَى المرأة أن تقيم حيث يقيم الرجل وتلحق به إلى حيث يريد . وعَلَى الرجل أن يقوم المرأة عَلَى استعداده ومكنته »

٤ « عَلَى الزوجين ان يمونا البنين ويسعيا في تهذيبهم »

ذلك ما اوجبه القانون المدني من الواجبات . واما قانون

الاخلاق فيوجب واجبات أكثر عدداً واشد حرجاً، الا أنها الطف معنى وارق حالاً . فعلى الزوجين أن يفيا حق هـذه وتلك الواجبات منذ عقد الزواج ولو كانت صعبة على النفس لانه ليس لاحد ان يلوي عنها

رب سائل يقول هل لاحد ان يتجافى عن الزواج ؟— كلا ثم كلا . فان الزواج وتكوين الأسرة امر يضطر اليه الانسان كما اضطر في مجيئه الى الحياة الدنيا وهو سنة يأمر بها علم الاخلاق ويدعو اليها طيب الحياة

وكما للانسان ان يستمد الحياة من غيره فعليه ان يودع الحياة غيره . وليس يقصد من ايداع الحياة ايجاد بنين فقط بل تربيتهم وتمكينهم من القيام حقه في شؤون الحياة وجعلهم رجالاً رجالاً . وملاك ذلك باتحاد الاب والأم في تكوين منزل الأسرة

واذا قضت سنة الله على الابن ان يخلق ضعيف البنية غير قادر لينهض باعبائه في حياته فقد قضت على الأم والاب ان يغرسا في قلبها حباً يكفل من كان قطعة منهما

فينتج بعد هذا ان الزواج امر طبيعي ينادي به الوجود والانسانية وهو امر اجتماعي لايسوغ لاحد ان يتخلف عنه لانه لاحائل يحول دونه . قلت امر اجتماعي لان الأمة لاتحيي الا

بتكوين الأسرة فما من أمة عَلَى الارض الا من الزواج

وما مثل الاباحية الذين يسعون في نقض الزواج وابطال الأسر واجماع الناس عَلَى الاشراك في كل امر الا كمثل القبائل الهمجة التي ساء امرها وسفلت حالها وابتعدت عن مشابهة بني الانسان الا قليلاً . فمن الحكمة ان ندوس احلام هؤلاء الزعماء زعماء التوحش الذين فسدت اخلاقهم وخبثت افكارهم

اعلم، ايها الفتى، ان لابقاء لارض نعيش في انحائها ولا ثبات لقواعد تتوقف عليها حياة الامم في المجتمع الا بالزواج أس الأسر ومن ثم أس الأمم، فالزواج واجب تامر به الحالة الاجتماعية

اي جواز اباح لبعض الناس ان ينثنوا عن الزواج وقتاً او بتاتاً ؟ الم يعلموا ان الزواج واجب عَلَى كل فرد وان من لم يعمل به ضل سعيه واجترم خطيئة بعثه عليها حب الذات والجبن ؟

ان المرء لايصدر عن الزواج الا رجاء ان يلقي عن اكتاده مهام الأسرة وواجبات الزوجة فيخون واجباً و يوليه ظهره كما يولي في ميدان القتال قوم آخرون

ولا حاجة لإيراد البراهين على رفعة شأن الزواج وما له من التأثير في حفظ الاخلاق والمكانة في الفرد لان البيان بعد ما تقدم عبث

كل امر في هذه الحياة يدعو فتاي فيقول:

— عليك بالزواج وتكوين الأسرة واقامة منزل التربية فان ذلك ما فرضته عليك سنة الوجود والاخلاق الحميدة والواجب الاجتماعي

الزواج واجب يتحتم عليك يوم تبلغ الكفاءة وحد الرجولة وتقوم بوظيفة الجندية وتصبح حرا قادراً عَلَى النهوض بشأن معاشك

وأعلم ان الرجل لايدرك حق الرجولة الا متى كان رب أسرة يسيطر عليها ،وقد كان الناس عَلَى عهد الاغارقة لايتولون امراً من أمور الحكومة الا بعد الزواج، فالزواج لاسيما الزواج في عهد الشباب واجب من الواجبات تتم به السعادة للانسان

واعلم ان كل ما يفرضه علم الاخلاق عَلَى المرء ابتغاء منفعة الأمة يعود بالنفع عليه ، ولذلك كانت غاية الزواج منفعة الهيئة الاجتماعية ومنفعة الفرد، وان كل سعادة صحيحة لاتدوم الابالزواج وتكوين منزل الأسرة . فالزواج في كل دور من الحياة امر حسن ولكنه قد يزداد رونقاً ايام الشباب ايام يتحد الزوجان وهما في فجر الحياة بنضارة العقل وقوة الفكر ورقة القلب وغضاضة الجسم

ايام الشباب ايام بهـا جماع المحبة والعفة والعظمة والاباء والاخلاص ، فبها تسهل لزوميات الأسرة وتشرف الحياة

يذكر الزوجان ماضي الايام فيريان ان ما قضياه في اول الزواج أشعة هناء ينعكس نورها على باقي الحياة فيستضيء بها مستقبل الايام ويلين معها حرج المعاش وينجلي بها مدلهم الاوقات فيسهل عليهما تكبد المصاعب وتحلو لهما مرارة المتاعب

وكثيراً ما يتردد على افكار الزوجين ويجري على السنتهما ذكرى اوائل الزواج فيقولان « أتذكر عهد ايام الحياة الطيبة » كما يقول فيكتور هوغو

عهدنا اذ لو ضممنا عمرنا ماحبا العمر لسن الاربعين
عهدنا اذ يبسم الدهر لنا عن ثغور ملؤها عطف ولين
عهد ايام بها كان الشتا ء علينا كربيع الياسمين

وقد وصف هذا الشاعر الكبير بابدع بيان رونق شبابه اذ اندفع الى السعي بثبات جأشه فقال:

« السعي داعٍ للوداد والوداد داعٍ للزواج وكلاهما اقوم أس لتكوين الأسرة، حتى اذا ما ظهر البنون نشطت الرجولة في المرء وسعى ليختار لزوجه والزوج للبنين . وكلما ازداد الرجل طلباً للسعادة ازداد رغبة في السعي فيقضي ايامه في العمل حتى لياليه وتصبح الحياة لديه شاقة لكنها الطف حالاً واحمد مآلاً »

فينبغي للفتى ان يجعل الزواج عقدة مستحكمة بين الرجل والمرأة

فتزداد كل يوم وثاقاً تجتمع عليه افكار الزوجين فتلتئم والعواطف فتتداخل والارادة فتشتبك ، حتى تتألف بينهما من جرّاء ذلك وحدة متينة!

فان سأل سائل اي علاقة اشد بالاخر ؟ الرجل ام المرأة ؟ الجواب لاشأن لنا به فالعلاقة عَلَى حسب عواطف كل منهما الا ان الرجل يعلق بقدر ما منحتــه سنة الوجود وعَلَى حسب ما قوّمته فيهِ التربية ، واما المرأة فتعلق بلا معونة منهما لان فيها قوى معنوية وسكينة عقل قوّام عَلَى عواطفها وصلاح إرادة فيها

يختلف عمل الرجل عن المرأة في الحياة اختلافاً واضحاً باختلاف تركيب البنية والقوى بينهما ، فان الرجل بالطبع ذو همة من لوازمها اعصاب شداد وغريزة ثابتة . اما المرأة فان عملها في الحياة الطف واخف فلا يستلزم قوة اعضاء ولا عزم ارادة ، لان مركز المرأة في المنزل أو في البيت او في الأسرة حيث تعمل رقة همتها صابرة لاتني ولا تكل . فالمرأة مليكة البيت قلدتها ادارته سنة الله

اما مركز الرجل ففي خارج المنزل بين رجال الأمــة ، وذلك لامزين اولهما لان للرجل في مجتمع البشر مكاناً وعملاً يفيد بهالامة

ويفيد نفسه . ثانيها لانه مكلف بان يمير اهله ويكفيهم حاجياتهم

وقد شذ اشتغال المرأة خارج المنزل شذوذاً مطلقاً فجرى عليه بعض القوم في ارجاء من الارض لفسادٍ في الاخلاق ونقص في الحضارة فكثرت النساء اللاتي لم يتزوجن ولم يكنّ امهات او كنّ الاّ انهن اضطررنا الى الخروج من البيوت وذلك عنوان اما عَلَى ان الرجال لم يقوموا بواجب الزواج او ان الحضارة انحطت انحطاطاً ليس بعده من انحطاط

النساء من طباعهن يكرهن العزوبة لأن ترقي العواطف فيهن وحبهن الأمومة يدفعانهن للزواج ، واما الرجال فان استنكفوا من الزواج فهو الجبن في الاخلاق والأثرة في النفس يمنعانهم من القيام بما ارادته سنة الله والحالة الاجتماعية

وأعلم ان الرجل مضطر بحكم الطبيعة ليعيل اهله ويقوم بمعاشهم ومآنهم وذلك ما اتى به علم الاخلاق والقانون، وليس للرجل ان يكلف امرأته بما ليس من شأنها الا إذا كان جُعلهُ لا يكفيهِ المؤنة

بالله عليك اي منزل يقوم، ام اية اسرة تدوم إذا غابت المرأة عن البيت شطراً من النهار ؟

لكل شخص عملٌ في الحياة الدنيا ، فالمرأة مخلوقة للمنزل ومهام الأسرة، ولا خفاء ان مهام الأسرة كثيرة بحيث تستفرغ اوقات كل

ذات همة وعزيمة . والرجل مطبوع على السعي خارج المنزل فعليه الكسب حسب مكانته وعلى المرأة الفرنسة، تقدر امور المعاش تقديراً لا تصرف معه اكثر ما يكسب الزوج لان صغير التقدير ككبيره يحتاج إلى دقة وانتظام تام

الا وان الانتظام بين المصاريف والارباح لامر تطلبه رفاهية الحياة للأسرة، وأعلم انه حيث يختل النظام المادي تتولد الصعوبات المعنوية ،وان المشكلات واضطراب البال في الأسرة لما يأخذان من امرة الرجل على نفسه

لا قدر الله وقوع ذلك السوء في منزل ذوي اللب والارادة والاقدام الذين نبتوا على قوائم هذا الكتاب ، لانهم يعلمون كيف يجانبون ما أشكل من الصعوبات

جرى على ألسنة الناس ان الفتاة المتزوجة صحيفة بيضاء يكتب عليها الزوج ما يشاء . ذلك حقيقي فان للرجل سلطاناً قوياً في تربية عقل المرأة وتهذيب اخلاقها إن ساء صنعها من قبل وغشي ذهنها ما لا يجمل ، لا سيما إن أحبها فولعت به ، فيكون ربًّا نافذ الكلمة مطاع الامر . وقد تتبعث سلطته عليها من حبه وحسن عقله ، وروية إرادته وشأو عمله خارج منزله ، فيكون بذلك قوّاماً عليها بالطبع لا بالجهد ، وكلما ازداد الرجل كبراً في عقله واحكاماً في ارادته اضمر

ظهور سلطانه عليها ، بل ينبغي له ان يكون عظيم الشان في أسرته ، بحيث لا يحتاج أن يقول « أُريد » ولا يستعمل صيغة الامر

فيظهر التواضع والادب نحو فتاتهِ ، ويقنعها باللطف والرقة فيدرك لامحالة ما يوده من كل معقول ، فان الرقة واظهار الحنين للزوجة يجعلانها تبعاً له في مشيئاتهِ ، يكيّفها عَلى رغباتهِ

ولهذا لايعدم رجل العقل الصحيح وملكة الارادة رفيقة جديرة بهِ ، حفيظة عَلَى كيان الأسرة ، انيسة المحضر ، فاضلة النفس ، نكتنفها السعادة من كل صوب

امّا مَن خارت ارادته وفسدت اخلاقه ، فيبدل ما في الفتاة من حسن السجايا فتصبح مثله سافل امرها عرضة لكل المثالب والمعايب .

يشاهد تأثير الرجل في المرأة في كل برهة ولحظة من لحظات الزمن نضرب لك مثلاً ، أُختين نشأتا عَلَى ادبٍ واحد ، واتصفتا بخلال عَلى السواء وتأهلتا لتكونا خير زوجتين فتزوجتا . فاختلف حظهما لان من دخلا بهما لايتشابهان في الاخلاق . احدهما اخذ بسهم من الحكمة والاستقامة والذكاء والتعقل ، فما لبثت امرأته ان درجت عَلَى طباعه واصبحت اهلاً له تُحب كما يُحب

اما الاخرى فكانت تحت رجل حقير تمسه الشبهات في اخلاقهِ ، فما مضى عليها حين من الدهر حتى نشب بينها وبين زوجها الخلاف

وعلا صوت الشقاق فدب الى نفسها الشر وفقدت كل فضيلة في نفسها وكل مكانة

عَلَى ان هذه القاعدة لا تطّرد الا انها تغلب وما شذ عنها لا ينفيها

ايها الشبان ! لا ينهض بالأسرة ولا يزكي الشرف فيها الا المحبة وكرم العواطف بين الزوجين ، ذلك مما يظاهر عَلَى تهذيب اخلاق البنين فيما بعد . الا وان التوادد والتحابب بين الزوجين ورغبتهما في القيام بواجبات الحياة زينة للأسرة يشتد بها عضدها ويطمئن بالها وتهنأ حالها ، لان الحب والفضيلة امران يحفظان من كل نكد في الاسرة

قال برودون واجاد في هذا المقال وان لم يجد في غيره :

« لا تتكون الأسرة ولا يجد الزوجان ما يجنحان لسمته من اليمن وما يمدان البصر نحوه من السكينة الا بحرمة الزواج ، وذلك بمحافظة الزوجين عَلَى مكانة كل منهما للآخر : ينهضان نفساً ويتحالفان عَلَى المحبة والاجلال ويحسبان امرهما ديناً »

الا وان حرمة الاديان في البيوتات امر ضروري لافراد يودون طيب الحياة وحفظ المكانة بين الناس ، وأمم تركن للبقاء والعظمة عَلَى وجه الارض

الفصل الثالث عشر

البنون

إلهي لاتصب جسمي بسوءٍ ولا قومي بشر مستطيرِ
ومنَّ على اخبائي بلطفٍ وآبائي واخواني بخير
ولا ترزأ بمكروهٍ عدوّي ولو انحى بمكروه عسير
ولا تجعل بلا زهرٍ ربيعاً ولا تقفَص الطيور بلاطيور
ولا تدعِ القفير بغير نحلٍ ولا بيت الفتاة بلا صغير

يعرب «هيغو» في هذه الابيات عن رثاثة الأسرة و بذاذتها اذا لم يرزقها الله البنين ، وقد كان يقول الاولون إذا رأوا أسرة لاذرية لها ، عليها غضب من الله

فالزواج انما غايته البنون فعلى الفتى والفتاة ان يُجمعا حبهما عَلَى إظهار سلالة لهما ، الا إذا كان ثمة مانع والمانع يخلص إلى الجسم عَلَى يد الانسان اكثر من فعلة سنة الوجود ، فالزواج كما قلنا غايته يجاد صغارٍ هم قطعة من الكبد وثمرة حنين تسر الناظرين

فعلى الزوجين ان يرغبا في ايجادهم و يستبشرا بهم بل عَلَى الرجل ولو كان في حال ضنك وطوق متربة ان يبش بهم و يهش لهم مهما

ساموه من المشاق والمتاعب فان ايجاد البنين واجب يسعد به المرء ٠

لو بلغنا ارذل العمر وحسبنا ما انتابنا من صنوف العذاب في تربية كل وليد حتى استند ساعده وقابلنا معه ما حاك له في صدرنا من ارتياح الخاطر وحنان القلب ، نجد أن عدد الارتياح يفوق عدد المشاق بمراحل ، وذلك مما يؤيد ان في البنين على كل الاحوال فوائد جمة

يبسم الابوان فرحاً ولو كانا في شظف من العيش وخصاصة من كثرة البنين بقدوم وليد آخر فيقولان على خفتٍ من الصوت: «سارع في الامر ذلك العزيز وكان اولى بحكمته ٠٠٠ ان يرقب حتى يترعرع اخوانه» ٠ قول يمازجه سرور لا يقل عن السرور للاولين، حتى اذا الأمر جدّ جده بعد اشهر احكم الزوجان التدبير وأبرما التقدير وانزلا ذلك الدخيل عليهما منزل كرامة لأنه الصغير في قومه ٠ يعكفان على سريره حناناً لا يلوح إلا في اعين الابوين ثم ينظرانه ويتبادلان النظر ويهتفان بالقول: ما اجمله ، ما ارقه ، حق له ان يظهر بيننا للوجود ٠ ثم يحدبان عليه فيقبلانه قُبلة تفصح عن حب وثقة في مستقبل الايام

أولئك ايها الفتيان نالوا السعادة في الحياة الدنيا بعلو همتهم وفضل انفسهم ولو كانت ايامهم بين اقتار واقلال ومرارة ومضاضة

يقول آباؤنا الاولون في امثالهم « بارك الله في الأسر الكبرى» فيجيدون و يقولون حقاً لاني اصبت صحة ذلك في كثير من هذه الأسر

يظفر ابناء الأسر الكبرى في الحياة اكثر من غيرهم ولاندري ما سبب ذلك . أحاجتهم للسعي حتى اشجذوا حد ارادتهم واحضأوا نيران شجاعتهم ام تعاونهم فيما بينهم حتى اشتد عضدهم وافضى امرهم إلى النجاح ؟ — لاعلم لنا بذلك إلا اننا نجزم بانهم يظفرون حق الظفر في منهج الحياة

هذه فائدة البنين ، وهب ان لاميزة لهم ولا سعادة بهم ولا فائدة منهم، فايجادهم واجب تنادي به سنة الله وحالة الأمة وواجب الوطن، فليس لأحد ان يتحاماه فانه فرض عين

استدان الرجل الحياة فعليه الوفاء ، ولا يفي ذلك لابويه وأمته التي تشد ساعده وتحفظ شخصه وماله إلا بايجاد البنين

ولقائل يقول : ما يقعد بالرجل عن ايجاد البنين ؟ — الجواب أمرٌ واحد وهو الخوف من حجز الحرية وثقل الاعباء . فيا له من حجز لطيف عَلَى النفس ، وثقل خفيف عَلَى القلب

وان قال قائل : مَن يتجافى عن إظهار البنين ؟ — الجواب كل جبان ، أقول كل جبان ، لاني لا اجد كلمة أخرى تدل عَلَى من يعرض عن واجب الحياة

أذكر جواب فتاة تعرّفت اليها إذ قلت لها ذات يوم: أتصحبين فتاكِ في هذا السفر؟ — «كلا ايها الرجل، فان بإرجلي اغلالاً عزيزة عليّ تمسك بي في المنزل» · قول لطيف يخالطه الأسف والحنين والسرور، فدلت بذلك على انها خير أمٍّ لطفت لديّ، وجملت في ناظريّ

لا ينحصر تأفف بعض الرجال عن ايجاد السلالة فقط بل كثير من النساء يحتججن تحت تمويه الانانية ان الصحة تحظرهم او ان الحالة الاجتماعية تقف دونهم · أعاليل اباطيل · والحق يقال، ان بهم داءً ينكل بالامة ويشرّد بها عن آخرها إذا استشرى ولم تجتث اصوله، اعني به الجبن

قال ضوضه في احد كتبه عن خوف الامومة «انه هول يأنف اليوم الفتاة» وقد خجل روزفلت الكبير رأس الولايات المتحدة (١٨٥٨ — حيّ) من كلمات هو قائلها في بذاذة اخلاق قومه فشنع عليهم وانحى بقوله:

«ما من أمةٍ تكتب عليها هذه الكلمات الا وقد فسدت اخلاقها فساداً يبلغ صميم الافئدة: اذا خشيت الرجال السعي ونادوا عند اضطرام الحرب الحق حيدي حياد، وحاذرت النساء الامومة فقد جثوا عَلَى مقام خزي وشفا تلاش · ومن كان كذلك فأجدر

به ان يستأصل من الارض لئلا تسخر به كل امرأة ويضحك منه كل رجل قوي العضد وثيق العقدة محكم الشهامة كبير النفس »

إن هذا لمرٌّ ايها الناشئون والناشئات . وحاشا ان يقال عنكم ما قيل عن تلك الامة فانتم لا تودون ان يلحق بكم عار الابد وذل الدهر

فلا تكونوا ابناء أُمة تفسدون اصولكم ، وتغيرون انسابكم ، وتبدلون اخلاقكم ، بل سيروا ايها الفتيان والفتيات الى حيث يدعوكم الواجب : انتم ايها الشبان ، إلى المساعي والمصاعب ، وانتن ايتها الفتيات الى الأمومة واعباء الأسرة ، فان القيام بهذا الواجب جميل شريف ان أخلّ به الانسان لا يقوم بغيره عن كرم اخلاق

رب قائل يقول : هل يصلح اليوم الفتيان والفتيات أن يقوموا بالابوة والامومة ؟ الجواب — يغلب الظن انهم لا يصلحون ، لأن قادة الأمة لم تحفل بهذا الامر كما لم يحفل به غيرها من الامم

وقد قال هربرت سبنسر (احد فلاسفة الانكليز ١٨٢٠ — ١٩٠٣) « إذا وقعت في المستقبل كُتب التدريس وخطط الدروس ومسابقات التلاميذ بين أيدي الأثريين الباحثين عن تمدن هذه الايام يدخلهم العجب لايروا بين هذه الاوراق ما يدل على ان التلاميذ التي كانت تتداولها تفكر بامر البنين ، فيقولون : لا مراء

في أن هذه الدساتير دساتير رهبان »

ولست ادري فيما إذا كان ساسة التعليم يوجهون انظارهم لذلك فيصلحونه ، على انه إذا لم يكن سبيل فتعليم الفتيات ما هو من شأن الأمومة ممكن مستحب . اما تعليم الشبان واجبات الابوة فأظن انه لاحاجة اليه لان ما يجب عليهم في البيوت قليل ، يروّضون انفسهم عليه بواسطة الامهات . الا انه ينبغي لهم ان يسعوا في القاء السلطان على نسائهم منذ عقد الزواج حتى يتهيأن لواجبات الامومة وان يضعوا بين ايديهن كتباً في حفظ صحة الاولاد والاعتناء بهم وكيفية تربيتهم وان يقاسموهن المطالعة وقت الفراغ

ويجب على الزوج قبل كل واجب ان يبث في امرأته حب ارضاع البنين مهما حاذرت ان يطرأ عليها او ان يتقول الناس عنها من جرى ذلك ، لان ارضاع البنين واجب على الامهات تأمر به سنة الوجود ولا يسوغ مخالفتها . وأعلم ان الله لم يرزق المرأة اللبن إلا ابتغاء تغذية البنين ، الا وان في ذلك صحة للأم وحياة للولد ونمواً ، لأن الولد إذا أُرضع ثدي أمه كاد يحتفظ من كل المخاطر ، وغير خافٍ ان لبن الأم لايصلح الا لابنها ، لأنه مخلوق له . وقد يتسنى ان ترضعه ذات لبن اكثر تغذية واوفر مادة من لبن أمه ، إلا أن هذا ولو فاق الاول بالتغذية والمادة لا يوافق بنية الطفل . فمن لم

يرضع الوليد من ثديهِ تخلصاً من المتاعب ، او إتباعاً لنصائح اشار بها بعض الاطباء فجزاؤه ضعفان لا هوادة فيهما : تفقد المرأة الحنين وتصاب في صحتها لان اللبن انما خلقته سنة الله للطفل فيختل جسمها حتى تصيبه الفواجع عاجلاً او آجلاً ويفقد وجهها نضارة الشباب ومخايله .

انظر نساءً تساوين في العمر ، ترَ الاختلاف ظاهراً بينهن فمن منهن ارضعن ابناءهن كن على صحة طيبة وشباب غض وجمال رائع . وقد شاهدت كثيراً من ذلك مما يصح ان أتخذه بيِّنة فيما اقوله لو لم يثبت ذلك بالبرهان اول بدء

واعلم ان علائق الطفل مع أُمه لا سيما في اول نشأته اكثر منها مع ابيهِ ، وذلك مما لا بد منه ولا مضرة فيه بل المصلحة توجبه فينبغي لنا ولو كنا نحب ابناءنا حبًّا جمًّا أن نوجه اعلاق قلوبهم إلى امهاتهم ونجعل كعبة ثقتهم فيهن ، لأن للأُم تأثيراً عليهم اقوى من تأثيرنا لرقةٍ في عواطفها وتساهل في سلطتها وتسامح في اخلاقها . وفي ذلك مصلحة لنا لان سيطرة الاب على البنين تدوم بدوام سيطرة الامهات عليهم ، بل ينبغي لنا ان نجعل سلطاننا وارادتنا يحومان عليهم ، ولا نظهرهما الا في حرج الامور

فان سلطاننا قويٌّ وعزمنا شديد يخشى معهما ان نبهظ البنين بثقليهما فيقفون عن النمو . فمن الحكمة ان نتحاشى اظهار السلطة

الباهظة عليهم، والاَّ تثبط عزمهم وخارت ارادتهم . ينتج من هذا ان البنين إذا نبتوا تحت سيطرة الاباء لا سيطرة الامهات نشأوا لا عزم بهم ولا حزم يعرف في وجوههم

واعلم ان سلطة المرأة عَلَى الولد لطيفة لا تشتد ابداً وان في البنين روح عظمة تناصب النساء مناصبة تفيدهم وتروضهم عَلَى اعمال الارادة تحت ظل الأُم بدون ان يتفيل حزمهم

إذا اردت ، ايها الفتي، ان تسأل عن نشوء الرجل العظيم فساءل عن أُمه تجد ان سلطانها عليه كان قويا . ولذلك اذا سعى الرجل اول الزواج في تهذيب فتاته ، سعت هذه في تهذيب فتاها الصغير فيما بعد ولا بأس برقة المرأة فانها ضرورية نحو الولد إذا ارادت لقواه نمواً

هذه سنة من سنن الكون، فاكرم بها من سنّة تقدست وتعالت حكمةً . الا وان تربية البنين غاية تنفعهم وتنفع المجتمع والامة ، فعلى هذا المبدأ ينبغي لنا ان نربيهم ونسعى في تهذيب اخلاقهم

فاعدوا، ايها الشبان، اذا اصبحتم آباء ، ابناءً يكونون رجال صلاح وارادة واقدام عَلَى ما تشاؤن، ونساءً كاللاتي اتخذتموهن . وارفعوا بابنائكم الى حيث تسعون لأَنفسكم حتى يسعوا لانفسهم فيما بعد بالطبع لا بالتكلف اي عن طيب نفس وأنس قلب دون تردد ولا ملل .

الفصل الرابع عشر

السعادة والثراء

اعلم أن السعادة في هذه الحياة لمن سعى وجاهد فيها وتأهل فأبا بنين يودهم ، وليس للثراء ولا للفقر يد على السعادة

فطيب الحياة يعدمه كل فقير معدم وكل متمول مثرٍ على السواء اذا لم يجهدا حق الجهد في مسعاهما . فان من قلّت ذات يده عن حوز طيب الحياة فقد شقت عليه حياته وتعاظمته اوقاته، ومن كانت هذه حالته فعليه ان يسعى ليزيد ماله، لانه ما دام قاصراً عن تنمية مورده ، ما دام الفقر يدقعه و يذهب من جميل أنسه بأسرته . وان من اقنى واغنى جعل نهمة نفسه في إدارة ماله، وعلى من كان كذلك ان يزوي عنه كل ما يحيد به عن سواء السبيل وأن يعمل العزم معمله و يقوم بداعي الواجب واعباء المنزل

هاتان حالتان لانقعان إلا في الندر اما جميع الناس من محاويج وموسرين ذوي مراتب سافلة او عالية فكلهم وان اختلفت أمور معاشهم شرع في السعادة . لان السعادة في الحياة الدنيا تتعلق بالامور المعنوية لا المادية . تتعلق بالنفس وبمن يحتاطها لا باثراء

ولا بالرياش

فالسعادة وطيب الحياة وصفاء المسرة امور لاتباع ولاتشرى ايها النابتون ! فا جزموا عَلَى ذلكم الاعتقاد فان السعادة ، والحق يقال ، لاعلاقة بينها و بين الثراء . نعم ان في الثراء فوائد تدفع إلى الملذات المادية ولكن لا إلى طيب الحياة

بيد ان الثراء وان لم تكن به السعادة اداة ذات بال للسعي يبتغيه ، ولا بدع ، سواد الناس ، لان من الحكمة ان يدأب المرء في الحصول عليه عَلَى قدر الاستطاعة لتتمتع اسرة الرجل واحباؤه بفوائده

إن من لاسعي له ولا عمل للحصول عَلَى المال مساق بالطبع مع الذين لم تساوِ ارباحُهم اعمالهم . فلا بد من زيادة المورد لان مصلحة الذات سواء في الصناعة او في التجارة داعية إلى مصلحة الأُمة فيفيد المرء أُمته من حيث يفيد نفسه

و إذا تبيَّن هذا فيقال للنشء اذ جعلوا و كدهم في الصناعة والزراعة والتجارة :

ارتاشوا فترتاش الأُمة

الا و إن الأُمة لفي عوز إلى الإرتياش . اقول ذلك وأكرر ما أسلفت من ان الغني والفقير سواء في السعادة . ترتبط سعادة احدهما بعقله وحكمته لا بثروته ، وقلما تنقيد ببيئته . ومما ينبغي للمرء ان أثري

او أعوز ان لا يبدل اخلاقه ولا يغيّر مجرى الحياة في الامور المادية تغييراً يذكر، بل عليه ان يكون في كل الاحوال بسيطاً في حياته قائماً أسرته لا يصرف وقته خارج بيته ولا يفرط بصحته

وينبغي للفتى ان اراد ان يتمتع بنعيم الصحة ان يعتاد التقشف ويسعى مسعى الفقير، لان البطالة دربة إلى الامراض وآلة للفساد ومدعاة للانحطاط ·

ومن الحكمة إذا اراد المرء السعادة لنفسه ان يحب ما لديه ويقنع بما بين يديه ويوافق بين مورده ومعاشه عَلَى الدقة وتقدير المنزلة · فان من كان مورده مساناة خمسة الاف ليرة ومصرفه خمسة آلاف ومئتين وخمسين ليرة كان فقيراً يتدرج إلى السآمة والمشكلات اذا لم نقل الى الخراب والدمار، وان من كان مورده مئتين وخمسين ليرة ومصرفه مئتي ليرة فذلكم الغني ايها الفتيان!

فجماع الحكمة ان يجعل المرء تقدير مصرفه عَلَى تقدير مورده فيقرن بين هذا وأمور معاشه · واعلموا انه لا يتيسر للمرء ذلكم الا اذا اعمل الارادة ولم يتبع رغبات قلبه ولو كان بعضها محموداً، كأن يضمّكم حكم الصدفة الى اناس تلذ صحبتهم لكرمٍ في اخلاقهم ولطفٍ في محضرهم الا انهم اكثر منكم مالاً وانفر رياشاً، فعليكم والحالة هذه ان تقصروا عن ملازمتهم مهما راقتكم مخالطتهم لان في

ذلك خطراً عليكم وقد يخطم الانسان انفه ان منّ عليه الناس ولم يمنّ عليهم او ان دخل منزله من نشأ عَلَى خضراء العيش ونعيم الحياة ولم يكن فيه الا ما يكفيهِ وذويه .

يتسنى للانسان ان يقدر مصرفه عَلَى مورده ويحيي حياة اعتزال عن الناس وعز وكرامة واستقلال في شأنه فيكون عَلَى فضل ونبل . وهنا مجال القول فقل « كن فاضلاً تكن حراً »

ان من يقطع عن الناس شوابك العلائق ، علائق الذات والأسرة ، يدرك نجح مستقبله مهما كان سعيه في الحياة ، لان العلائق والتعارف مع الناس يجران الى العسر والدَّين . اقول بذلك ولو خالفني كثير من القوم .

نضرب لك مثلاً فيمن تقيّد بحرج القيود من ذوي المناصب الصغرى في الجندية ، شاباً من الضباط تزوج بامرأة تستنفذ اوقاتها اعباء المنزل ومهام البنين ، وليس له ما يكفيه مؤنتهُ الا جعله ومورد صداق زوجته القليل فرأى من الكرامة وسمو المنزلة ان يعيش مع أسرته لا ان يظهر مظهر الاعيان ويعقد الروابط مع الناس ويجدد التعارف مع معارفه واوليائهِ ، وان يقوم بمهمته خير قيام ويسعى في التعلم اجمل سعي عن غيرة فيه وحب لمصلحته ، فهو ولا ريب عامل عَلَى نجاحه اكثر من اولئك الضباط الاغنياء الذين يفخرون

بالتظاهر والفخفخة

ذلك دليل على ان العزلة في عهد الشباب لاتضر بل تنفع وان ما يُلحق الناسُ بمن يسير على هذه الخطة من صغير التنكيت والتبكيت لا تأثير له في النجح

ألا وان الإرادة والاقدام والسعي ذرائع تجعل للفرد كرامة ومنزلة حسنة في الحياة اكثر مما يجعل التنافس والمزاحمة الصحيحة

على ان الحياة الطيبة في التنافس الحق فان من طبيعة الانسان ان لايفتأ عن المزاحمة، غير ان للسعي والاقدام وصالح الاعمال اثراً حميداً في النتائج . واعلم ان للعلائق والتعارف مع الناس سيئات اكثر من حسنات : تفسد صحة الجسم والاخلاق وتصرف في العبث الاوقات وتذهب بقوى لو استعملت نفعت . حسناتها تهنك وملذاتها تضعف والحسد فيها اكثر من الحنين ، والمجد الموهوم اكثر من الارتياح

فاحيوا، ايها النابتون ، حياتكم بين الأسرة ، واقتلوا اوقات فراغكم في المنزل بين ذويكم وافتحوا مغالق بيوتكم لاخلاء الصدق ان كنتم على يقين من كرم اخلاقهم وشرف انفسهم . فان المنزل امر ذو بال لا ينبغي ان يدخله الا الصالحون

ومما ينبغي للرجل بعد ان يدفع عن أسرته كل شر و يحكم سد

الابواب لئلا يتسرب اليها ما تسوء عاقبته أن يسمى وراء الارتياح في منزله ، فعليهِ أن يكوّن فيه حياة يمن ولطف، وذلك بجلب الكتب اليه لان الكتب كالاصدقاء الثقة صالحة مخالطتها حسنة مناصحتها.

فاصطفوا، ايها الفتيان، خيرة من الكتب تقرؤنها لأنفسكم وازواجكم وبنيكم ، فان الكتب خير ما صنفت عقول البشر واعظم ما استنبطت واجمل ما اثمرت ، تبيح كل ما فيها من الكنوز لمن يعلم كيف يغوص وراء درارها .

ولا تهاملوا في زخرفة الاثاث فيقولن احدكم اني معيل لاقدرة لي عليه ففي سعة كل الناس فقيرهم وغنيهم ان يزينوا المنزل بجميل الادوات الا وان أعظمها رواءً اقلها نفقة

اما ما جاد به القرن الثامن عشر من بدائع التصوير والنقش فذلك صعب ادخاره في البيوت لانه نادر، على ان سعادة المرء لاتفقد شيئاً اذا لم يدخر ذلك ففي امكانهِ أن يتمتع برؤيتهِ في دور الاثار القديمة

ان النظر الى ما في هذه الدور من جميل الصنعة يصلح الذوق ويعلم المرء كيف يتخيّر لمنزله زخارف لاتغضي عنها الابصار لاختلال في مقاديرها او غرابة في اشكالها او تكلف في زينتها او تماجن في صنعها

واذا اعياكم ابتياع هذه الادوات فلكم ان تبتاعوا من تلك الدُمى بثمن بخس فهي اولى من صورة ساء صنعها وتسفلت حالتها

واعلموا أن المنزل يجمل سكناه ولو على فاقة ومسكنة اذا كان موضعه جميلاً ، فاسعوا ان يكون منزلكم على هذه الكيفية ايها الفتيان !

وينبغي للمرء ان يستفيد من اوقات فراغه فيقسمها الى شطرين الاول لتهذيب العقل والثاني للتناسي والتغافل الحميد والملاهي الساذجة

فالملاهي الساذجة والالعاب خير من جميع انواع التغافل والتناسي تفيد الصحة وتزيد المسرة وتوزن الجسم والاخلاق ، ولذا لايجب ان ننصرف عنها لاسيما اذا كانت طاهرة شريفة لاخشية منها

فما عليّ بعد هذا ان اسرد من النصائح وقد اسلفت منها ما يهدي الفتيان الى خير سبل الحياة ؟ فان قلت سكنى المدن مضرة فينبغي للرجل ان يقيم مع أسرته في فضاء الحقول او ينبغي له اذا لم يكن بد من الاقامة في المدن ان يقضي خارجها معظم ايام السنة برهنت على حقيقة واضحة وامر ظاهر لدي جميع القراء

ان صحة الجسم تقضي علينا وصحة الاخلاق تحدو بنا الى

اجتناب الازدحام في بيوتنا التي تشبه ثكنات الجنود وتقضي على كل اسرة ان يكون لها منزل خاص يفصلها عن بقية الاسر : الهواء من حواليهِ والفضاء من فوقه

ذلك مما يدعو الذين يسعون باشغالهم فى المدن ان يبذلوا جهدهم في ان تكون اقامتهم خارج الاسوار والاسداد حيث الهواء نقي والارض واسعة . ولكن سكنى الضاحية قد تفوت بعض الاحايين ارادة الانسان

الفصل الخامس عشر

نقص الانفس

قلت في فصل سابق ان الزواج واجب لان الوطن في حاجة للبنين وها انا ارجع الى ذلك واكرر ما قلت بياناً لما يتنزل عَلَى الامة من الفوارع والروائع ان لم تقم بواجب الرجوله والوطنية، وما يقرعها من الفجائع ان تألبت الأثرة والخوف من اعباء الأسرة في النفس عَلَى عاطفة حب السعادة ومصلحة العنصر · فتهلك الامة بعدحين و يسجل التاريخ ان ماتت تلك الأمة المقدامة طليعة الأمم في خوالي الاعوام لجبن في جأجأ لان القلب وفساد في قرارة النفس

انتم لا تودون ، ايها الفتيان ، ذلكم فاحرصوا عَلَى ان لا نصاب بهذا الخزي وتساموا بالانفس الكبيرة كما تسامى آباؤكم الاولون ونافسوا لمجد الأمة كما نافس غيركم في غابر القرون

تحقق ان الانفس لاتزداد مطلقاً · والمصيبة كل المصيبة ان نرى المصاب يزداد كل سنة تمادياً

فمن قابل بين الأمة و بين مَنْ يحيط بها من الامم علم اية جائحة تقرعها واي فادحة ترهقها · كانت الأمة الفرنساوية عَلَى

رأس القرن التاسع عشر اعظم الامم سكانا في اوربة اذا ضربنا صفحاً عن بلاد الروس المختلفة اصولها المجهولة سكانها في ذلكم العهد

كانت انفسها ٢٧ مليوناً على حين ان نفوس بريطانيا لم تتجاوز ١٠ ملايين والمانيا ١٥ او ١٨ مليوناً والنمسا او اسبانيا ٩ او ١٠ ملايين والولايات المتحدة ٥ ملايين اصلها من اوروبة

مضى على ذلك التاريخ ثلاثون ربيعاً فاصبحت انفس فرنسا ٣٢ مليوناً والمانيا ٢٩ مليوناً ونصفاً وانكلترا ١٦ مليوناً والولايات المتحدة ١٣ مليوناً

ثم اقبل نصف القرن التاسع عشر وانفس الفرنسيس ٣٥،٦٣٠،٠٠٠ والمانيا قرابة ٣٥،٣١٠،٠٠٠ وبريطانيا ٢١ مليوناً والولايات المتحدة ٢٣ مليوناً

اتى بعد ذلك عشرون سنة رمى الأُمة الفرنسوية نكد الطالع فتنزلت عن منزلتها الاولى، بيد ان الانفس فيها ما زالت تزداد بذلك الحين ولكن في التناقص عن بقية الأُمم، لان انفسها اصبحت سنة ١٨٧٠ ٣٨ مليوناً ونصفاً والمانيا ٤١ مليوناً وانكلترا ٢٦ مليوناً والولايات المتحدة ٣٨،٦٠٠،٠٠٠ بحيث بذّت الفرنسيس بماية الف من النفوس

ثم دهى الامة الفرنسوية سنة ١٨٧١ فقد ولايتين تبلغ مساحتهما

١٤ مليوناً ونصفاً من الكيلو متر المربع وانفسهما مليوناً ونصفاً .
فضربت من ذلك العهد بثبطٍ في عزمها وفتور في نشاطها حتى اذا ما بدت سنة ١٨٨٠ لم يبق لها من الانفس الا ٣٧ مليوناً ونصفاً وللالمان ٤٥ مليوناً وللانكليز ٢٩ مليوناً ونصفاً والاميركان ٥٠ مليوناً

ثم اقبلت سنة ١٨٩٠ وللامة الفرنسوية ٣٨،٣٨٠،٠٠٠ وللالمانية ٤٩،٤٢٨،٠٠٠ والانكليزية ٣٢،٧٦٧،٠٠٠ والاميركانية ٦٣ مليوناً

ودونك انفس هذه الأُمم في حاضر الايام : الروس في اوروبة ١٠٠ مليون . الاميركان في اميركا ٨٠ مليوناً الالمان في اوروبة ٥٩ مليوناً . المجر والنمساويون ٤٧ مليوناً . الانكليز والايرلنديون ٤٢،٥ مليوناً . والفرنسيس ٣٩ مليوناً . ألم تر ان الأُمة الفرنسية اصبحت في المنزلة السادسة يتبعها الايطاليون الذين نموا حثيثاً حتى جاوزوا سنة ١٩٠٤ ٣٣ مليوناً -

سقطت مواليد الأُمة في هذه السنة اي سنة ١٩٠٤ سقوطاً لم يعهد قط ، سقطت الى ٨١٨،٠٠٠ وليد على حين ان المواليد كانت في اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٠٠ ٩١٨،٠٠٠ ايام لم تنف الانفس على ٢٧ مليوناً

أأدركتم ، ايها الشبان ، ما تؤول اليه الحال ان دامت الانفس

تزداد لدى جميع الأُمم ودمنا عَلَى موقف الجمود ؟

ان الالمان الذين لم تكد انفسهم قبل نصف قرن تبلغ انفس الأُمة اربوا اليوم بعشرين مليوناً، والانكليز الذين لم يكن لهم في ذلك العهد الا ثلثي ما للأُمة من الانفس لحقوا بها وفاتوها في العدد. هذا إذا لم نضمّ اليهم من هاجروا من بلادهم وخرجوا من الارض ابتغاءَ السعي ونشر اللغة والقاء الصولة لان من هاجروا عَلَى هـذه الغاية من الانكليز عدد كبير وكذلك الالمان فانهم اكثر مهاجرة من الانكليز حتى انه قيل ان المهاجرين من الالمان يبلغون منذ سنه ١٨٧١ الى اليوم ١٠ ملايين

واعلم ان صغار الامم مشت مشية كبارها في النصف الاخير من القرن الحاضر فان انفس الهولانديين نهض عددهم من ثلاثة ملايين الى الخمسة والنصف والبلجيكيين من ٤ ملايين ونصف الى السبعة وعَلَى هذا جرت أُمم غيرها

دعنا من صغار الأُمم فاحرى واولى بنا ان نقابل الامة مع الالمان والانكليز

الالمان في هذه الايام يفوقون الامة بعشرين مليوناً من الانفس عَلَى حين نرى ان ارضهم اقل خصباً من ارضنا ومساحة بلادهم تباري بلادنا فلهم ٥٤٠،٠٠٠ كيلو متر مربع ولنا ٥٣٦،٠٠٠، كل

هذا ونقص الانفس لدينا والازدياد لديهم

واما الانكليز فانك تراهم يصورون لك في انفسهم تمثال الهمة والعزم في الاعمال . هذا اذا اخذنا بلاد الغال والاقوس وتركنا بلاد ايرلاندة عَلَى معزل لانها بنت سيئة الطالع لم تستوفِ ارثها من الحقوق ولم تتمتع بطيب الحياة كأخواتها فهي تستوجب بحثاً عَلَى حدتها من غير هذه الوجهة

بلاد الانكليز تبلغ مساحتها ٢٢٨,٠٠٠ كيلومتر مربع و بعبارة اوضح بياناً تعادل خمسي بلاد الفرنسيس وتكاد انفسها تجاري انفس هؤلاء في العدد فهم ٣٧ مليوناً ونحن ٣٩ مليوناً

وإذا ضممنا بلاد ايرلاندة إلى بلادهم رأينا أَن مجموع المساحة يبلغ ٣١٤,٠٠٠ كيلو متر مربع والانفس تنيف عَلَى ٤٢ مليوناً و بعبارة اجلى ايضاحاً نرى انه يعيش عَلَى ارض لاتكاد تبلغ ثلاثة اخماس ارض الفرنسيس مايزيد عَلَى افراد أُمتهم بثلاثة ملايين من الناس كل ذلك دليل عَلَى أَن الأُمة تنقص انفسها بالنسبة إلى ما تتقاضاه منها مدنية القرن العشرين وانها لم تستفد حق الاستفادة من ارض جميلة المنظر زكية التربة ولم تحافظ عَلَى رفعة المنزلة بين الأُمم

إن ما ذكر من الارقام حجة ناصعة عَلَى ذلك ترمينا بالخزي والهون

ولا لزوم لما تقدم من البراهين فانظروا ، ايها الفتيان، إلى ما حواليكم تعلموا ثمة الحق . ولذلك قام علماء الاقتصاد والزراعة ينددون ويقولون إن المزارع تنقص من رجالها والحق فيما يدعون الا انهم كثيراً ما يقولون جزافاً « ان انهيال المزارعين للحواضر امر سيء المآل ينبغي تلافيه » كلا ان ذلك لا نبتغيه ولا نجد لتداركه سبيلاً فان المدن لا يحشر اليها الناس الا بقدر حاجتها اليهم . زادت حاجيات الزراعة والصناعة مقتضيات الحضارة فزاد عدد الناس، إلا أن الحضارة كلما ترقت ترقت الرفاهية وكلما ترقت الرفاهية صعب امر الحياة

ولا مشاحة في أن مدن الفرنسيس لم تأخذ كفايتها من الناس وان همتنا في الصناعات ضعيفة غير وافية ، والحق يقال إن سبب هذا نقص الانفس بحيث ينقصنا من يقوم بالصناعات والزراعات ومن يسكن المدن والقرى .

ان الانسان من طبعه أن يختار سكنى المدن حيث يظهر ان الحياة فيها اقل صعوبة من غيرها والعمل اخف مؤنة والملذة اسهل تناولاً فنشأ من ذلك نقص الانفس في القرى وبعبارة شاملة نقص الانفس في الأمة فاحدق الخطر واختل التوازن بيننا وبين من جاورنا من الأمم الراقية

واذا لم نرعوِ ونتدارك هذا النقص فاخلق بنا أن نقطع دابر الامل من أن نكون أمة عظيمة تسعى في التهذيب والحضارة وعمران الارض بالرجال وأجدر بنا أن لانذود عن الحوزة ولا نشرإب إلى الحياة

إن أجدادنا ،أيها الفتيان، اعاظم خلدوا في التاريخ ذكراً جميلاً ولكنّ ابناءهم ابناء سوء لم يجددوا عنصر الأمة ولم يحافظوا عَلَى حمى الوطن فهم عرضة الاحتقار وموضع الصغار .

بحث الثرثارون عن إدالة الدولة ورثاثة حبل الأمة الناتجة عن نقص الانفس في المدن فقالوا : أما من حد لعدد الأمة ؟ ألا نعيش في سعادة وهناء لو قل عدد انفسها عَلَى وجه الارض ؟ . فيارجالاً ضاعت ذمتهم وعميت بصيرتهم ولم يجيبوا داعي الله ولم يقفوا عَلَى سننه ! هلاّ نظرتم إلى حقائق الكون فاعتبرتم بأمتكم وبمن يحيط بها من الأمم ، أمم ترقى وتسحقنا سحقاً ، ثراؤها غزير وابناؤها جم غفير . أرموا بابصاركم إلى القرى المقفرة والهمم الخائرة ونبئونا أي ملك مع هذا يدوم أم أية أرض تبقى ؟ لامرية أن ستلهم مادتنا الشعوب وتستلحم عنصرنا شَعوب

ربما تواطئون عَلَى أن الأمة في حرج المخاطر ولكنكم لاتبالون ، تكتفون بقولكم ان للامة حق الوقوف اليوم عن الترقي

والنمو من وجهة الانسانيه

كلا ايها القوم فليس لها حق لامن وجهة الانسانية ولا من الوجهة الوطنية . فهل أستوفت الارض سكانها ؟ ام هل أنقطعت مواردها ؟ أليس فى أستطاعة أوروبة أن تمير أناساً اكثر عدداً مما لديها ؟

إن الارض يعوزها رجال لاحد لهم ولا نهاية ، فعلى الامم الكريمة الطاهرة الحية أن تقوم بما تحتاج الارض من الرجال ولقد كان في وسع آبائنا الاولين أن يحسبوا ما حسب رجال الانحطاط في هذه الايام ، لان لهم حقاً في ذلك لا يتعدانا ، ولقد كان في استطاعتهم الاَّ يجيبوا سنة الوجود الكريمة التي تأمر بالنمو والتكاثر

واظن انْ كان في الاعصر الخالية قبل وضع التاريخ رجال سفسطة كاليوم لو أتبع مقالهم سكانُ الكهوف والمدن المندرسة لأشعروا قلوبهم حب الانانية وقالوا بأنفسهم إن الراحة والملذة في الحياة تقضيان بان لانكثر من البنين فنطيب نفساً ونقر عيناً و يكون للنسل اراضي واسعة يتمتعون بها اكثر مما لو كانوا عديدين ، ومن ثم بقيت سلالة البشر على اثر ذلك الجبن والأثرة العمياء بلا تقدم ولا نمو ولا ترقٍ ، تتكون من بطون صغيرة لاتآلف بينها ولا التئام ، حياتها حياة خوف واضطراب بين جمع الحيوانات

ولكن الانسان أقدم عن ثقة بنفسه ونازع الحيوانات السلطان فكثرت ذريته واستقرت عَلَى الحيوان سلطته . أَلا وان المستقبل كالماضي، ايها الفتيان، فلا حياة إلا للأُمم التي اشتدت عزيمتها ورسخت ثقتها بنفسها وما انقطعت عن ترقيها ولا انتهت عن انماء ذاتها أَلا وان في الراحة لموتاً

كلا أَيها الفتيان لا اود ولا تودون موت أُمتكم، فان فيها عناصر للحياة و بواعث لحب العظمة ولا يفوتها الا إعمالها، فداء الامة داء في الاخلاق ليس إلا، وفي استطاعتنا أَن نقل من الوفيات ولو كانت اقل من وفيات كثير من الامم واكثر من أُخرى الاَّ أن هذا لا يكون طباب نقص الانفس فان طبابه في الحمية الوطنية

ان اجسامنا لا ينقصها من القوة الا قليلاً ، دمها حيّ في عروقها وماؤها غير ناضب تحت بشرتها، فآلوا عَلَى انفسكم أَن نقوّموا اعوجاج الاخلاق وتسددوا عاطفة الواجب وتشدوا همة الرجولة ولا تيأسوا من انفسكم ولا من مجيد المستقبل لأُمتكم

ان الخطر عَلَى الابواب ايتها النابتة! . فالارجل قد زلقت عَلَى احادير الانحطاط واشفاء الموت . فينبغي لنا أَن نتماسك ونعمل العزم حتى نتسامى لقمة المجد . نعم ان بلوغ الهوة يستوجب زمناً

ولكنّ الزمن زمن ليس الا

ان رومية، ايها الشبان، اصبحت خاوية على عروشها بعد ان فقدت رجالها وفينا ولله الحمد من يستطيعون أن يوجدوا ما تطلبه الأُمة من الرجال والبنين ، فحسبكم ايها القوم أن تصمموا على ذلك وتهموا به ، وحسبكم ان تعلموا وتصدعوا بان الزواج وتكوين الأُسرة امران اوجبتهما على كل امريء سنة الله والحياة الاجتماعية والحمية الوطنية

الباب الثالث

ابن الوطن

الفصل السادس عشر	الديموقراطية
« السابع «	الدستور
« الثامن «	الواجبات الوطنية
« التاسع «	المساواة في الحقوق
« العشرون	انواع الحرية
« الحادي والعشرون	التعليم
« الثاني «	التعاون وتدارك البؤس

الفصل السادس عشر

الديموقراطية

تنشأ السياسة من حيث هي سياسة من واجبات ابن الوطن وحقوقه ، وتتكوّن من ارتباط طراز الحكومة مع ادارة المملكة وهما امران نتبسط في الحديث عنهما في هذا المقام

ان البحث دقيق بحيث يتعذر عليّ ان أوفيه حقه دون ان المس ذلك الموضوع مهما كان فتيان الأُمة عَلَى اختلاف في آرائهم التي داخلتهم من تلقاء انفسهم او من أسرتهم، فأنا لا ارمي بذلك الى ان القي عليهم درساً من دروس السياسة او ان اوحي اليهم بهذه الفكرة او أوجب عليهم اتباع ذلك المبدأ، بل جل مبتغاي ان الفت انظارهم الى بعض المبادئ السياسية الاساسية في الحياة الاجتماعية والحكومة الديموقراطية ، مبادئ لايجوز لاحد ان ينكر عليها ولو كان من اي حزب من الاحزاب السياسية

لا تختلج ريبة في صدري من احد افراد الشبيبة ولا اخال ان احداً يفكر منهم في تغيير طراز الحكومة الحاضرة الذي تستند عليه قاعدة البلاد لان محاولة هذا الامر لما يخفق سعيه وتسوء عاقبته

فعلى ابناء الوطن مهمة وطنية صعبة لكنها شريفة ينبغي ان يقوموا بها حق القيام الا وهي : ان لا يذيبوا قواهم في هدم الآلة التي يجب ان تستفيد منها البلاد من اجل اختراع آلة جديدة

يجب على كل فرد من هذا الوطن في الوقت الحاضر ان يعمل لتكون الدولة اكثر نجحاً واشد بأساً ومنعةً ، ويتسنى لكلٍ ان يقوم بهذه المهمة تحت ظل الحكومة الديموقراطية فهي التي تمثل امر هذه الأُمة العام لانها حكومة مجموع ابناء الوطن

واذا رغب احد من الأُمة في متابعة اصلاح القوانين وتحسين ادارة الحكومة تسنى له ذلك تحت ظلال هـذا الحكم الديموقراطي ايضاً ولا يسوغ لأحد ان يسعى في تبديل هذا الطراز اذا كانت افكاره لا تنطبق عليه او اذا كانت ادارة المملكة سيئة ، لانه لا يخل باعمال الحكومات اكثر من تغيير صورة الحكم واستبداله بغيره

ولهذا لا ينبغي أن يجـادل بعضنا بعضاً ولا نضيع الوقت ولا نصرف القوة في اسقاط طراز الحكومة الحاضرة او المدافعة او المهاجمة

حكومتنا الحاضرة حكومة ديموقراطية ، هذا هو الحق . ولا ريب في ان رجل العقل والواجب الذي يسعى هذا الكتاب في تكوينه لا يود ان يطوّح ببلاده في ازمات شديدة واضطرابات جديدة مهما كانت آراؤه وآراء أسرته

ابتدأ الناس فعاشوا جماعات وخرجوا من جاهلية التوحش الاولى والفوا حكومات صغيرة كصغر مجتمعهم وقلة حاجاتهم، فجاءت منذ اول نشأتها ارستوقراطية وديموقراطية. هناك قد اجتمعت رؤساء الأسر وقرروا وحكموا وهنا اجتمع رأس اسرة راجحة بقوتها مستمسكة بعدد اعضائها مستحكمة بنفوذها، فتسلطت على بقية الرؤساء وادارت الجماعة وقادت الناس على اختلاف مشاربهم ووضعت من شروطها ان تنتقل هذه الصلاحية الى احد الاقرباء بعد الممات

فالديموقراطية والاريستوقراطية عرقتا في قلوب الأمم سواء في الجاهلية او في المدنية

ان الحكومة الديموقراطية اذا صلحت واشتد بأسها وتنظمت قوتها وتحسن انتظامها الاجتماعي وتوطد فيها العدل وتأيدت الحرية لجميع الناس ساد في الأمة الاخاء بين جميع العناصر على اختلاف نزعاتهم، هذا اذا لم نقل ان ذلك ينفي عن الامة رذيلة الحسد وكبرياء المتنفذين فالديموقراطية تمثال صورة الكمال للدول الحاضرة

أما طراز الحكومات الذي تتسلط به الامة تسلطاً يتجاوز حد الافراط (الديموغجية) بحيث تستبيح معه الفسق في الشوارع والفوضى في الاعمال العامة ويؤيد الجماعة لا الامة فهو افظع انواع الحكومات واكرهها في العالم الاجتماعي

قال فيكتور هيغو « اياك ايها العقل ومجاملة الجماعة ! فالأمة فوق كل متعالٍ والجماعة تحت كل متدلٍ »

حكومة الامة هي الحكومة الديموقراطية ، وحكومة الجماعة هي الديموغجية وهي افظع طراز الحكومات بين الجماعات البشرية . نعم ان كل المظالم ثقيلة على النفس مكروهة لدى النفس الا أن ظلم الجماعة أكثر ثقلاً وأشد فظاعة

سرّح الطرف في تاريخ القرون الماضية تجد كثيراً من الحكومات الديموقراطية على اختلاف ضروبها تستحق أن يمعن الفتي فيها النظر ليرى ما يجب ان تتخذ أمته من الفضائل والكمالات وما ينبغي أن تتجافى عنه من المعايب

فالقوانين تابعة لاخلاق الامة فكلما حسنت الاخلاق والطباع حسنت القوانين الموضوعة

واعلم أن الديموقراطية تظهر فيها الرذيلة باجلى مظاهرها كما تظهر الفضيلة فهي موضوعة كما تصوغها الامة ، فان خيراً فخيراً وان شراً فشراً ، بحيث تساعد ابناء الوطن على أن يسيروا في المحجة الواضحة او أن ترمي بهم الى حيث يهوون

ولهذا ينبغي للمتشرع الذي يضع قوانين الديموقراطية أن يكون عاقلاً مستبصراً فيحترم المباديء والحقائق مع الوقوف على ميول

الامة المضرة ومعايبها السيئة ، فاذا كان في القانون ما يسد عَلَى الميول و يفسح لما فيه المنفعة العامة انتج القانون نتاجاً حسناً وأعد للامة مستقبل خير ويمن . والا فانه يسهل لها الشر و يقف في وجه عزتها ومنعتها

خذ مثلاً شعبين احدهما يرجع اصله الى اللاتين والآخر الى السكسون فتجد ان الامة السكسونية مستعدة للانتظام واستلام الادارة وتأييد القوة بخلاف الاول ، فانه لا ينتظم الاَّ بقوة القانون وضروب المخاوف . فاذا أديرت هاتان الامتان بنظام سياسي واحد دون التشديد عَلَى احداهما كانت النتيجة مختلفة : ينتظم الشعب السكسوني و يساعده الانتظام عَلَى الحياة الاجتماعية الطيبة والمنزلة الادبية المادية الحسنة ، ويختل الشعب اللاتيني فيذهب الى الاختباط وضعف القوى الاجتماعية او الى الفوضى فيسوء الدستور من حيث يستفيد منه آخرون

وقصارى القول انه ينبغي ان تتخذ كل أُمةٍ مبادىء الديموقراطية الشرعية حسب طبيعتها واخلاقها . وأُمتنا التي قلبتها الثورة لا نقدر ان تعيش الاَّ في الحكم الديموقراطي

فعليكم ، ايها الفتيان ، بالمحافظة عَلَى طراز الحكومة الحاضرة ففيه المجد والعظمة للأُمة

الفصل السابع عشر

الدستور

ما هو السبب الاول في تكوّن الجماعات البشرية وتأليف الحكومات؟

—لا ريب ان السر فيه هو الدفاع عن الطوارئ المختلفة التي كانت تنتاب الأسرة المنفردة، فاستدعى ذلك إلى توحيد القوى العامة وانتظام شكلها لتأييد الامن والسكينة بين الافراد التى تتألف منها الجماعات واقامة العدل و إحقاق الحق والنصفة للمظلوم من الظالم في المشكلات التي تحدث بين الناس جميعاً

دام هذا السبب منذ تكوّن الجماعات الاولى على توالي الاحقاب، ولازم الجماعات الكبيرة التي يتواصل نموها ولم يزل شرطاً لازماً للحكومات الحاضرة

نعم إن الاحتفاظ بالاستقلال الوطني والدفاع عن حوزته وتأييد الأمن واجراء العدل هو اول ما تسعى اليه كل حكومة لان بذلك تقوم بواجب المجموع نحو الفرد

إن من حقوق الفرد الطمأنينة على النفس والمنزل والتمتع التام

بما تملكه يده ، نعم لا يخلو أن يكون كل ذلك عرضة لاجتياح العدو الخارجي كما وانه لا يخلو أن يكون هدفاً للاضطراب الداخلي

فالقوة العامة ومراجع العدل تذود عن الفرد مصالحه وتسبغ عليه ما يلتمسه من الراحة والطمأنينة عَلَى النفس والمال

عَلَى أن وظائف الحكومة لم تقف عند هذا الحد عَلَى ما يظن البعض بل سارت في بلاد اوروبة ابعد من ذلك فازدادت المصلحة العامة إلى درجة الزمت الحكومة لتكثير الدوائر وحملتها عَلَى أن تعمل بنفسها في إستثمار الصناعات مما يعود بالنفع عَلَى عموم ابناء الوطن

و إذا قطعنا النظر عما تعمله الحكومة للدفاع عن الوطن واجراء العدل والضبط والربط نجدها قد اخذت عَلَى نفسها إدارة المصالح المحلية والامور النافعة والتعليم والبريد والبرق والمسرة (التلفون) وأنها اوجدت دوائر أخرى لمراقبة الزراعة والصناعة والتجارة الوطنية والاجنبية مع تنظيمها وحمايتها والتوسل لتنشيطها .

وقد استدعت هذه الاعمال والديون التي تقتضيها إنشاء إدارة مالية كبيرة فقامت بها الحكومة

ذلك شأن الحكومة عند الشعوب المتمدنة عَلَى وجه الاختصار وقلما يختلف الامر في أمة عن أخرى . هذا و إن

الحكومة الديموقراطية والاريستوقراطية تتساويان من حيث تلك الوظائف والواجبات نحو المجموع والافراد

فهذه الوظائف والواجبات هي أعظم شأناً مما كانت عليه عند الامم القديمة في حداثة تكوُّنها وقرب عهدها من الوجود ، غير انها لاتشتمل كما كان عَلَى تمام سلطة الامة ومن ذلك نشأ انقسام السلطة العامة الى شطرين احدهما التشريع والثاني التنفيذ والاجراء

فالقوة التي تشرع وتقرر اي التي تضع للامة الأنظمة والاصول القانونية المفيدة للافراد والأُمة هي القوة التشريعية اي مجلس النواب

اما القوة الاجرائية فهي التي تحكم وتدير شؤون البلاد ضمن دائرة الشروط والقيود المعينة في الدستور وبموجب القوانين التي تكلف باجرائها و يعهد اليها تنفيذها وهي الوزارة .

وقد دخل عَلَى هذه القوة التجزوء ايضاً لاعتبار أن الشؤُون القضائية مستقلة

لأن وظيفة اجراء العدل من اول واجبات الحكومة وخصائصها ولكنها قدفصلت عنها بسبب تأثير الاغراض التي تولدها السياسة الملازمة لاعمال الحكومة، فاصبح الحكم بين الناس واحقاق حقوقهم اما بالحياة او بالشرف او بالاموال خارجاً عن تلك الدائرة

التي ربما تشيبها الاهواء وتحتف بها الاغراض .

فقسطاس العدل قد عهد للقضاة وسعت الحكومة بان يكونوا مستقلين عن القوة الاجرائية فكونوا قوة ممتازة تدعى القوة العدلية فانفصال القوى قد اصبح مبدأً وقاعدة اساسية لدى حكومات الشعوب الحرة .

جاء في البيان الذي نشره رجال الثورة الافرنسية عام ١٧٨٩ لحقوق الانسان مايأتي « ان كل مجموع لاتكون فيه الحقوق مضمونة مصانة وانقسام القوى محدوداً مبيناً لايكون له دستور »

فمن ثم وجدت ثلاث قوى منفصلة غير ان بينها روابط لازمة وعلاقات قابلة للتغير على حسب الدستور الذي تتعلق به وهي: القوة التشريعية التي تسن الشرائع لاسيما الموازنة المالية السنوية وبموجبها تقبل الضرائب

ثم القوة التنفيذية وهي تدعى « الحكومة » فيما يختص بادارة شؤون الدولة العامة وتدعى «الادارة » فيما يتعلق بالفروع و بتطبيقها .

ثم القوة العدلية وهي التي تعطي كل فرد حقه على حسب القانون وتجري الحد والقصاص على كل من يخترق نصوص القوانين واوامرها .

جاء في بيان المجلس الوطني الذي نشره رجال الثورة الافرنسية

ما يأتي في المادة الثالثة : « إن مبدأ كل سيادة قائم كل القيام في الامة فليس لاحد ان يستعمل السلطة ما لم يكن مصدرها صريحاً من الامة »

فحكومتنا اصبحت بالتالي حكومة ديموقراطية ولهذا لا يكون لفئة من الناس او طبقة من الامة امتياز او حقوق سياسية مختصة بهم دون غيرهم ، بل كلهم متساوون باعظم واقوى معاني المساواة . ولكل شاب بلغ الرشد وخلص من شائبة الجرائم حظ التمتع بحقوق ابن الوطن فيكون منتخباً ومشاركاً مثل غيره في تعيين نوابه وموكليه الذين يكلفون بتشريع الانظمة لمدة معينة

هذا هو ما يسمونه بالانتخاب ، على أن انتخاب النواب لم يقيد الا بقيود السن والاقامة ، ويمكن لكل وطني مع رعاية هذا القيد ان ينتخب للوظائف الكبيرة والصغيرة

فحكومتنا إذاً حكومة ديموقراطية كل الديموقراطية

******

رأيت ، ايها الفتى ، كيف تتكوّن القوى العاملة في حكومتنا الحاضرة فهي لا تضرب خناقاً على الحياة ولا تقف دون ترقي الأمة لانه ليس فيها ما يخرق المبادىء الديموقراطية

غير أن دستورنا كالقوانين البشرية قابل لكل نقد وتنقيح، فاذا رأيت فيه ما يوجب ذلك فافعل ، ولكن قبل كل امرٍ ينبغي لك ان تعلم أن الدستور تكون مكانته بقدر ما تكون مكانة اخلاق الامة وطباع ابناء الوطن

لا اجمل من الدستور إذا عرف ابناء الوطن كيف يستفيدون من خيراته ، ولا افظع منه إذا جرى هؤلاء الابناء مجرى ما فيه من السيئات

ففضائل الدستور ومعايبه الخاصة ثانوية بالنسبة لفضائلنا ومعايبنا فهي في المكان الاول اذا اردنا أن نستفيد من هذا الدستور

ولذلك نثبت في هذا المقام ما قاله مونتسكيو من «ان فضائل ابناء الوطن تجعل للدولة قوى اكثر من القوانين والأنظمة »

بم تكون الفضيلة الوطنية ؟

— تكون قبل كل شيء بحب الوطن

ثم بالاهتمام فى المصلحة العامة التي يجب ان تنزل فوق كل المصالح الخاصة ، وباحترام قوانين البلاد الصادرة عن ارادة الامة ، وبالتعلق الخالص بالحرية ، بتبادل عاطفتي العدل والمساواة بين ابناء الوطن ، وبتأييد الاخاء الذي يوحي بارتباط العلائق بين ابناء الامة ويدعو الى التضامن في مدلهم الاوقات

فاذا تحلى المرء بهذه الفضائل الوطنية مع فضائله الخاصة كان رجلاً صالحاً لهذا الوطن المحبوب، لان سيرة الرجل تفيد الحكومة الديموقراطية اكثر من كل الخطب سواء انخرط في الاحزاب السياسية او لم ينخرط، او اعتقد بهذه الخطة وبشّر بها لدى الناس او لم يعتقد، فاخلاق الامة هي المعول عليها في الاستفادة من الدستور

هذا هو المثل الصالح ايها الفتى! فعليك بتحدّيه فقد علمت كيف ينبغي ان تثبت في ارادتك وشجاعتك وتذعن لواجبك

الواجبات الوطنية تتنزل بجانب واجبات الرجل الذاتية وواجبات رب البيت، لانها ليست اقل طلباً للاحترام، بل يتطلب القيام بها استبصاراً واخلاقاً فاضلة اكثر ما تتطلب تلك الواجبات

مهما كنت، ايها الفتى الناهض، هماماً غيوراً في منافسة الاحزاب السياسية فقد ينبغي لك أن تكون من ذوي الافكار الحرّة والاخلاق المستقلة لتميز مصلحة الوطن وتنزلها فوق كل مصالح الاحزاب ان لم نقل كل المصالح من حيث هي مصالح

نعم ان وجود الاحزاب السياسية في الحكومات الديموقراطية امر طبيعي قانوني، ولكن ينبغي ان تكون غايتها نشر افكارها والتبشير بخطتها والسعي في انتخاب رجالها للنيابة والدفاع عن المرجحين للانتخاب، وبعبارة مختصرة ان تقوم بما يتقاضى جهاد الانتخابات .

هذه هي وظيفة الاحزاب السياسية ، واما اذا كانت ترغب في ان تراقب رجال الحكومة او رجال الأُمة وتجري المظالم الكريهة وتقلد جماعة المنتخبين (بالكسر) طوق القهر فقد أتت بما يشمئز منه كل وطني مريد ، لان جور الجماعات السياسية جرح من جروحات الديموغجية

و بعد فان الحكومة الديموقراطية ترغب في ان تكون الحرية مطلقة والمساواة بين ابناء الوطن مؤيدة والعدل لجميع افراد الرعية موطداً .

الفصل الثامن عشر

الواجبات الوطنية

ان لابن الوطن حقوقاً وواجبات للوطن فحقوقه صادرة عما وضعت الديموقراطية له من هيمنة الامة عَلَى نفسها ومن شعارها : الحرية ، والمساواة ، والاخاء .

الواجبات في غير الديموقراطية قليلة واما في الديموقراطية فهي اكثر عدداً واشد حرجاً واعظم تقاضياً ، لان الامة التي تقوم بأمرها من تلقاء نفسها يكون كل فرد فيها سيداً يتحمل تبعات اعمالها ودركات امورها ويُسئل عن مصيرها وقوتها وعظمتها ومستقبلها

إن التاريخ، أيها البنون، ينوّه اليوم باسم الملوك والوزراء الذين اضاؤا الارض من مجد الامة و يلقي عليهم عهدة ما أنتابها من شر او خير، لان مقاليد الامور كانت بين ايديهم وتحت سلطانهم . اما في المستقبل فلسوف يلقي العهدة عَلَى رجال الامة باجمعهم، فيفخرون بما قدموا لها من صالح ويمجدون بما أسسوا لها من شرف ، و يصغرون بما كسبوا لها من شرٍ و يهونون بما ألحقوا بها من وصمة وانحطاط ، فيقرع صفاتهم ان تواقعوا إلى الوهدة و يشنع عَلَى زمكة السوء إن لم

يخلفوا لاعقاب المستقبل تراث قوة وشرف تعاون على جمعه اجدادهم جيلاً بعد جيل . ففضيلة ابن الوطن قوة للوطن

ولذا كانت كل فضائل الافراد سعادة للامة وكل الشوائب مبعثة للمصائب ومجلبة لهلاك العنصر .

وجب على من يرغب في نفع قومه أن يكون ذلك الرجل الذي مرت بنا اوصافه ، عاملاً على واجبه ، مريداً هماماً ، سموحاً رحبا ، مستقيما مقداماً .

واجبات ابن الوطن للوطن كثيرة ورأسها بل اعظمها مكانة أن يسعى الرجل وراء منفعة وطنه ويهتم في مصلحته وينزلها فوق كل المصالح ، فيقف حياته من اجل بلاده ، ويذكي النار ويصلي الحرب ويحمل الاذى ويموت في سبيله حباً ببقاء الوطن . الاوان حب الوطن عظيم جسيم يعلو جميع الواجبات بحيث يستلزم ان نفرد له فصلاً خاصاً في الباب الرابع من هذا الكتاب .

ومما يجب على ابن الوطن ان يحترم شرائع البلاد ويدين لها لان وضعها صادر عن ارادة الامة لا ارادة فرد مستأثر . على ان لابن الوطن الحق بان يسعى ، اذا رآها سيئة ، وراء الغائها بوسائط قانونية ، وليس له ان ينبذها او يخالفها او يشق عصا الطاعة ، لان المرء اذا كان لا يطيع من القانون إلا ما يوافق رأيه او ما يتفق مع منفعته

فلا طمأنينة تدوم ولا راحة تبقى . قال فيكتور هيغو : « امزان جليلان : راية تصور شرف الجندية ، وقانون يمثل حقوق الامة . »

عَلَى انَّ القانون لا تطاع اوامره وزواجره الاَّ متى كان شرعاً للعامة والخاصة، وحينئذ ينبغي للطبقتين ان تراعي حرمته لان في ذلك حكمة راهنة لاتحتاج إلى برهان . ولكن قومنا قد نبذوه ظهرياً فاصبح ذوو الوجدان الصحيح لا يفكرون في حقوق المملكة ومصالح الامة إذا عرضت لهم حقوق ذويهم ومصالحهم

شاع ذلك في امر الضرائب ولا سبيل لاحدٍ ان ينكره، ترى أُناساً عرفناهم بالاستقامة الصحيحة يتنصلون من الضرائب ويتّجرون بالممنوعات ولا يدفعون ما عليهم من الرسوم ، مع انهم يعلمون ان في ذلك مضرة، وان في الخدعة والسرقة سوءاً، فيضل سعيهم و يسرقون ما لانفسهم لان سرقة الحكومة سرقة الامة

و بعد فينبغي اطاعة القوانين لاسيما قانون الضرائب لان للضرائب مكانة شرعية كبقية القوانين

فالجند الذي يرد غارة الاعداء وكيد الاشرار عن انفسنا واموالنا لا يقوم أَودُهُ الا بالمال الغزير، وكذلك الشأن في امور النافعة وامور الشرطة وكل ما به قوام حياة الأُمة واعمال المملكة

فينبغي لابن الوطن ان يخصص شطراً من امواله يدفعه للقيام بهذه الاعمال التي لو فقدت لكانت حياته وسعيه لا جدوى منهما ولذا وجب دفع الضرائب عَلَى مقتضى القانون

فالقانون ارادة الامة عَلَى لسان النواب ولهذا وجب دفع الضرائب كما يحددها لانها قاعدة الحكومات النيابية

ان قانون الضرائب كان اصلاً للحكومات النيابية ، لان مجالس فرنسا الاولى لم تجمعها الملوك من قبل الا لتحديد الضرائب التي لم يستطيعوا أن يفرضوها عَلَى الناس . فالضرائب كانت سبب دعوة المجالس العامة سنة ١٧٨٩ مجالس تحولت الى مجلس وطني فاعلن « حقوق الانسان » ووضع فريضة الضرائب حيث يقول : «ان لابناء الوطن حقاً في ان ينظروا بانفسهم او بواسطة نوابهم ضرورة الضرائب العامة ، فيقبلوها احراراً ويجروا عليها ويحددوا مبلغها وكيفية توزيعها وجبايتها ومدتها »

لذلك اصبح قبول الامة بالضرائب الشخصية وغير الشخصية واجباً عيناً لا يجوز التملص منه

رب سائل يقول كيف يجب ان توزع الضرائب عَلَى ابناء الوطن — جاء في «حقوق الانسان » ان الضرائب توضع عَلَى «وجه العدل» اى كلٌّ عَلَى حسب مكنته

ويقصد من هـذا مقدار دخل الرجل، ولذلك يبذل مجلس الامة جهد المستطاع في ان يجعل الضرائب عَلَى قدر الدخل

وبعد فقد ينبغي لابناء المستقبل أن يسبروا غور الضرائب المهمة فيقسموا توزيعها عَلَى الحكمة والعدل بين ابناء الامة، بحيث لا يتضرر الناس ولا تتضرر مصلحة البلاد . واهم ما في هذا الأمر ان لا يتبعوا اهواءهم الذاتية ولا اهواء طبقاتهم الخاصة بهم، بل ينبغي لهم ان تكون غايتهم اعلَى واشرف من أن يجعلوا الضرائب عَلَى وجه يتملصون منها هم والطبقة التي يختصون بها ، ونكتفي بان تتحرك فيهم عاطفة العدل حتى يجعلوها فوق كل حسبان من مصالحهم الذاتية

نذكر مثلاً صالحاً جرى في بلاد الانكليز منذ عشرين سنة وذلك ان الحكومة تذاكرت عَلَى عهد رئيسها غلادستون (١٨٠٩ — ١٨٩٨) ووزير المالية ويليام هارقورت (١٨٢٧ — ٠٠٠) في زيادة الضريبة اذا نقل الإرث للورثة زيادة فاحشة تتكاثر عَلَى اوارث كلما كان إرثه عظيماً حتى تبلغ خمس المال ، فرفضها مجلس الامة في بادىء الامر واقر عليها بعد جدال شديد وتباحث طويل وكان يخيل للناس ان مجلس الاعيان (اللوردات) سيرفضها بتاتاً لانه القابض عَلَى معظم الثروة ، ولكن الامر كان بخلاف ما يظنون، فان الاعيان قبلوها بالاتفاق دون أن يعترض عليها احد ما، وقد سئل احدهم عن

رضاء مجلس الاعيان بهذه الضريبة فاجاد بالجواب حيث يقول:

«لانجوّز لانفسنا ان نعارض او نجادل فيما يمسنا بمصالحنا واموالنا»

امر الضرائب صعب حله كالامور السياسية، بحيث يكاد المرء ان لا يثق بما يعزم عليه في شأنها ولا يعلم فيما اذا كان خير عزمه يرجح عَلَى سيئه . وكثير من القوانين على هذه الشاكلة تدخل الريبة في خيرها بعد التوقيع عليها والجري عَلَى مجراها

يقع هذا في الامور السياسية فالواجب الذي ينبغي ان يهدينا السبيل لايظهر واضحاً جليًّا ، فعلينا أن نجهد العقل لنميزه دون ان يبدو لنا الخطأ في البال لان السعيد من قصرت انظاره ولم تأخذه المظان والشبهات

احسن ما في اوجه الجندية من المحاسن هو انَّ الواجب فيها منصوص عنه لا يستلزم تمعناً ولا تدبراً، وقد كان القائد بورنس دبورد (قائد من قادة فرنسا ١٨٣٩ — ١٩٠٠) يقول اذ يري التردد والاضطراب في رجال السياسة : « اني فرح سعيد لان السياسة محظورة عَلَى قادة الجنـد ، فواجبنا واضح يسير مخطوط باوضح بيان في هذا الكتاب الصغير الذي يسمونه بالنظام» . اما في السياسيات فلا نظام يملي الواجب ، عَلَى انه قد يمكن ان يُجعل لارباب السياسة مباديء وقواعد اولها ان يكون الساسة زعماء انفسهم ، فيدعون

للعقل والارادة السلطان عَلَى الاهواء والشهوات ، ومن ثم يصح لهم ان يحلوا غويص الامور السياسية بسكينة روعٍ ويهتموا قبل كل امرٍ في مصلحة بلادهم ، حتى اذا حفظت هذه المصلحة التفت كلّ منهم إلى مصلحة حزبه ، وقد ينبغي حتى في مصلحة الحزب ان يكون هدى الرجل العدل والانصاف ، فالحكومة تخون مبادئها واسمها إذا لم تكن حكومة عدل تحترم حقوق ابناء الوطن جميعهم وتوجب عَلَى الناس والاحزاب احترامهم لهذه الحقوق

فالواجب في الامور السياسية مهما كان صعباً متلبساً متضارباً يتطلب امرين : الاول جعل مصلحة الامة فوق كل مصلحة والثاني قامة وزن العدل في الحكم بين الاحزاب السياسية ، لانه متى حفظت هذه القاعدة حق الحفظ امنت البلاد من خطر انشقاق الاحزاب الذي يؤذي الارض في اكثر الاحايين

ومما ينبغي لابن الوطن أن يعلم ويتحمل ما للديموقراطية من لزوميات الاضطراب والقلاقل ، و يتثبت عند حركة الشغب ويذكر حب الوطن والعدل . فان حب الوطن والعدل متى دخلا قلوب الناس حفظ أهواءهم من الشطط والنزوع إلى القلاقل

ومما ينبغي للذين رزقهم الله العلم والفن والعقل والادب الصحيح أن يتشربوا حب المساواة و يعتقدوا أن ما لهم من الميزة عَلَى الناس

لا تخولهم ميزة في الامور السياسية . فحقوقهم وواجباتهم شرع كحقوق الناس وواجباتهم في حكم الديموقراطية ، فما يجب عَلَى الناس يجب عليهم ، عَلَى أن مكارم الاخلاق توجب عَلَى هؤلاء الرجال واجبات اكثر من الآخرين لان الواجبات تزداد كلما ازدادت وسائل القيام بها

فمن لم تشغله حاجيات الحياة عن أن يدافع عن مصالحه ومصالح أسرته وجب عليه أن يدأب في اعمال الامة ومصالح الوطن وفي المشاريع العظيمة كمعاهد العلم وملاجيء الفقراء وماوي تدارك البؤس والمصاح ، لان من المروءة إن كانت مواهب الرجل العقلية تفوق مواهب الناس أن يفيد ابناء وطنه وحكومته مما وهبه الله ، وان يجهد النفس في أن يسعى و يثمر سعيه اكثر من غيره

ذلك من واجبات ابن الوطن إن قام به قام بواجبه ونفع الامة ، لان ما يتحتم عليه من الواجبات لا تتحتم عَلَى غيره

و بعد فينبغي له أن يأخذ بامور الامة اخذاً نشيطاً ثابتاً ، و يصرف معظم همته وقوته في نجاحها فما له من الميزة عَلَى غيره يستلزم واجبات لا تجب على من سواه

الفصل التاسع عشر

المساواة في الحقوق

الحقوق شرع بين ابناء الوطن حسب ما جاء في المادة الاولى من حقوق الانسان التي نادى بها رجال الثورة الافرنسية حيث يقولون :«يخلق الناس احراراً و يعيشون احراراً متساوين ، لا ميزة لاحد عَلَى الآخر الا إذا افاد الامة »

فالامة ، ايها الفتيان ، لا تقر بميزة لاهل النسب ولا بوراثة لارباب السلطة والوظائف والزعامة

هذا هو الشأن في الحكومات الديموقراطية واما في الحكومات الاريستوقراطية فالامر بخلاف المألوف ، فان ذوي النسب يتمتعون بميزات لا يتمتع بها غيرهم من الناس، نضرب لك مثلاً بلاد الانكليز، فانها ولو كانت مقر الحرية الشخصية ،لا تعترف بالمساواة في الحقوق بين جميع الناس فاعيانهـا أقوي تأثيراً وارسى ركناً من رجال الحكومات الاريستوقراطية ، يبتزون السلطة لأنفسهم ويخذلون ارادة الأُمة إن شاؤا ولكنهم عقلاء لا يستعملون ميزتهم الا في دقائق الامور وحرج الاوقات ، غير ان الامـة اذا ألحت في مطاليبها

واصرت عَلَى افكارها اذعن الاعيان لها دون تقعر او تنصل

ينتج من قولنا لا وراثة في الوظائف ولا ميزة لأحد من الناس في حكم الديموقراطية ان لكل فردٍ من الأُمة حقاً في المراتب والمناصب والوظائف ، الا انه يشترط في ذلك الاستعداد والكفاءة . هذا هو الحق والحقيقة التي لامراء فيهما

فالديموقراطية تطالب بالمساواة في الحقوق بين جميع الناس ولا تجعل الفضل الا لذوي المعارف والمكانة

اما ما يجري في تعيين الرجال للوظائف من المريدين وسعي من يلوذ بهم بالوشاية او بالتجسس عَلَى المتطلبين للوظائف فذلك عنوان عَلَى ضعفهم ودليل عَلَى حقارة امرهم وسفالة عواطفهم

ولا مشاحة في ان السعي للوظائف عَلَى هذه الصورة يحط من قدرها ويجعل فائدتها مضرة عَلَى الناس ، لان الوظائف والمناصب هيكل لجسم هذه الامة المتمدنة ، فاذا عرض له قرح طرأ الداء وفسد الجسم وتلاشت هيئة الامة بأسرها ، لا سيما اذا جرت الحكومة عليها في تعيين قادة الجند فتكون أسوء حالا واكثر ضرراً

لان غلبة الامة وسلامتها من شر الحرب يتوقفان عَلَى مكانة القادة ، فاذا انتخب القادة بسبب انهم من اتباع هذا الحزب او اشياع تلك العصابة ولم ينظر إلى استعدادهم الحربي نقلد زمام القيادة اسوء

والرجال ممن ليست فيهم فضيلة الزعامة ولا كفاءة القيادة واصبح رجال العزم والارادة والاخلاق العالية بمعزل عن هذا الأمر

هذا هو الخطر العظيم عَلَى الأُمة فارى من الضرورة ان اقول ان الجند لا يلبث أن ينهزم في ميدان القتال اذا تداخل في الامور السياسية وكانت غايته من وراء ذلك مزاحمة الاحزاب لا المحافظة عَلَى شرف العنصر والقيام بالواجب والمدافعة عن الوطن

عَلَى ان الجند إذا تشاغل في الامور السياسية اصبح ضربة قاضية عَلَى الامة يضرم الحرب فيما بينها

وبعد فان معالي الاخلاق ومباديء المساواة والعدل وحفظ كيان الحكومة تدفع ابناء الوطن الى ان يقلعوا عن الوساطة او الشفاعة في مسئلة تعيين اولياء الامر وان يقبلوا عَلَى وجدانهم يستشيرونه بتلك القضية قبل العزيمة

وقد يجب علينا ان نسعى في ان يوقن ابناء الوطن ان سعادة مستقبلهم تتوقف عَلَى استعدادهم واهليتهم وقيامهم بامورهم حق القيام وان تجعل العدل والحصافة ميزاناً عند انتخاب الساسة ، لان السلطة حق من حقوق الامة دون غيرها ومن كان كذلك فلا يسوغ لاحد من ارباب المناصب ان يجبره عَلَى ما يخالف ارادته

ولذلك وجب ان يكون انتخاب النواب حراً مطلقاً لانه

من الواجب ان لا يهتك حق المنتخب (بالكسر) فهو قاعدة الحكومات الديموقراطية ، بيد ان السعي بين الناس بالقول والكتابة في مسألة الانتخاب جائز اما الاكراه والارهاب والارشاء بالمواعيد والدنانير فمستنكر مذموم

إن ابن الوطن متى أُستقلت إرادته ورسخ عقله لا يلجأُ إلى هذه السفاسف ، بل يدافع عن نفسه وحقوقهِ دون ان يمس حقوق غيره ويجهد كل الجهد في معاضدة من لا ناصر له .

ذلك واجب من الواجبات تبعث عليه سلطة الأُمة لان الحقوق في الحكومة الديموقراطية إذا كانت شرعاً بين ابناء الوطن فالواجبات بخلافها تزداد كلما أزداد الرجل ادباً وغنى

ومن مباديء الحقوق المدنية أَن كل ابناء الوطن متساوون في القانون . ولذلك كان القانون المدني او الجزائي يدافع او يقضي على جميع الناس بدون استثناء مهما كانت مكانتهم وثروتهم ومناصبهم في هذه الحياة

فلا ميزة ولا استثناء لحزب من الاحزاب او لطائفة من الطوائف في « الحقوق المشتركة بين الناس »

ان هذا مبدأ لا تجوز مخالفته وقاعدة لا يستغني عنها في البلاد الحرة ، لان القوانين الشاذة التي تجرى لطبقة من الامة دون غيرها

او لرجل دون سواه انما تكون نتيجة الظلم والجور

فاذا تداعت الحكومة الديموقراطية الى ذلك وسلكت سبيل المراعاة والوساطة اصبح فيها الحق والحرية كلمات لا معنى لها ولا حقيقة فيها

فينبغي لنا ان نستمسك اشد الاستمساك بقاعدة مساواة الناس في القانون ونتوثق باصول العدل بين الجميع ، لان القانون متى كان يميل الى حزب او فريق دون آخر كان سيئاً في كل زمان ومكان ومستهجناً في زمن القرن العشرين زمن الحكومات الديموقراطية

واعلم ان كتابة المساواة في القانون غير كافية فلا بد من ان تجري المساواة فى المعاملات ، لانه ما الفائدة من القوانين العادلة إذا لم تجر الحكومة مجراها في المعاملات

ان القانون مختص تطبيقه بالقضاة وارباب الادارات

فالقضاة بين ايديهم حرية الناس وشرفهم وحياتهم واموالهم . واما ارباب الادارات فعليهم ان يمضوا على سنن قانون مصلحة الامة وقانون الشرطة والتعليم والضرائب والنافعة

فاول امر يحتاج اليه ابن الوطن في تطبيق القانون في المعاملات عدل القضاة واستقامتهم وحريتهم

اما ارباب الادارات الذين تكون علائقهم مع ذوي السلطان والقوة فليس بين ايديهم ولله الحمد حرية الناس ولا شرفهم ولا اموالهم ، مع انه قد يتسنى لهم في بعض الاحايين ان يخالفوا القانون ويضروا بمصالح الامة . واذا ظنوا ان لهم حقاً في الانضمام لبعض الاحزاب وفي التداخل بما يسميه العوام بالسياسة وليس هو الا من المضحكات فقد خالفوا مبدأ المساواة في الحقوق التي هي قاعدة الحكومات الديموقراطية وكانوا ممن يؤذون ويظلمون

فوجب علينا ان يكون لنا قضاة ذوو استقامة وحرية وولاة يسعون في مصلحة الناس ولا يتداخلون في تنافس الاحزاب بل يخدمون الامة دون انحياز إلى الاحزاب السياسية ولا هوادة

لان المساواة في الحقوق لا ينبغي ان تكون بين اوراق القانون بل ينبغي ان تراعى حرمتها ويجرى على سننها في المعاملات

الفصل العشرون

انواع الحرية

ان حقوق ابن الوطن كحقوق من بأيديهم زمام الامر تنحصر في هاتين الكلمتين : مساواة وحرّية

وقد فصلنا عن المساواة امراً وقلنا انها تجعل كل رجل من هذه الأُمة مساوياً للآخرين وصالحاً للقيام بجميع مناصب الحكومة بدون تمييز بين أحد من الناس وتدع كل أبناء الوطن عَلَى مستوى واحد لدى القانون وتخصهم بواسطة الانتخاب بشطر من ادارة اعمال الحكومة وحركة مصالح البلاد

اما الحرية فقد سجّلت في لائحة «مناداة الحقوق» مع الطمأنينة عَلَى النفس وحق التصرف بالاملاك وأُنزلت منزلة حق لازم للانسان . وما الحرية السياسية الا تتمة للحرية المدنية التي تكلمنا عنها في فصل سابق من هذا الكتاب

لاتكون الأُمة حرّة في الحقيقة الا اذا تمتعت بالاثنتين : الحرية السياسية والحرية المدنية . قال بوسويه (افصح فصحاء الفرنسيس ١٦٢٧ — ١٧٠٤) في خطابه « التاريخ العام » : « ان

الرومان واليونان كانوا يعتقدون ان الحرية تفيد ان لاطاعة الا للقانون وان لاسلطان اقوى منه تأثيراً »

ان هذا لهو الحق لان الحرية لاطائل تحتها اذا لم تكن السلطة للقانون او كان قسم من القانون لايجري عَلَى ولاة الامر

فغلبة القانون عَلَى الاهواء شرط لازم في وجود الحرية، عَلَى ان ذلك غير كاف ، فانه يجب ان تكون القوانين عادلة حرّة لانحاز الى فريق بوجه من الوجوه ولا تضغط عَلَى طائفة من الناس ولا تبهظ فريقاً آخر بل تخلّي السبيل لجميع ابناء الوطن كي يعملوا ما لايضر بالناس ولا يمس راحتهم

وللحرية السياسية شعب نذكرها : حرية الفكر والمعتقد وحرية القول والكتابة وحرية النشر وحرية الاجتماع وحرية تأسيس الجمعيات

اعني بذلك ان للناس الحق والحرية في ان يعتقدوا بما يشاؤن، ويقولوا مايريدون ، وينتقدوا ساسة الامر بشرط ان لايدفعوا الناس الى ارتكاب الجرائم ولا يهتكوا حرمة الادب بان يتخذوا الافتراء ديدناً والنميمة دأباً ، وبعبارة جامعة ان لايجترحوا ما يمس بالحقوق المشتركة ، وان يقولوا ويجتمعوا بكل سكينة دون ان يبرموا احداً ، ويكتبوا وينشروا ما يكتبون عَلَى اية صورة ارادوا ، لانه ان سقطت حرية الاجتماع والمطبوعات سقطت الحرية السياسية

واما حرية تأسيس الجمعيات فلا تكون منزلتها الا بعد ما تقدم وان كانت في مكان عظيم، لانها تضر في الامم التي لم يكمل تهذيبها الوطني

وقد يستغنى عن جميع ضروب الحرية اذا كانت تضر بمصلحة الامة

وهكذا الحال في حرية امور المعاش كالسعي والانتاج والمتاجرة والكسب والتملك فان لها حدوداً

ان حرية السعي حق فطري يحفظه القانون والجند من كل المخاطر في الممالك المتمدنة، فهي نتيجة الحياة لانها تبعث الانسان على السعي للقيام بحاجيات الأسرة

اما الاعتصاب الذي هو انقطاع العملة عن عملهم فجائز شرعاً الا انه سلاح مخطر على الذين لا يعلمون كيف يستعملونه . ولكنه الواسطة الوحيدة لتحسين امور العملة وزيادة أجورهم ، فمن اراد ان يأتيه وجب عليه ان يكون مقتدراً على الانقطاع عن العمل ، وليس لاحد ان يكره من لا تسمح لهم الاحوال بان ينضموا الى الاعتصاب لأن في ذلك مسيساً لحرية السعي

ومما يجب على الحكومة ان تحافظ على حرية السعي لاسيما في الصناعات فانه يجب عليها المحافظة على العامل فتجعل توازناً بين استطاعته وعمله

فقد صرّح القانون بوجوب ترتيب العمل في الصناعة وجعل حدوداً للحرية فرفق بالعملة العجزة والنساء والاولاد الذين لايصلحون للعمل

ولذا وجب ان نراعي في الصناعة قوة العملة والنسل الذي ان افرط في العمل او اندفع اليه دفعة واحدة اضمحل وتلاشى وننظر فيما تحتاجه الصناعة وما تتطلبه منافسة البضائع الأجنبية التى تقضي ان تكون المبيعات بابخس الاثمان

فلو لم تكن الصناعة في حاجة الى العمّال لوجب ان لايعيّن عدد النساء في المعامل بل يمنع عملهن فيها بتاتاً ، لأن مركزهن المنزل حيث تدعوهن التربية وحاجيات البنين وان السعي من خصائص الرجل لا من خصائص المرأة ، فعليه ان يعيل أسرته وبنيه وعلى المرأة ان تلازم البيت وتدأب حتى تجعل فيه رغد العيش وطيب الحياة

الاّ ان القانون لايمكنه ان يسجل هذه الواجبات بين اوراقه ، لان احوال المعاش لاتسمح للناس باتباعها وان للحياة خوارق لابد منها واحوالاً لاتحويل عنها ، ولكن علم الاخلاق يسجل تلك الواجبات ويتخذ له قاعدة مطّردة وهي حجز النساء عن التعاطي في المعامل ، ويجعل للحرية حدوداً اذا كانت السيئات من نتائجها

هذه حرية السعي فان لها حدوداً سنت لوقاية العملة وكذلك الصناعة والزراعة فان لهما حدوداً لوقايتهما من التأخر والانحطاط بواسطة المكوس (الجمارك) القائمة عَلَى تخوم البلاد ، فانها تمنع دخول بعض نتاج الاجانب وتضاعف سعر مصنوعاتهم ومزروعاتهم ولو كانت هذه الوقاية تخل بحرية المبيعات وتجعل موانع عظيمة للتجارة

غير ان البلاد متى كان نتاجها من وراء الغاية وكان اهلها عَلَى جانب عظيم من الاخلاق الاجتماعية يقومون بالشركات القوية المتينة ولا يحاذرون مزاحمة الاجانب أَمنت عَلَى اهلها من الافراط في السعي ، فيكسبون و يعيشون عيشة راضية في فضاء الحرية. ولكن ذلك تصور نحن بعيدون عنه كل البعد فان كل ابناء الوطن يعلمون حال امتنا الحاضرة ومبلغ قوتها وضعفها وما يصيبها اليوم من الترقي وما ينتابها من الخسران بل من الموت . فالحرية التامة في السعي لاتبلغها امة مطلقاً

اما ما يختص بحق التملك و بعبارة ثانية بحرية الكسب والتصرف بالاملاك فاحترام ابن الوطن لها لايقل ضرورة عن احترام حرية السعي لان حرية الكسب نتيجة حرية السعي

فمن اشتغل ليستفيد استفاد وكلما اعمل الرجل ذكاءه وهمته

في عمله كان له الحظ الاوفر من الاستفادة فثمرة سعيه راجعة بالطبع اليه يصرفها من فوره ان شاء او يدخر قسماً منها و يصرف البقية الباقية

ومتى حفظ هؤلاء المستثمرون المقتصدون تلك الاثمار كانت لهم رأس مال وملكاً يتصرفون بهما . وقد كفل القانون حفظ هذا المال للمالك لانه شرعي يفيد مصلحة الامة ، عَلَى ان محافظة الاملاك والطمأنينة عَلَى النفس كانتا سبباً في تكوين الامم الاولى

ولذلك انزل مجلس الامة الافرنسية سنة ١٧٨٩ امر التملك منزل كرامة لما نادى بحقوق الانسان على رؤوس الاشهاد فجاء في المادة الثانية ان « غاية كل حكومة محافظة حقوق الانسان وهي الحرية والتملك والطمأنينة ومقاومة الظلم » ثم جاء في المادة السابعة عشرة من قانون حقوق الانسان ما يأتي: « بما ان التملك حق مقدس لا تباح حرمته فليس لاحد أن يُحرم منهُ احداً الا إذا الجأت الضرورة وشاهدتها الأمة فتتصرف الحكومة باملاك الرجل بشرط ان تعوض عليه — ما قد خسره — بالعاجل عَلَى وجه العدل »

بالله عليك اية حرية للرجل اذا لم يتمتع بحرية التصرف باملاكه؟

— اجل ان حرية الذهاب والاياب وحرية القول والكتابة والاجتماع وتأسيس الجمعيات تتوقف عَلَى مكانة ابن الوطن وصلاح اعمال الأمة . ولكن الحياة والطمأنينة عَلَى النفس حق عظيم مهم للرجل

فاذا حرم الرجل من هذا الحق وفقد حق الادخار كانت حياته قصيرة يتهددها الحدثان ، لان الانقطاع عن السعي بتاتاً كان او موقتاً والعجز والمرض اسباب تفضي الى الموت اذا لم يقتصد الرجل ولم يدخر قسماً من ثمرة اتعابه ولم يكوّن رأس مال لنفسه

و يفهم من حق التملك حق التمتع والتصرف بالاملاك فيجوز للرجل ان يبيعها او يعيرها من غير عوض او مقابل أجرة او فائدة او ان يهبها وهو في قيد الحياة او يوصي بها بعد مماته لأناس آخرين

وليس لاحد من الناس ان يوصي لأحد الاَّ بالربع اذا كانت له أسرة والباقي يوزع عَلَى الذرية

واعلم ان رأس المال اداة لنجاح الهيئة البشرية ولذلك لم تتحسن احوال البشر عَلَى وجه الارض الا حينما ابتدأ الآباء يدخرون مالهم القليل للذرية فازدادت وسائط الدفاع في هيجاء الحياة ووسائل الكسب والانتاج

ان رأس المال الذي يستعمله ابناء الوطن في الصناعة والزراعة والتجارة فينمو ويكوّن رأس مال آخر اداة رئيسة لزيادة ثروة الأُمة، ولهذا وجب ان ينشأ في نفوس الأُمة حب السعي وروح القيام بالمشاريع وان يكون بين ايديهم رؤوس اموال مدخرة تخصب بها همتهم فيبيتون من ورائها عَلَى رغد وطيب من الحياة

وقد وجب عَلَى الحكومة اذ تطلب من الناس قسماً من دخلهم للقيام بأود الجند والدوائر الرسمية وعمل المصالح العامة والاعمال النافعة ان تهتم بان تجعل ما تصرفه صالحاً للانتاج

وعليها ايضاً ان تزيد في رأس مال الأُمة وذلك بتسهيل المواصلات لنقل البضائع باثمان زهيدة كأن تحد الارض بالسكك الحديدية والطرق المعبدة وتصلح الانهر لسير البواخر وتشيد المرافئ عَلَى الثغور وتتوسل لنمو الاحراج

فرأس مال الأُمة وسيلة للمعاش يساعد حق المساعدة عَلَى الانتاج وما انتاج الأُمة الاَّ نتيجة رؤوس الاموال الخاصة فالحكومة مدينة بتنميته لابناء الوطن

وما دام البشر حسب ما انزلتهم سنة الوجود وسنة الترقي فحرية السعي وحق التملك — وكلاهما زوجان لا بد منهما — قاعدتان لكل حضارة ومدنية

ان هذه حقوق لازمة للانسان، تلوح عليها آثار الحرية المدنية اكثر من الحرية السياسية ولكنها تعلق بهذه الحرية من جهات متعددة ولها مكانة عظيمة في النظام الاجتماعي بحيث رأيت من المفيد ان اقول عنها بضع كلمات في هذا الباب

الفصل الحادي والعشرون

التعليم

أعلم انه يجب على الابوين نحو الولد احياءه وتربيته واعداده لأن يكون رجلاً شريفاً يتدرع لمعمعان الحياة ووطنياً شديداً يفيد دعامة الدولة، فيعلمانه ويعنيان بتربية جسمه، ويهذبانه بقدر مايخولهما الاستعداد وذات اليد

ولا بد للحكومة التي من شأنها ان تنظر في مصلحة الامة وتدأب في مستقبلها أن تعنى بالولد رجل المستقبل وابن الوطن فلا تجيز للآباء ان يتسللوا مما يجب عليهم نحو الابناء، بل ينبغي لها ان تضطرهم على أن يقدموا لهم القوت الضروري و يعلموهم مبادئ العلم التي لولاها لكان الابناء احقر الناس في محيط هذه الحضارة

ومما يجب على الحكومة وجوباً عينياً أن تطلب من الولد ان يتعلم ما تعتبره اقل المعارف الضرورية، فتفرض على رب الأسرة ان يعلم ولده بنفسه او بالواسطة تلك المبادئ الاولى وزيادة على الطريقة التي يستحسنها، فالعلم ليس له الا طريق واحدة اما التعليم فطرقه متعددة

يجب أن يأخذ الولد وهو قائم بين أسرته بتلابيب التهذيب والعلم فتكمل حياته الاولى حتى إذا بلغ اشده تخرّج في دروسه العليا عَلَى اساتذة خاصة او ذهب إلى العمل في الزراعة او في الصناعة او في الادارات المختصة بالامة خارج البلاد

وتتكفل الأُم بتلقين ابنها مباديء العلوم ويدرسه الوالد عند الفراغ كتب المدرسة ويأخذ بيده كلما استطاع الى حيث يريد ويطلعه على شؤون حياته وصناعته فيزيد عَلَى نظرياته العلمية تجارب وتمارين لاتضره بل تفيده فائدة كلية

نعم ان هذه حياة خيالية تتقاضى شروطاً قلما يتوفر الرجل عليها لاسيما في المدن حيث لاتتخذ قاعدة يركن اليها

عَلَى ان تعليم الأُم للولد ممكن في اول نشوءه اللهم للأُسر الغنية فيترعرع الطفل صحيحاً بجسمه واخلاقه ، لانه يترفع عن مخالطة الابناء الذين كثرت ادواؤهم ومعايبهم ، ومتى اصبحت الأُم مهذبة لاولادها تمكنت سلطتها عليهم وأخذت من قلوبهم شطراً كبيراً يعلق في حبها ، ومن اجل ذلك وجب عليها ان تنقطع عن بعض الناس وتناهى عن بعض الملاهي .

حتى إذا حان الوقت ذهب الولد وبحث عن العلم الضروري لحياته خارج المنزل حيث سهّلت الحكومة ذلك بان فتحت في كثير

من القرى ابواب المدارس الابتدائية فيدرس القرأة والكتابة والحساب والتاريخ والاخلاق لاسيما اخلاق الرجال العظام وحب الوطن

ذلك تعليم المدارس الابتدائية فعلى كل الابناء ان يلازموها، واذا احب الرجل ان يعلم ابنه بذاته فله الخيار ولا يجوز ان يجبر على تعليمه بتلك الصورة او بهذه الصورة، فللرجل الحرية كل الحرية في تعليم ابنه الاَّ حرية الجهل

ان أُمة العمال خير من امة البيان لانه يمكننا ان ننفي طائفة البلغاء دون ان نحط من مكانة الامور العقلية في الأُمة

و ينبغي ان نعلّم من النابتة ما يحتاجون اليه من العلم العملي دون ان نهمل النظري مَن لاتحتاجهم أسرهم او من يستحقون بمواهبهم الخاصة ان يتعلموا على نفقة جمعية او مدينة او ولاية او حكومة

فالعلم الصناعي اذا كثر انتشاره وقام مقام بعض العلم النظري في المدارس لايمنع الكليات العظمى والمدارس العلمية من المثابرة على ترقي دروسها الى اعلى درجات الكمال .

هذه هي المدارس اداة نجاح العلم الذي تستند عليه الحضارة الحديثة فاية أُمة تعلّم بعض افرادها استفاد مجموعها ولولم يكن المجموع

عالماً وقد قال اراغو (احد علماء الفلك الفرنسيس ١٧٨٦—١٨٥٣):

« للمنفعة التي تأتي عن طريق العلم اصول اكثر تملكاً واشد تصلباً واطول تمدداً في الأمة من المنافع التي تأتي عن غيره »

والحوادث تؤيد في كل يوم قول هذا العالم الشهير

و بعد فقد وجب عَلَى الحكومة ان تبني المعاهد العلمية الكبرى لتعليم ابناء الامة وتسهيل الاكتشافات والاختراعات كما وجب عَلَى ابن الوطن ان يعين عَلَى ما في وسعه انماء العلم باية صورة كانت وان يسعى وراء انتشاره بذاته او بتعليم ابنائه او ببذل امواله

ولسنا في حاجة لنقول ان المدارس الحرة تفيد الأمة فان مدارس الحكومة لاتفي بالحاجة فنحن نتمنى ان يكون بين الفريقين تنافس لان التزاحم داعٍ للسعادة وما من أمة تراخت عن المنافسة والمزاحمة الا وتداعت الى مجاراة العادات القديمة واسترسلت الى غير المعقول من التقاليد

فالمنافسة الحرة ضرورية في كل مكان والحرية صالحة في كل مكان وما حرية التعليم الا نتيجة حرية القول والكتابة

ولا ينبغي ان تترك حرية التعليم في مدارس الاطفال دون مراقبة الا حرية المعلمين الذين شهد لهم الناس باستعدادهم

وكرم اخلاقهم

فحرية التعليم ضرورية للأُمـة بحيث يجوز لكل فرد ان ينظّم ما يشاء من اصول التعليم لمصلحة هذه الأُمة وليس لأحد ان يمنعه او يحظر عليه عمله باية صورة كانت وتحت اية حجة اتخذت .

الفصل الثاني والعشرون

التعاون وتدارك البؤس

تنحصر واجبات الحكومة وحقوقها وواجبات ابن الوطن وحقوقه في كلمتين من شعار الأُمة وهما : الحرية والمساواة ، وقد افضنا فيهما

اما الكلمة الثالثة واعني بهـا الاخاء فيفهم منها واجبات وحقوق أُخرى .

تدل كلمة الاخاء ان بين ابناء العنصر الواحد واهل البلد الواحد رابطةً الطف معنىً واشد احكاماً من رابطة الدفاع عن الوطن ومصالحهِ وكرامة حقوق الناس، لانها تتكون من علائق تاريخهم المديد وشرف اجدادهم واجتماع مصائبهم واستمساك تضامنهم الذي جمع ملايين من الناس تحت ظل أُسرة واحدة . فكل فرد من هذا الوطن اخ لابنائهِ تجب عليهِ واجبات نحوهم كما تجب عليهم واجبات نحوه .

ومتى كانت الأُمة بمنزلة اسرة واحدة كما اسلفنا وجب التعاضد والتعاون في حرج الاوقات وايثار المعوزين على انفس من استطاع

الى التعاون سبيلاً ، لان الاخاء يتطلب ان تكون الأُمة بهذا القدر من التضامن والتعاون .

يتحتم واجب الاخاء عَلَى الفرد وعَلَى الجماعة فيجب عَلَى كل فرد ان يرمي بذاتهِ إلى درء مصائب الأُمة ويعمل عَلَى ازالة بؤسها بما لديه من الوسائل المادية والادبية ، و يجب عَلَى الجمعيات الخيرية واهل القرى والمدن والحكومة أَن يسدوا ما نقص من تدارك بؤس الأُمة ان قصر الاحسان الافرادي ان يقوم بهِ ، لان معاضدة الضعفاء والفقراء واجب من الواجبات الوطنية .

جاء في بيان مجلس الأُمة الافرنسية سنة ١٧٨٩ ميلادية « ان التعاون بين ابناء الامة دين مقدس » وجاء في دستور تلك الأُمة ما يأتي : « يشيد معهد عام للتعاون فتربى فيه الاطفال الذين تركهم ابواهم وتخفف فيهِ المصائب عن الفقراء العجزة ويهيأ فيهِ العمل للفقراء الصحاح الذين لايستطيعون ان يجدوا عملاً » .

فخلف مجلس تلك الامة رجال حسبوا ان العمل بموجب هذا المعهد الوطني معهد الاحسان والتضامن بين افراد الأُمة صعب لايمكن ان تتناوله مقدرتهم ، فخرضوا الناس عَلَى تأسيس معاهد التعاون والتضامن الاهلية لانهم لايستطيعون ان يقيموا معهداً عَلَى نفقة

الحكومة، فضربت في البلاد المسكنة الهائلة ووقعت الحوادث الاليمة عَلَى كثير من الفقراء . فذكّر بهذا الخطأ فإن الذكرى تحفظنا في الوقت الحاضر من الوقوع فيه مرة ثانية

واعلم ان الحكومة لا تعين الافراد الا اذا قصرت أسرهم عن ان تقوم بواجب كفالتهم او اذا انقرض اهلوهم او اذا كان الاحسان الافرادي ومعاهد التعاون الاهلية لا تكفي مؤنتهم

و يفهم من واجب الاحسان الافرادي ان الفرد مضطر لأعانة أسرته وعشرائه فيعين ذوي قرباه اذا كانوا معوزين و يأخذ بمعونة الذين يعرفهم من الناس اذا اختطف الموت اهلهم او اصابهم مرض او عجز عن القيام بشؤون الحياة، كل ذلك عَلَى قدر دخل الرجل

ومتى قام بذلك الافراد وجبت عَلَى الحكومة وظيفة كبرى بحيث ينبغي لها ان تسعى في ان تبث روحاً وطنية بين مبادىء التعاون وقوانينه وواجبات الجمعيات الخيرية نحو الافراد، لان المبدأ الذين ينبغي ان يسود بين تعاون الجماعة وتعاون الافراد هو الاخاء بين الناس والتضامن الوطني بين افراد الامة . فيقضي الاخاء بان يعين الفرد وتنصر الجماعة من يرزح في القرى او في المدن تحت اعباء الحياة او من كان يتيماً او مريضاً محتاجاً او فقيراً عاطلاً اوعاجزاً او شيخاً لا يستطيع ان يكفي مؤنة نفسه .

ان اعانة هؤلاء التعساء والمغلوبين عَلَى امرهم في حياتهم دين عَلَى ابن الوطن وعَلَى الحكومة . ومن ثم سنت قوانين التعاون والتضامن فكفلت البنين الذين مات ابواهم او رثّت حياتهم ، وكفلت المرضى الفقراء بما قررته من المعونة الطبية المجانية ، وكفلت العجزة والشيوخ بما انشأت لهم من الدور وملاجيء الاحسان .

امر معونة المساكين دقيق جداً لانه يجب ان نخشى من الشر في ارادة عمل الخير . نعم يجب ان نسعى بتخفيف المصائب وتدارك البؤس عن الامة ولكن علينا ان نحذر كل الحذر ممايشوّق هؤلاء الى ارتياد البطالة والكسل

العمل اداةٌ ضرورية للرجل وسنة مقدسة اجتماعية للامة، ولولا وخز الحاجة لوجدنا كثيراً من العطّل في الامم ، وبعد فقد ينبغي لنا ان نحذر من دفع العملة الى البطالة فنخسر ما ينتج عن ايديهم من الفوائد للامة فيما لو اعملوا قوتهم، بل الخسارة كل الخسارة فيما يخلص عن ايديهم من المضرة لو كانوا عطّلاً ، لان البطالة والكسل مبعثة للرذيلة ، وكثيراً ما تدفع للجريمة . ولذلك وجب ان نعين العملة ايام البطالة الشرعية بتمييز دقيق ومعرفة من البيئات والاشخاص والامكنة

عَلَى انه ولو لم يكن من اعانة هؤلاء المساكين مخاطر جسيمة فقد يجب ان نتعاون لتدارك امرهم بكل احتراس ومراعاة بحيث لا يشعر

المحسَنُ اليه بالاهانة ، لان الاحسان إلى المرء ينزع من نفسه روح العهدة الذاتية والمكانة الشخصية

ان الفقير اذا علم كيف ينزلُ تقديرَ حياته و يستدرك امور معاشه تمكن من الحياة دون خوف الا اذا عرضت له حوادث فجائية

واعلم ان لملاجىء تدارك البؤس وجمعيات التعاون وصناديق التوفير وضمان الحياة فضيلة كبرى الا وهي انهـا تعلم الرجل عَلَى التضامن الافرادي بين الناس الذين يتعارفون ومن ثم يشعر بوجوب تضامن الجماعة او الامة

وعدا عن ذلك فانها تحفظ الرجل من ان يقع في حادث اليم من حوادث الحياة ولا يسعنا الا ان نستفز العملة الذين يعيشون عَلَى ساذج من العيش الى تأسيس هـذه الجمعيات الخيرية جمعيات التعاون فيكفلون بها راحة انفسهم في حياتهم و يحفظون منزلتهم بين الناس كحفظ منزلة الاحرار

ومما يجب عَلَى الحكومة والاهلين في هذا الباب ان يأخذوا بنصرة هؤلاء العملة ويمدوا اليهم ايدي المعونة، لان مركزهم الاجتماعي وثروتهم ترفع بهم الى ما فوق هذه المخاطر التي تتعرض لها جمعيات التعاون ، ومن واجباتهم ايضاً ان ينخرطوا مع ابناء وطنهم الفقراء في

هذه الجمعيات فيشاركوهم بعواطف الاخاء وافكار التضامن

وكلما ترقت دور تدارك البؤس استفادت الامة وتأيد الاحسان ، وعدا عما ينتج من هذه الملاجيء من الفوائد المادية تنتج فوائد ادبية عظيمة جداً ، لانها تعلّم الناس مطالب الديموقراطية بحيث تتفهم الامة ان لاصعب مع الجهد والوكد والارادة والانتظام ، فتتخذ شعاراً لجميع افرادها

عليكم بالتحابب والتعاون ، ومن ثم عليكم باحترام هذه الدور والاعتراف بالجميل لهذه الملاجيء فانها تخفف عن الانسانية بؤسها وعن الامة شقاءها

الباب الرابع

الوطن

الفصل الثالث والعشرون		حب الوطن
: الرابع	:	السفسطائيون
: الخامس	:	هذه الأُمة
: السادس	:	قوى الوطن
: السابع	:	الحرب
: الثامن	:	الجنس البشري

الفصل الثالث والعشرون

حب الوطن

اعلم ان اول واجب على المرء نحو امته حب الوطن واكرام الوطن والسعي وراء مصلحة الوطن

فحب الوطن في هذا القرن فرض عين عَلَى كل رجل من الامة ورث عن آبائه مجداً أثيلاً ، واتى عَلى حاضر تكدر صفوه، وجابه مستقبلاً خفي كنهه

حب الوطن فضيلة ترأس الفضائل لا سيما ايام يستفحل الضيق عَلَى حياة الامة . فمن لم يخامر اقصى عظمه وحبات قلبه وحجيرات عقله حب الوطن كان رجلاً ساءت وطنيته وفسدت مروءته وابنا غير خليق بامة عظيمة هو من نسلها

عجبت للسفسطائيين يلبسون ما وضح من الحقائق ويشبكون ما سلس من المباحث ، حتى كان من الضرورة ان اكثر والح فيما وجب للوطن من لاعج الحب وشديد الهوى وخالص الغيرة ، امور مثل من يكشف عن ضرورتها مثل من يبرهن ان الشمس طالعة والهواء نافع

الا يشعر الرجل بحب الوطن قبل ان يوحي به العقل ؟

— نعم يرى المرء من تلقاء نفسه انه مسوق لحب الوطن عن غير علم بالاسباب ، وذلك مما يثبت ان حب الوطن غريزة مغروزة وجبلة مفطورة تتكون منذ ظهور المرء الى حيز الوجود ، وتعظم وتجسم كلما عظمت النفس وكرمت

فحب الوطن ، ايها الفتيان ، غريزي في النفس قبل ان تفكر فيه النفس

الوطن وما ادراك ما الوطن !

الوطن كلمة رقت لطفاً وعظمت شرفا ورنت في الاذن رنيناً يردد معنى الحب والاخلاص والقوة والسؤدد وبذل المهج

فما في القلب من نبل العواطف وكرم الاخلاق الا وينضم تحت كلمة الوطن ، وما من كلمة تجاري الوطن في هذا المعنى أو تحاكيه في هذه الخلة الجليلة ، فقد يشمل ما يجب من العواطف للأسرة وزيادة ، لان كلمة الوطن تدل على الاسرة وعنصر الامة وتاريخ العنصر ومبلغ قوته وجميل أحدوثته

الوطن كلمة لا تفتأ ترن في الاذن يمناً وكرماً حتى تبعث الناس في بعض الازمنة والامكنة الى اغر يراق الدمع حنيناً اليها وحفاوة بها

الوطن وما ادرك ما الوطن !

الوطن ما للمرء وما يحيط بالمرء وما يسكن اليه المرء وما تقوم

به الحياة ، حياة الذات والاسرة والامة التي نعتصم بها اشد الاعتصام

الوطن ذلك الهواء والارض التي كانت تحت ايدي الاباء

الوطن تلك السماء الزرقاء التي تعلونا وتلك الارض الخصبة التي نعلوها

الوطن تلك الارض المباركة تحتاطبها البحر و يسقيها تدفق انهر

الوطن تلك الارض التي صفا جوهرها واعتدل أقليمها وطاب عنصرها و كفلتها رحمة الله بخيراتها ولا كفالتها لبقية البلاد

الوطن تلك البلاد التي يعيش بها رجال الامة احراراً لا يضامون ، يتكلمون بلغتنا و يذعنون لشرائع هم سنوها ووجوه هم حددوها ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا

الوطن تلك الامة المقدامة التي ابدت بين تضاعيف القرون ذكاءها و بأسها واحسنت لبني الانسان ماليس يحسنه غيرها ودلت الارض على آثارها

الوطن مجد لنا سالف واستقلال حاضر وامل عظيم بمستقبل حميد

الوطن وما ادراك اما الوطن !

الوطن هو تلك الامة التي نبلت حسباً وتعززت شوكة ومهابة

الوطن تلك الأم نعم انها الام و ينبغي لنا ان نحبها كحب

الامهات نفديها بالمهج قبل فداء الاباء ، لان هؤلاء لم يستمدوا الحياة الا كما استمددناها من فضلها وجميل عائدتها ، فعلينا ان نشعر قلوبنا حب الوطن قبل حب الابوين وقبل حب كل عزيز ، لان حب الوطن يعلو حب كل امر وكل امريء

حب الوطن واجب يوجبه الف سبب من الامور المحسوسة والمعنوية يجدر بالذكر اهمها الا وهو : الوطن ام ونحن ابناؤها

على انه قد يحسن تعداد ما للوطن من الجمال والصنيعة والمجد ، الا ان ذلك لا يكون داعياً لحبه واعزازه . بالله عليك هل تحب أمك لجمال فيها او بهاء او لطف او خلة غير هذه الخلال ؟ — تحبها بانها أمك وكفى بذلك موجباً يدعوك الى ان لا ترى احداً يماثل شاكلتها

كتب هيغو سنة ١٨٧٠ م ايام اغار الالمان على فرنسا قصيدة عنوانها « خيار بين امتين » فقال فيها للالمان ما رآه فيهم من المحاسن والبدائع فارتفعت كلمته وتسامت بلاغته . ثم التفت الى أمته ولم يهتف لها الا صيحة واحدة « واماه ! » فتم له الخيار وفي الحقيقة لم يتم ، لانه ليس من اليسير ان يقابل بين الامتين فان احداهما امة يبحث عنها فتمدح او تذم ، والاخرى هي الوطن والام ومن كان كذلك فلا يقابل كما اسلفت مع امر او امريء ، فالوطن ، ايها الفتيان ، له حاجة قبل النفس في الحب والاكرام والاخلاص وحق معلوم

في حياة البنين

الا وان حب الوطن كبر الوالدين ، فأكرم البررة بين البنين اشدهم حباً بينهم

ما أعز الاوطان عند أناس نبلت في قلوبهم عاطفات

من الناس ثلة خبثت عواطفهم ولم يداخلهم حب الوطن فاولئك مثلهم مثل من لا يحب ابويه

وأعلم ان حب الوطن يوجب عَلَى المرء واجبات اشرف منزلة وابعد غاية واثقل عباً من كل واجب ، فمن وقع في نفسه ان يتنصل منها سراً او علانية كان من ذوي العواطف السيئة الذين نزعت من انفسهم محبة الامة . عَلَى انه ما من رجل عرف واجبه يفكر في نزعها ولا من ذي بصيرة نيّرة الا ويميز تلك الجنة السوءى

واجب الوطن واجب يتحتم عَلَى المرء قبل كل واجب فله الأمرة عَلَى النفس وبه حفظ الأمة التي إن اندرست اندرست الأسرة معها والفرد ، فواجبه واجب ايها الناشئون ، لا غالب له ولا كفء ، ان تنازع مع آخر ظهر عليه

وغير خاف ان نتيجة الحب السعي وراء المصلحة ، فمن احب وطنه حق عليه ان يزوي عنه كل رزية او بلية ، ويخلص له ويصوب العزيمة والإقدام في القيام بمنافعه ومرافقه

قال مونتسكيو « لاتنهنه المرء عن الطمع في عهد الديموقراطية إلا الرغبة والتلذذ في خدمة الوطن باكثر ما يرغب الآخرون » ثم قال « إن المرء يستدين من الوطن عند الولادة ما لا يتسنى له أن يوفيه الأبد » فعلينا أن نبالغ جهدنا في ايفاء ذلك الدين ايام تقع طائرة الفتن، وان نوالي القتال بهمة بليغة و بأس شديد ، حتى يأتينا اليقين ايام تذكي الحرب نارها . وقد ينطبق على كل رجل من هذه الامة ما قاله الشيخ هوراس في ابنه

هو مديون ولا فخر له بدماه كلها للوطن

فاقرأوا ، ايها الفتيان ، تلكم المأساة الفريدة مأساة قورنيل ورجّعوا فيها واديموا النظر ولا تخثروا واشربوا قلوبكم حب الوطن الذي ترونه في مشاهدها ، انه حب لاعج نهض الرومان به من رقدتهم واستكبروا في الارض استكباراً . تلكم مأساة يصور ممثلوها تمثال العجب وروح الاعجاز و يكشفون عما يجب على المرء للوطن بشعر لا يجاري إلا أنه جرى مجرى المثل . أذكر منهم هوراس ولو كانت ملوءة الفاظه خشونة واعماله غلظة، وقرياس خطب كاميليا الرقيق المقدام إذ يندب سوء طالعه و يمضي إلى حيث يدعوه الواجب و يناديه الموت ، والشيخ هوراس ذلكم الوالد الجليل الذي لا يطمئن الا الى المجد ولا يدين الا للشرف إذ تأنف

فيه العظمة وتأخذه حمية الرومان ثم حنين الوالد على الولد

اولئك ممثلون يوضحون ان لا طاعة لداعٍ اذا نادى منادي الوطن ، وان لا بقاء لشيءٍ اذا ركبته الجوائح او ارهقته الفوادح

فينبغي لدى الذود عن حياض الوطن والذب عن شرفه ومنافعه ان نزايل كل امر من مصالح الذات ومرافق الأسرة وعواطف الحب

لان واجب الوطن متى دعانا تسقط بجنبه جميع الواجبات فنستسهل فداء الارواح و بذل المهج عن طيب خاطر وانس قلب ، ولا غرو فقد كانت آباؤنا تترنم بقولها « الموت في سبيل الوطن امر جميل » . ونحن على يقين اننا سنموت في يوم لا بد منهُ ولكن ساعات الموت الجميلة قلائل بحيث يجب فداء الارواح في ميادين القتال حيث يتخوف على حياة الامة وعظمة الوطن

بيد انهُ يشق على الاباء و يعز على الامهات فداء مهج البنين حين يبلغون مبلغنا من العمر و يريقون في سبيل الامة دماءهم لا دماءنا . لا بأس دماؤهم او دماؤنا فان هدر الدماء واباحتها واجب تتم بهِ السلامة للامة ، فينبغي ان نذعن لذلك بدون شكوى ولا بكاء

(خلقنا رجالاً للتجلد والاسى) وتلك نساء للبكا والمآتم

ولا عار على النساء ان بكين فان قوة حب الوطن فيهن ليست كما هي في الرجال ، ولذلك لا يتمكن حب الوطن من ان

يتألب عَلَى عواطف الام او الزوجة

ومما ينبغي للرجل ان يكون حب الوطن وواجب الوطن عظيمين لديه بحيث يندفع الى فداء اعظم شيء معزة عليه فيوا في ببنيهِ الذين علقوا في اعلاق قلبهِ الى عرصة القتل والموت استنصاراً للامة وحباً باعلاء كلمة الوطن ، يراهم يعمدون للقتال وهو ناقع القلب من اقدامهم ، مبرود الغليل من شجاعتهم ، عَلَى غبطة من شأنهم ، وغيرة من حظهم ، اذا العمر لم يسمح له ان يصافهم .

ان الموت ايها الناس في سبيل الوطن وفداء البنين لاجله واجب في حرج الاوقات وضيق الاحوال حين يحمى وطيس الحرب . واما ايام الدعة والطمأنينة فقد يتقاضى الواجب فضيلة أحط من هذه مرتبة واقل من هذا الفداء قساوة ، الا انه يجب علينا ان نتطبع سواء ايام الحرب او ايام السلم عَلَى تلك الفضيلة وذلك الفداء

بل عَلَى كل رجل من الوطن ان يصرف همه ويجعل قرة عينه في مصلحة الوطن و يرغب عن مصالح ذاته ورغائب نفسهِ ومطامح قلبهِ امام مصلحة الامة ، ولا يؤثر عليها شيئاً ولو كان ايثاره جائزاً ، بل عليهِ اذا كانت له يد في الاحزاب السياسية ان يتحرز من مضلات الفتن و يصدع قيد القانون اذا رأى فيهِ ما يجر عَلَى الوطن شراً و بيلاً كما كان غبمتا (احد ساسة الفرنسيس ١٨٣٨ — ١٨٨٢)

ذاك الذي كانت حروب السياسة تستفزه ، محباً لوطنهِ قبل كل امر

مرَّ بكِ ، ايتها الفتية ، ان من واجبات المرء ان يكون عاملاً مقداماً حازماً هماماً وفق قواعد الاخلاق واوامر الوجدان فعليهِ ان يسلك هذه الخطة في السعي وراء مصلحة الوطن و يعلم علم اليقين ان منزلة كل امة في مجتمع البشر تكون عَلَى قدر ماتبذله من الحزم في الأعمال وعلَى حسب ما تكتسب من النمو في المساعي فيدأب الدؤب الحق في عمله حتى يسوق لوطنهِ أسباب الرغد و يستجلب عناصر القوة

ألا وان ما تأمر بهِ مصلحة الذات تدفع اليهِ مصلحة الوطن فاسعوا ، ايها الناشئون ، وتأثلوا فان السعي مفيد لكم ولأسرتكم ولأمتكم وغير خاف ان الامة في حاجة إلى العمل في هذه الآونة

أرعوا ابصاركم من حولكم من الامم وانعموا النظر كيف تحاول تعزيز قواها تعلموا ثمة في اي مثوى نتنزل ان لبثنا حيث نحن اليوم وتدركوا ما يفرض عليكم حب الوطن من الواجبات

يوجب عليكم حب الوطن ان تستبسلوا في أعمالكم كاستبسالكم في حروبكم ، وتحزموا في شؤونكم وتقدموا في حوائجكم ، وتثبتوا في مشاريعكم وتبدوا في حياتكم همة وعزماً لا مللا ولا جبنا حتى تفوزوا او تموتوا

الا وان قوة الوطن وغنى الوطن يكونان باقدام الرجال وحب النهضة

ألا وان عظمة الوطن تكون عَلَى قدر الاعتناء في الاعمال والمبالاة بمصالح البلاد وحقوق الامة والتبصرة والعزيمة فيما لنا من مرافق ومصالح

ألا وان ألامة لا تتوفر عَلَى حفظ استقلالها بقوة الماديات ولا يتسنى لها ان تحفظ منزلتها بين الامم ألا بالتخلق والتطبع عَلَى حب الوطن

فعلينا والحالة هذه ان نظهر ولو كنا نحب السلم اننا عَلَى اهبة الحرب اذا مس الامة اذية او انتاب شرفها سوء ، فانه متى اعتقد الاغيار اننا عَلَى كامل الاستعداد احترموا الوطن ولم يمدوا اليه يد شر

ألا وان الطمأنينة في البلاد والتجلية بين الامم ليست للامم الاشد بأساً ، بل لتلك الاشد عزماً والارسخ ارادة والاحكم حزماً

فيافتى تقرأ كتابي ، دونك في حياة الاجتماع والوطن خصالا وجبت عليك في حياة الذات والأسرة ، واليك منقبة تراس المناقب لدى رجال الامة الا وهي : حب الوطن والسعي في رغد البلاد وعظمة الامة بين الامم

فاستفرغ العقل ، وهز القلب ، ورق دمك ، ولا تضن بقطرة منه صيانة لحياة الامة وتعهداً بمصلحة الوطن

الفصل الرابع والعشرون

السفسطائيون

إن حب الوطن وواجبات المرء نحوه امور لا جدال بها ولا تنطع فيها ، فهي قواعد تقوم عليها حياة الامة كما تقوم حياة الفرد ، وما قام المجتمع البشري الا عَلَى واجبات المرء لأسرته وللناس

فما من احد يماحك في البحث عن هـذه القواعد الا ويزعزع الحضارة من اركانها ، فعلينا والحالة هذه ان نستمسك بها عن ثقة فيها وثبات عليها ولا نخلي الطريق لأحد إذا اراد إن يسيء اليها، فان الاستمساك بحب الوطن شرط في حياة الامة

وكلما كان الاستمساك شديداً متراصًّا كانت الامة عَلَى عظمة وسؤدد . والعكس بالعكس فمن لم يغرم بحب الوطن وقوة العنصر وبما له من معالي ومحاسن وماغرب من سني الاجداد واقتبل من ايام الاولاد حلّ شعاب تلف ونزل منزل اضمحلال

عَلَى انه لم تتشدق في البحث عن الوطن ولم تتخرص عليه إلا امم فاضت في رجالها فوضى الاخلاق فاوشكوا ان يبوؤا بذلة جزاء ما

كانوا فيه يتشدقون . وعلى هذا خلت امة اليونان واندرست امة الرومان من جرى ما بث فيهم السفسطائيون من أن لاوطن للمرء ولا واجب عليه الا احتياز خضراء العيش فأودوا بهم تحت ايدي البرابرة ايداء هون اليم . منحهم الله اكتافهم فالبسوهم قناع القهر وقلدوهم طوق الذل وتوطؤهم بحر القتل

وقد ظهر السفسطائيون في هذه الايام بين الامم لا سيما بين امتنا واحر قلباه ! فعملوا على بث مبدئهم الفاسد : وطن المرء اقطار الارض بلا استثناء

فاعملوا ، ايها الفتيان ، على استئصاله والا استؤصل من قلوبنا حب الوطن وانتزعت من أيدينا ارض الوطن

فاوعوني اسماعكم تعلموا صحة ما اقول ، لان انشقاق الأمة وتهجم الاجانب عليها دربتان للقضاء على حياتها فتذل الرقاب وتعفى في الصغار امة مجد نحن ابناؤها السافلون . كلا ثم كلا ! لا يكون ذلك ولن يكون ، فان عقولنا راشدة ودماءنا جارية نستصرف ما يتهدد الامة ونستدفع مايقعر العنصر ، فانا لانزال أمة مستبصرة باقية النسيم غير نازعة الى الموت ، نستنصب لمكابرة الاعداء اعداء الوطنية والوطن

حب الوطن ايها الاعداء فضيلة لا تنتزع في امة ظهر منها

الكماة الابطال فهو حب لا يزال ولا يتنكر، لان عاطفة الوطنية لا تتبدل ولا تتحول كما زعموا باطلاً ، فحب الوطن لا يختلف عما كان عليه في عهد اليونان وعهد عظمة الرومان وعهد رجال الدول. نعم ان الاوطان قد تتغير واما حب الوطن وبذل المهج في حبه لايتحولان ابداً من الانفس

قال فوسيون (احد قادة اليونان ٣١٧ق) لابنه اذ قضي عليه بالموت ظلماً وهو على أهبة جرع السم «اي بنيّ اوصيك بخلتين: (١) ان تخدم الامة بما في وسعك من الغيرة والصداقة (٢) وان تتناسى أنني قضيت ظلماً لقاء صنائعي للوطن »

إن ذلك قول تتمثل به روح الوطنية فيجمل ويحسن في كل جيل وقبيل هذا وانا لنقصر في هذه الايام عن مطاولة بروتوس (مؤسس الجمهورية في رومية ٥١٠ ق) في حميته وغلظة قلبه إذ قتل بنيه لموآمرة سوء على أمته لا لضعضعة في وطنيتنا او تسامح للخونة المكرة ، ولكن الاخلاق في هذه الاعصر رقت عما كانت عليه من ذي قبل واصبحت حقوق الوالد من وجهة الاخلاق والقانون ليست كما كانت عليه في القدم

إن ما يفت في ساعد الوطن أثرة نبتت في بعض الناس من جراء البطر في المعيشة وسفسطة ذاعت في آخرين . على ان ذلك

لم يفسد الا قليلاً منهم، اما غمارهم فلم يمسّ باذية ولذلك لا تفوز ولن تفوز تلك الحملة الحديثة التي قام بها البعض عَلَى الوطن تحت طي حب الانسانية ، فانها سفسطة قديمة العهد لأناس اطبقوا قلوبهم عَلَى بغض الامة فانقلبت اليوم في زي جديد

ما يقصد اولئك السفسطائيون من الانسانية ؟ اليست ذلك الحنين الذي يستفز الناس الى معونة المعوزين ولو اختلفوا عنصراً ، فان كان ذلك ما يرمون فهو واجب يتواخى مع حب الوطن تأمر بهِ كل الاديان وجميع علماء الاخلاق

عَلَى ان كلمة الانسانية عند عقلاء الأمة تفيد مجموع الناس عَلَى الارض اي بنى الانسان وإذا كان ذلك فانى يناقي حب بني الانسان حب الوطن ؟

قل ان شئت عَلَى المرء ان يحب جميع الناس فلا تجد عن قولك متعقباً ، اما قولك ان حب الوطن وواجب خدمته والذب عن حياضه وبذل المهج في وجهه لاحاجة اليه لاننا ابناء الارض فقول غير الاول ، يفهم منه ما لا يفهم من ذلك ، بل انه سفسطة تلبس علينا اول واجب عَلَى رجل الوطن نحو امته

فما مثل اولئك السفسطائيين الا مثل من يقول : ليس عَلَى الولد ان يحب امه من صميم فؤاده ولا ان يشد عضدها ولا ان يدرء عنها

الجوائح ، لان عليه ان يحب كل اهل القرية والمدينة و كل امريء على وجه الارض ، او كمن يقول ليس على المرء واجبات لأسرته ، لان واجباته لاقرانه وعشرائه كافية ، او مثل من يقول ليس على الرجل ان يحب زوجه باكثر من بقية النساء ولا بنيه باكثر من بني غيره ، او ليس على الرجل واجبات لاولئك باكثر من هؤلاء ، فليختصر القائلون اذاً ليس على المرء واجبات لاحد من الناس والسلام

ان هذه رمية من قالوا بنزع الوطنية ، رمية تنفي ما وجب للامة وينفى معها كل واجب

ما هي واجبات حب بني الانسان ياترى؟ — واجباته ان يكون ثمة عواطف حنين للجنس البشري ، وهذا امر حاصل لدى كل امريء ولكن بما إن الهيئة البشرية ليست متحدة كاتحاد الامة ولاشخصاً فرداً يمكن القيام بواجبه قياماً حقاً والاخلاص اليه اخلاصاً محضاً فليس على من يقولون بحب المجتمع الانساني من واجب . أليس كذلك؟

واعلم ان من ينشأ على هذا نشأت فيه الانانية وحب الذات على حسب مايحلو لهما وكان ابناً براً للخيانة والجبن

فنزع الوطنية ، ايتها النابتة ، جبن وخيانة شاء من يسعون اليه ام لم يشاؤا ، فان الرجال الذين خلوا من الواجبات لاتقوم لهم قائمة ملك ، فهم ملاء عظيم يستكينون الى ما تسوقهم اليه شنعاء الحيوانية

الا وان الحضارة لا يخضر عودها الا بالواجبات وكرم العاطفة

عاطفة حب الوطن

كتب روزفلت رأس جمهورية الولايات المتحدة صحائف عن مبادئ الذين انطووا عَلَى كراهة الوطنية يظهر منها صفاء عقله وصحة فكره ومرارة سخريته من هؤلاء السفسطائيين، فاحرِ بشبان الامة ان يقفوا عَلَى معرفتها فاني ذاكر فقرات منها في هذا المقال :

«من الناس نفرٌ يود لو يزيل منزلة حب الوطن ويرسخ في الاذهان أَن وطن الانسان هو الارض اجمعها . ان هؤلاء السفهاء ليسوا على ثقافة من الطباع ولا علو في المكانة بحيث لا يسوغ ان يصغى لمبدئهم ، عَلَى انه قد يجوز لبعض رجال الاصلاح ان يزعموا أَن حب الوطن سيكون في الاجيال الآتية كالاكتفاء بالزوجة الواحدة فضيلة لا يعمل بها ، لانه لا طائل من وراءها ولا معنى ، ولكن من احب اليوم كل البلاد كحبه لبلاد قومه كان عضواً مضراً في الهيئة الاجتماعية كمن يجب نسوة مثل حبه لإمرأته »

«فحب الوطن فضيلة رئيسة كحب الأسرة وحب عاطفة الشرف والإقدام، الا وان الأمم لا يحمد اثرها عَلَى وجه الارض إذا لم تنهض بنفسها، الا وان انفع عضو في الأمة من عُني اول امره بحقوق ذاته وواجباتها فكان خير من يقوم بواجبات الأمة ، الا وان خير أمة

اخرجت للناس أُمة تشربت الوطنية حتي الكفاف ... »

إن هذا مثل صالح بسطه روزفلت لكل أُمة لاسيما أُمتنا لانه ليس عَلَى الأُمم في القرن الحاضر الا أَن تعمل عَلَى عظمة الوطن، أَما أُمتنا فعليها ان تحافظ عَلَى حياتها قبل عظمتها . وحقيق بها ان تقول لمن يحارب حب الوطن ايام ضاق الامر عليه :

« اليكم عنا يا من لم يحبوا وطنهم ولم يهموا بخدمته على اقصى استطاعتهم ولم يذودوا عن حماه وحقوقه ومصالحه وشرفه عَلَى ما في وسعهم من الإقدام واباحة الدماء ولم يرصدوا انفسهم لمعترك الموت بغير تشدق ولا جدل ولا خلجة إذا ناداهم منادي الوطن، ثم اليكم ايها القوم إلى حيث تصيبون وطناً أَقل من هذا واجباً وارضاً خلت مطالبا

في الوطن ، ايتها الفتية، جسيم في هذه الارض بحيث مَن ينكره او مَن لم يعمل به كان عدوّ الامة يعمل عَلَى شقائها

الفصل الخامس والعشرون

هـذه الأُمة

إن حب الوطن واكرامهُ والسعي وراء منفعته واجب عَلَى كل امرىء في كل امة ، واجب يسير ايفاؤه عَلَى ابناء هذه الأُمة دون مفخرة ، لان وطنهم جميل عظيم مجيد بين جميع الاوطان يدفع بهم الى حبه و يهيب بهم بالضرورة الى اكرامه ، لا سيما اذا افتقرت الامة الى بنيها واستطارت النوائب فيها وضوءلت مادتها وسقمت سريرتها فالامة الامة !! فهي تستجير ذراريها لتنقلب الى منزلتها الاولى مستجمعة القوى مستحصدة المرائر

انى لايحب هؤلاء الابناء امتهم حباً جماً عَلَى حين أن غريب النزعة يسبح باسمها ؟ من ذا الذي رأى ارضاً ينضر العيش فيها كما ينضر في هذه الارض؟ مَن ذا الذي وقع عَلَى بلد استكمل فيه الثراء والجمال كاستكمالها في هذه البلاد؟

إن سنة الوجود، ايتها النابتة، نافست رجال الامة في زينة هذه القطعة من الارض وجعلتها فتنة للناس

فانضم في احشائها كل خليق بالمشاهـدة من قمم شامخات ، وسلاسل جبال شاهقات ، جرداء وخضراء تسر الناظرين ، واودية رائعات باسمات ، و بطائح خصبة الجنبات ، وجنات ترامیات متراخيات عمرتها الايدي منذ قرون ، واسياف صعبة المجاز من تعاريج البحار ، واخر سهلة المسالك يكاد منتهاها يعادل منتهى المحيط ، ومدن جميلة الرواء كعبة البهاء ومحط الاقرباء والغرباء وقطب الحركة ومستدار الهمة ، فيها من كل اثر دليل عَلَى كل جيل وكل صنع عَلَى كل قبيل

ومن رساتيق مختلفة ، وامصار غير مؤتلفة ، تبسطت بين ذراعي الجبال ، ومن شمس تصهر ، وعيش يزهر ، واقليم مر ، ومعمعان تنازع يوآزر العزيمة و يستنب خفض العيش ورغد الحياة

كل ذلك النباين في الاقطار والامة واحدة لا انفصام لها ولا انقسام ، تشتبك امشاجها بين افرادها

ان هذه الارض ارض مباركة طمحت اعين الامم اليها وطمعت افكارها فيها في غابر الدهر ، إلا ان الاجداد احتفظوا بها وخلفوها لابنائهم آمني الساحة ، بانهم كانوا عزيزي الجانب منيعي الجناب ترهبهم الدول وتحترمهم الامم

قامت امتكم ، ايها الفتيان ، عَلَى انقاض الأُمم بعد ما اخمدت

سورة الفتن فرأبت شعبها ولمت شعثها والفت وحدتها وضربت في الحضارة بسهم

ثم لاحت بين ظلامة هذه الاعصر بارقة عقل وشارقة عدل ضئيل بقيت آثارهما الى يومنا هذا فاخضرّت الحضارة عَلَى عهد ملوك غابرين ، وازهر الادب والفلسفة وتوفرت العناية بالفنون وازداد البهاء بهاء فتجلى بمظهر لم يُعدم اللطف ولا الظرف ، فنما و بلغ من الكمال شأواً بعيداً

فشيدت القصور والقلاع والمعابد عَلَى ارض الامة ولم تخنِ عليها الايام ولا الناس . ذلك مما يدل عَلَى مبلغ الامة من القوة في الاجيال الماضية ، الا وان من انتج وخلّف للناشئة مباني كهذه المباني نشرف منه عَلَى صدق ذوق وعزم همة وصحة اقدام

عمل الامراء والمزارعون والسوقة وارباب الدين وذوو الصناعات والفنون الرفيعة عَلَى مجد هذه الامة فاولئك هم الهدى عَلَى عظيم ما عملته في القرون الخالية واولئك هم عنوان الشرف

ثم سعر لهب الفتن وذكى جمر الحرب بين الملوك والامراء والجنود فتنازعوا طويلاً فيما بينهم و بين اعداءهم حتى تألفت وحدة الامة فيما بين تلك المحن المستطيرة ونبتت عاطفة الوطنية في قلوب الناس

ثم تماسكت الامة فرتقت الفتق ورفئت الخرق واخذت بحظ

من النهضة اذ نهضت في اوربة تصحبها نفائس الصناعات والادب مع نتف من بدائع القرون الاولى او ظلال من ركام انقاضها فاستنارت الارض واستضاءت الامم لا سيما امتنا فقد استكمل نشوءها العقلي حتى بلغ شأواً لا يجاري ومبلغاً لا يباري

فتقوّم أود العلم وعدل عمود السياسة فتألفت الدوائر والجمعيات الوطنية تحت اسم المجالس العمومية اذ نشط رجال الحزم فابطلوا تلك السياسة الخرقاء التي كان يتخذها الامراء في ذاك العصر من فصل كل ولاية على حدة وجعلها مستقلة عن اخواتها فدبت من بعد ذلك روح جديدة واخلاق حميدة اكرم نبلاً ، ولذلك بدت الامة بمظهر من وراء الغاية في الكمال لايضارعها مضارع من الامم

ثم ثارت الثائرة في الافكار بادئ بدء على يد الحكماء والعلماء وكاد يتم امرها على سكينة ودعة لو لم يعتسف الادارة ملوكنا ويتفيلوا رأياً وتدبيراً، فاعربنا عن سمو في الافكار ونور في العقل على حين كانت حكومة الاستبداد تنهك القوى وتطمس على مانلناه من المجد الفخيم الذي كان به استقلال الأُمة على مأمن من الخطر في ذلك العهد

لكن الثائرة قدنارت والفائرة قد فارت فاجفلت الارض منذ اول امرها وزعزعتها دهراً ثم لما اعلنت حقوق الانسان ونادى داعي

الوطنية ليرد كيد العدو في نحره و يقمعه بعد إستطالته وتكالبه ، وينكسه لأم رأسه انقلب بلاء الهائجة من وسط الامة الى بلاء عظيم منيت به زمناً غير يسير

فمجدت الأمة بين شغب البلاء في فنون الحرب مجداً لاتدانيه ولا تحاكيه دولة منذ دول الرومان إلى يومنا هذا فاظهرت في ساحات الحرب عزماً صادقاً لاونية فيه

فيا ايها النشء إن امتكم سفكت دماءها سنين عديدة حتى كادت تنهار في ورطة اليمة ، كل ذلك ولم تفتر جرأة اقدامها ولم تهدأ شعلة همتها ، بل ما زالت مظهراً للعظمة . جمعت الى فنون السياسة فنون الحرب وحذقت الشعر والصناعات لا سيما العلم ، فأنه ترقى رهواً بترقي الهيئة الاجتماعية فانتقل علم الكيمياء والطبيعيات وغيرهما الى الترقي واستخدم قوى الوجود لمنفعة الانسان حتى انبعثت عنه حضارة اوروبة اليوم

فمن اراد ان يكون على معرفة من أفاضل الامة الذين علا ذكرهم وجب عليه ان يعمد الى تاريخ هذه الامة المديد الجليل ، فثمة بواعث تغرس في رجال الامة ولا غرس الخطب والمباحثات حباً راسخاً للوطن يمتلك قلوبهم و يعلمهم كيفية الحب والاعجاب بكثير من الابطال الناشئين على ارض هذه الوطن من دم واحد وطينة واحدة

فيفخرون حق الفخار بعنصرهم

ان التاريخ يبين لهم ان عليهم واجباً صعباً عظيماً وعباً ثقيلاً إذا ارادوا ان يهبوا من رقدتهم و يقضوا للوطن بالعلو والتمكين و يجعلوا له مستقبلاً جديراً بماضيه المجيد

ولا مراء في ان الامة ستنهض من وهدتها بعد حين، فقد مرت عليها ايام محنة وتبريح اذ مسها قرح الهزمات والغزوات والانحلال فجفت عليها السنون و كادت تصرعها من الوجهة الاخلاقية والمادية، الا انها لم ترزح تحت الاثقال فسعت ولم تذخر وسعاً حتى كشفت الغمة وازالت الملمة واخذت بتلابيب الترقي فجددت القوى واسترجعت منزلتها الاولى

غير ان سعيها لم يلبث كافياً ولست ادري أعن ذهول كان قعودها ام عن جبن وتراخٍ ؟ دعنا سواءً كان ذهولاً او جبناً فانما الواجب عليها في هذه الايام ان تكدح في السعي بما في وسعها من الهمة والاقدام فتجعل مجموعها بمكان من القوة لتحاذرها الامم

قال ارمند (احد كتبة الفرنسيس ١٨٠٠—١٨٣٦) « تبقى الامة عظيمة المكانة قوية البأس، ولو غُلب على امرها لسوء الحظ او لقلة العدد، ما دامت تشعر بألم الضيم، فان ارخت خناقه عن نفسها او ألفته مع الايام فقد قضي عليها الابد »

تراخى رجال الأُمة في هذه السنين الاخيرة في سعيهم وراء ما يرجع لهم مكانتهم وما يناوئون به منافسيهم ايام السلم فقد ذكرت فيما مرّ اسباب نقص الانفس وكيفية سقوط الأُمة بالنسبة للامم العظام اذ كانت منذ قرن اعظم البقاع في اوروبة سكاناً فاصبحت والالمان يفوقها بعشرين مليوناً ، عَلَى حين ان ارض الامتين متساوية في المساحة والانكليز بثلاثة ملايين ، عَلَى حين ان ربوعهم لاتكاد تعادل نصف ربوعنا

فظهر ضعف امتنا من هذه المقابلة وظهرت أُمور أُخرى ايضاً فان التجارة دليل حسن عَلَى ما تستغله الأُمة من الارض وماتصنعه همة الرجال فما مبلغ تجارتنا يا ترى خلال خمس وثلاثين سنة ؟

— بلغت تجارتنا سنة ١٨٦٩ قبيل الحرب ٦ مليارات من الفرنكات ، سنة لم يفقنا فيها الا الانكليز فان تجارتهم بلغت ١٣ ملياراً واما تجارة الاميركان فلم تتجاوز ٣ مليارات ونصفا وتجارة الالمان لم يعلم مبلغها عَلَى التحقيق والتدقيق الا انها اعلَى درجة من الاميركان

انسلخ عشرون سنة عَلَى ذلك الزمن فبلغت تجارة الانكليز ١٧ ملياراً ونصفا وتجارة الفرنسيس ٨ مليارات ونصفا والاميركان كادوا يبلغون ٩ مليارات والالمان كذلك

ثم اقبلت سنة ١٩٠٠ فتساقطت امة الفرنسيس الى الدرجة

الرابعة اذ بلغت تجارتها ٩ مليارات ومازال للانكليز القدح المعلى حتى جاوزوا في تلك السنة ٢٢ ملياراً والالمان ١١ ملياراً ونصفاً وكذلك الاميركان

ثم ظهر الاحصاء سنة ١٩٠٤ والبون بعيد بين امة الفرنسيس وبين الامم الاربع واليك البيان: الانكليز ٢٣ ملياراً . الالمان ١٤٧ ملياراً . الاميركان ١٢٧ ملياراً . الفرنسيس ٩ مليارات

ان هذا التقهقر الأليم لاينحصر في البواخر التجارية والدوارع الحربية والمركبات الداخلية والاشغال العامة بل يتعدى هم الرجال وذلك ما يشاهد بالعيان

فان الأُمة تتداعى الى التهاون كما تداعت منذ خمسة قرون ، الا ان بيئات هذا العصر تختلف اختلافاً جسيماً عن تلك الاعصر باختلاف ضروب الحضارة في القرنين عَلَى ان الخطر في الامة واحد لا اختلاف فيه بين العصرين

فعلينا ان ننهض اليوم من كبوتنا ونستعلي عن هوتنا كما نهضنا في ذلك العهد

الا وان الامم لا تنهض الاّ بالتبصرة والارادة ولدينا من ذلك قوة عزم وجرأة اقدام . فانهضوا ايها البنون ، فقد كتب ميشلة (مؤرخ فرنسي ١٧٩٨ — ١٨٧٤) ذلك الذي اكتنه تاريخ الامة كلمات موجزة في هذا المقال فقال :

« تقادم عليّ العهد وانا اتتبع حركة الامة منذ الوف من السنين فعلمت ان لها ايام محنة وبلاء وآمال ارتقاء لا انقطاع لأصلها ، وان الله يأخذ بنصرتها فترى في بُهمة الليل ما لا يراه غيرها ، ولذلك كانت تدرك في لجة الظلام في القرون الوسطى ما لا يدركه سواها من الامم »

« ان هذه حال الامة ، دأبها العود كلما تقادم العهد ، وعليه فان اجدادنا لما اجلوا الرومان عن بلادهم واقاموا دولتهم ضربوا سكتهم تملوها كلمة تدل على مبتدأ هذه الامة ومنتهاها الاوهي : « الامل »

فاستشعروا ، ايها الفتيان ، الثقة وانتجعوا حسن الظن واقطعوا انفسكم عن الاياس من مستقبل حميد للامة . فان للامة عزماً صحيحاً وسائقاً نافذاً يدفعانها الى ان تنهض من اغمض الهوات الى اعلى الدرجات لا سيما لم يتخلف عنا امر فالتمسوا السعي ولا تتربصوا قبل ان تطفأ جذوة العزيمة وتكسر شوكة الهمة

بل سارعوا إلى العمل في ترقي القوم وتسديد قوى الوطن وارجاعه الى مكانته الاولى ، واعملوا حتى يقال في المستقبل ما قيل عنكم بالامس ، وادأبوا ، ايها البنون ، في مصلحة الوطن ومجد الامة ، فان الوطن قائم عن خارته من الارض بحيث اصبحت القوة والعظمة شرطين في حياته

الفصل السادس والعشرون

قوى الوطن

تلبّوا الطرف ، ايها الفتيان ، عَلَى موقع أُمتكم ، من الارض تجدوها عَلَى اجمل بقعة وأخطر قطعة

وقعت عَلَى طرف من البلاد ومن وراءه الامم تفدحها باثقالها وتبهظها بأحمالها بحيث اصبح من الواجب أن تضطلع لعبئهم وتحفظ الموازنة بينهم، وقد كانت في سالف الدهر ملتقى المهاجرين ومنتهى الحاملين الذين نزحوا ولم تركسهم وعثاء السفر

الا وانه قد طوقتها من كل صوب امم هممامة عاملة مقدامة شرهت انفسها اليها لطيبٍ في تربتها وصفاء في سمائها واعتدال في اقليمها فردتهم عَلَى اعقابهم ناكصين

وما زالت عَلَى وجه الارض توادعها الامم وتخشى بأسها حيناً من الدهر لقوةٍ كانت فيها وشهامة في افرادها. فتعزيزها اليوم ، ايها الشبان، ضروري للموازنة مع الامم ،لانه متى ضعفت هذه الامة انقضّت عليها الامم عن رغبة فيها فتحيّفت ارضها ومزقتها تمزيقاً تقاسمت

بقاياه بعد حرب طويل امدها ، يتجدد كل يوم عهدها ، لأن أمتنا ولو استؤصلت افرادها تنشط وتلأم صدعها وتنبت رجالاً على ارضها وتسعى سنة الوجود معها في بناء ما هدمته الامم

ايها الفتيان ! نود ان نحيى حياة احرار غير مستضامين نقوم في هذه الحياة بما هو جدير بنا ، فعلينا والحالة هذه ان نسعى في ان يكون الوطن شديداً عظيماً

ان قوة الوطن في امرين مهمين : الاول أخلاق حميدة في اجسام شديدة والثاني تعبئة الجيش على اقوم أس . وكلاهما زوج ان فقد احدهما فسد ثاني الاثنين

فحب الوطن والاقدام ومران الجسم على المتاعب امور لازمة لرجال الحرب في هذه الايام كما كانت عليه من قبل ، ايام كانت الحرب قاصرة على السيف والبراز ، مع انه قد تبدلت الاوقات فتبدلت كيفية تجهيز الجيوش بحيث اصبحت صعبة القياد والتعبئة على الفور ، لانه متى التحم الحرب في هذه الاعصر لا يتيسر للأمة ان تكتّب الكتائب العظيمة سريعاً ، ولهذا وجب تدارك الجنود قبل وقوع الحرب لان الامة مهما كانت على مروءة وشجاعة فلا فائدة برجالها إذا لم يدرّبوا على الكريهة ويرتبوا ترتيب علم وسداد

وجب على الأمة ان تجمع الجموع فتكوّن جيشاً جراراً تبعثه

في البر والبحر ، لان لها تخوماً وسواحل مديدة ، وتبذل النكيثة حتى تصير قوة الجيش في البر الى تناهيها ، وتبلغ في البحر مقدارها وتقوم باية حرب تدعى اليها ، فتحفظ استقلالها وترعى حقوقها وتصادر من يتهجم على مصالحها في اي قطر من الارض

ان هذا لسعي واجب عليها وقد يجب على كل امرئ منها أن يسعى في واجب آخر ذاتي الا انه ضروري ، الا وهو اعداد الذات للقيام بالجندية فقد تبين ان الدفاع عن الوطن فرض على كل انسان ، وعليه فقد وجب ان يكون كل فرد من افراد الامة عظيم الاجلاد عظيم التجاليد اعتاد المسير والمشاق وضروب الرياضة البدنية

كل ذلك غير كاف لتجييش الجيش العظيم على الفور فان من الضرورة ان يعتزم المرء على مران الجندية فيرتاض عليها قبل ان يسلك في نظمها حتى اذا مست الحاجة كان في مصاف الجند غير مضطر للمران

وثمة فوائد جمة لجيش الامة ، فعلى كل فتى ان يفيها حقها كما يوجب القانون ويذعن لها عن طيب نفس وبسطة ذرع ، بغير تململ او تأفف ، لانها من واجبات المرء لوطنه ان قام بها ايام السلم قام بها ايام الحرب حيث تفدى الانفس وتبذل النفائس

كان رجال اليونان متى بلغ احدهم الثامنة عشرة من عمره يشك

السلاح للذب عن حمى وطنه ويقسم فيقول :

« اني ضارب بالسيف حباً في كل كريم وكل جليل .... ولست بمخلف للقوم ارضا اقل اتساعاً مما هي عليه بل ارسى ركناً وادعم شرفاً ... »

انه لقسم لو تعلمون جميل فينبغي لكل عضو من الامة ان يؤلي على نفسه ذلك الايلاء حين ينخرط فى سلك الجندية ، وان تطمح عينه الى منفعة امته ولا يفكر الا في مصلحة وطنه ويقوم على تشريف جنديته فيقبلها بغير تردد لان الوطن ايها الشباب لا ترد مطالبه

كل ذلك غير واف بحق الجندية فان من الواجب على المرء بعد ان ينهي مرانه في الثكنة ان لا ينقطع عن المران حتى اذا دعت الحرب كان جسمه صالحاً لوعث السفر ، لان خطر الحرب يكون معظمه في مقتضياتها من متاعب ومصاعب ، ولذلك يشرف الذين ينشأون في الترف والنعيم ، ولم يوازنوا بين غذائهم ومطالب قواهم ولم يبادروا في تقوية العضل ، على الاداء في بداية الحرب فيرهقون وتذهب حياتهم ضياعاً و يعدم الوطن ساعدهم في احرج الاوقات

وبعد فعلى المرء ان يحافظ على صحته و يسدد قواه ويكون نشيطاً يخوض الغمار و يركب التيار ، لان ذلك من مصلحة الذات وواجب لذات . على ان المرء لا يدفع عن حوزة وطنه الا اذا قام بهذا الشرط

وذلك ان يكون ذكي الصرامة جلد الجوارح

ولا ينفع الرجل الامة الا اذا جمع مع فضائل النفس لاعج حب الوطن فاحب الجندية وعبد الراية وكانت فيه قوى الاخلاق تعادل قوى الجسم

ان الراية التي يتخذها الجنود واللواء الذي يخفق في المراكب على البحار والانشودة التي تردد نأمتها في الفضاء تمثال الوطن وصوت الامة

فعلينا أن نرعيها الابصار ونوعيها الاسماع اكراماً وايماناً ، لانها امور عزيزة على النفس ، جليلة الخطر ، تصوّر ما هو اشد حباً لدينا واكرم شأناً علينا

ان رايتنا ، ايها القوم ، صبغتها الوان فكانت اجمل من كل راية واسمى من كل لواء تلوح في السماء عجباً ويُمناً وكبراً برموز ساطعة واشارات ناصعة وتصدع باسم الامة كلما خفقت طياتها

فمن لم يبتغ سبل الاغتراب لم يدرك اية عاطفة تهزه واي شعور يحركه حين يرى راية أُمته تتموّج على عمود البرق في شاطيء البحر . يخالجه فرح ويداخله حزن لا تفي الكلمات وصفهما فيذكر الوطن ويقع في باله الاعزاء والأسرة والعنصر وكل ماله مسيس بعقله وقلبه ، وتغرورق عيناه وتصطك شظاياه كأنه يود أن يسجد تضرعاً لقطعة

من النسيج هي الكون في نظره

فاخفقي، ايتها الراية الجليلة في الفضاء، اعزكِ الله وابقاكِ مثل الكرامة والشرف والمجد وكلاً كِ مما يأخذ من نور الوانك على يد بنيك

وصف ميثله سكينة جيش يزحف، امام راية تخفق على لسان والد يبصّر فتاه فقال :

«انظر بنيّ ! إن هذا الجيش لهو الأمة وهو الوطن، يسير كأنه فرد واحد بروحٍ واحدة وقلب واحد، فيموت في سبيل واحدة، فعلى كل واحد ان يموت للأمة . واشخص ببصرك إلى اولئك الذين تدججوا في السلاح وقاموا للسفر فاولئك قوم هجروا آباءهم وامهاتهم على حين العوز، حباً في الدفاع عن الأمة فاقتفِ بنيّ ما هم مقتفون ولا تذهلنّ أن الوطن أمك »

لا تتأثر الجوارح في الحقيقة ولا يخفق القلب ولا يفخر المرء الا بمثل هذه القوة المنظمة المتقنة : جيش جمع رجله وخيله ومدافعه وما للحرب من عدة، واسطول عظمت مراكبه وتدرعت بوارجه وحملت ظهوره مرهوب المدافع واكتنفتها خفاف المراكب وتقدمتها حرسة تضمر الغائلة وتتربص الدائرة

الا وان الجيش، ايها الفتيان، صورة الوطن يعرب عن قواه واستقلاله فسارعوا إلى الجندية فقد كُتب عليكم القتال وشدوا أواخي

الاخاء بين رفقائكم في الجيش، فان الرفقاء أسرة ثانية للرجل يتكاتفون ويقاتلون في آنٍ واحد وقد يموتون . ولا تحلّوا بينكم مسكة الاخاء في الجهـاد تنكصوا عن الشجاعة والاقدام ، بل كونوا اخواناً حتى في سبيل الموت . وأنـوا بما وجب عليكم من الجندية واحتقبوا لأنفسكم قوةً ونشاطاً ، ولا تكفّوا عن تقويم النفس على الرجولة والاخلاق الكريمة

بل كونوا جنداً غلاظاً مستبسلين كما يتطلب منكم الوطن وأعزوا الراية واكرموها فانها شعار الأمة وعقدة الوطنية وصوت الوطن العظيم

الفصل السابع والعشرون

الحرب

الحرب شرٌ هائل حاذرته الانفس ومجته القلوب في كل جيل وقبيل، فانْ رغب فيه مستأجر الجنود واسترسل اليه المغرمون بمجد النصر فقد كرهته الامم لأذية تلحقها في ارضها من عبث الجيش

وقد رأت الامة شؤمها في الحرب الاخيرة وذاقت سبة العار من الانكسار فانقلبت إلى حب السلم غير راضية بوقد حرب جديدة فحق لها ووجب عليها أن تستمسك بالسلم وتبذل جهد المستطاع في الاقلاع عن الحرب لا لخوفٍ أو جبنٍ بل لحكمة في نفس الامر

نعم أن الحرب شر، ومن الامور ما هو افتم من الحرب شرًّا، فينبغي لنا أن نصليها ناراً ذات المرار ولا نضيع استقلال الامة وتثلم شرف الوطن . فان الامة العظيمة إذا لم تتراكض للحرب دفاعاً عن حرية البلاد والمنزلة بين العالمين لا تلبث ان تضرع في امرها وتهون على نفسها جزاءً وفاقاً بما كسبت ايديها . الا وان من آثر الحياة على الشرف سواءٌ كان من الأمم او من الرجال فاجدر به أن لا يبقى في الحياة

تودون، ايها الفتيان، السلم فالسلم ليس يبالغه إلا كل شديد عتيد همّام مريد

هذا ولا يزال يصدق قول الاولين « إذا اردت السلم فشنّ الغارة » فالسلم لا يدركه الا من استعد للقتال ولم يخش البأساء والضراء، الا وان الامم لا تسلم من جور الآخرين ولا تدفع عنها غائلة الحرب الا متى تدرعت باقوم الاسلحة وساوت بين القوى المادية والمعنوية ودافعت عن حقوقها وقامت في الحياة بما هو اهل لغارب مجدها وحاضر منزلتها

فذرائع السلم ، ايها الفتيان، قوة وعلو همة واقدام . وقد قال فيكتور هيغو بعد حرب السنة الهائلة « لا سلم الا في العظمة والعظمة من مطالب الوطن » . ذلك قولٌ معروف فلا سلم الاّ في العظمة لأن السلم في الصغار والضعف موت للامة آكد مما لو عانت مخرفات الحروب . على انه لا سلم يدوم للامة مع التقاعد والخمول

واعلم أن مثل الامم على وجه الارض مثل الرجل في المدينة ، فمن شعر من نفسه القوة والاقدام مضى إلى اشغاله بثبات قلب ورسوخة طمأنينة ، واحترمه الناس دون ان يعترضه احد يهينه او ينازعه ولو كانت الطريق خطرة يجتمع فيها سفهاء القوم . اما من ضعف وجبن فقد كان كاولئك الرعاع السفهاء عرضة للفواجع والقوارع

الا وان الامم إن كان مقادها عقلاً كبيراً ركينا وسندها حسن استقامة وخير سلاح سلمت من المخاطر والمتالف

وبعد فقد وجب على الامة وراء أن تسعى اقصى مجهودها وراء أن تجعل الوطن على قوة وهمة واقدام وجرأة وحكمة وسلم

فهل قصدت هذه الغاية تلك الفئة الثرثارة التي قامت في البلاد تبث بغض الحرب في الامة والجنود؟ — يظهر لي خلاف ذلك فان بغض الحرب لا فائدة به لأمتنا، لان السلم لا يتوقف على ما يزعمون

ان أمتنا ديموقراطية يحكمها صوت الأمة ومن كان كذلك كان فيها الجندي غير مستأجر، وايما أمة كان جندها على هذه الصورة كانت جانحة للحرب بالطبع فحذار ان نجعلها سافلة تؤثر حب السلم على كل امرٍ ولو مست الاغيار مصالحها واستقلالها وشرفها

نعم انه لا جناح على ناشري السلم أن يبلغوا رسالتهم للامم العظيمة القوية، لانه لا خطر على تخومها ولا حرب الا من تلقاء نفسها لا من غيرها. اما نشر حب السلم في أمة كأمتنا توعد ولا توعد وتتسكع في سيرها منذ ثلاثين سنة فليس من الحكمة في شيء

واذا كانت غاية نشر السلم إلقاء الخوف في نفوس الامة، فان السلم امر باطل، ايها الفتيان، لان بذلك تموت الانفس، وتظن الأمة ان

واسطة السلم إرادة السلم فتنشأ على خشية من خطر يدهمها او حادث يلمّ بها

فعلى رجال الامة ان يعلموا خلاف ما سمعوا وعلى كلٍّ منا ان يجهر بل فيه أن الحرب كُتبت عليهم ، وان الواجب أن يعدوا لانفسهم ولما ما استطاعوا من قوة، وان يعلموا أن الدفاع لاينحصر في دفع عادية الاعادي عن البلاد بل يشمل دفعهم إذا تهجموا على الحقوق او ارادوا إستئصال أُمة حياتها حياة لأُمتنا . وقد ركبت أُمة الفرنسيس من هذه الوجهة زللاً جسيماً سنة ١٨٦٦ إذ اغار الالمان على النمسا وبين وأديل لهم في « ساذوفا » فانها لم ترد الالمان عن فعلتهم فضربت بعد اربع سنوات بحرب هائلة معهم فانهزمت وكادت تسحق من اصلها ، لأنها تلكأت عن الحرب سنة ١٨٦٦ حينما كانت الحرب من الحكمة والعدل . فكان ذلك مثلاً مرًّا استفادت منه حق الاستفادة

فمن اراد حب السلم لبلاده جرّ عليها حروباً توقدها الاعداء ايام ترى النصر لها مؤزرا . وقد اوضح روز فلت رئيس الولايات المتحدة ذلكم الذي اطفأ بحكمته وطيس الحرب بين الروس واليابان حاجة الامم لاقتحام على الحروب العادلة فبرهن بحجج عديدة وامثلة كثيرة على وجوبها اذكر واحدة منها لانها تنطبق على حرب ارتابت فيها

سخاف العقول الا وهي حرب السَّسْيُون : حرب اذكتها سنة ١٨٦١ ولايات الشمال من الاميركان عَلَى ولايات الجنوب إذ ارادت تخرج عن الطاعة وتنفصل عن اخواتها فذللتها بعد اربع سنوات من الحرب ورأبت ثأيها والفت وحدتها، ثم سارت سير الترقي والنجاح والنمو فبلغت ما بلغت اليوم من القوة المدهشة حتى وازت ان لم تقل فاقت رأس الدول واقدمها عَلَى وجه الارض

فاحكم ايها القارئ بفائدة هذه الحرب من حسن نتاجها. وقد أفصح عن ذلك روزفلت في بحث له جليل نذكر منه فقرة في هذا المقام قال الرئيس :

«لو عمل زعماء السلم وقصار النظر في العواقب عَلَى ما بعقولهم وتم الانفصال لولايات الجنوب لفاضت فوضى الحرب والخراب في ولايات الشمال كما فاضت في ولايات الجنوب مدة خمس وسبعين سنة — »

« — ولكننا انصرفنا عن الفوضى في البلاد وسفك الدماء من جرى، رجولة ابائنا الذين عاضدوا لنقلن (رأس الولايات المتحدة سنة ١٨٦١ توفي ١٨٦٥) وغرانت (رأس الولايات المتحدة سنة ١٨٦٨ توفي ١٨٨٥) ولم يتبعوا اولئك الذين يزعمون ان الحرب شر في كل زمان ومكان — »

ان اجداد الرئيس روزفلت رضوا بحرب مديدة وفدوا حياة

مئات الالوف من الناس وخسروا ملايين من الدولار حتى تخبطهم الموت واسودت الدنيا في وجوههم حزنا على ابناءهم الا انهم حافظوا على وطنهم العظيم واعدوا له مستقبل سلام وسؤدد، فاولئك رجال عظمة وشجاعة يشكر لهم البنون حسن سعيهم وجميل صنيعهم

ذلك مثل يجب على كل امرئ ان يحذو حذوه و يتحكك تحككه ايام الفتن والمشاغب فانه يكشف عما للتبصرة وعلو الهمة والاقدام من فوائد للوطن اذا تحدّر نحو الانحطاط

على ان تاريخ الولايات المتحدة منذ ذلك العهد كتاريخ بقية الامم ما برح يعلم الناس ان التبصرة وعلو الهمة والاقدام امور ذات نتائج حسنة في فن السياسة، وان الدفاع عن الحقوق بسكينة وتدبر لا بهياج ولا بضعف مفيد للامة ، يستقر به الامن والطمأنينة فيها

الا وان سياسة التخلي عن البلاد والخوف من الدول تضر بالامة وتذل شأنها وتبعث المشكلات وتدفع للهوان والعدم، الاوان خير واقٍ من الحرب قوة وعزم واقدام

فادأبوا في اكتساب هذه المزايا ، ايها البنون ، وحافظوا عليها واسعوا وراء تمكينها ونموها بين ظهراني امتكم فانها فضائل اجتماعية وطنية

الفصل الثامن والعشرون

الجنس البشري

ان ما يجب عَلَى المرء من لاعج الحب للوطن لا يسوغ بغض الناس والتحامل عَلَى بقية الامم بل يأمر بحبهم والسعي وراء منفعتهم كما يسعى المرء وراء ان يجعل امته في مكان سامٍ عَلَى الارض و ينزلها منزلة رفيعة من التاريخ، لان حب الوطن عاطفة اكرم واشرف من ان تلقي البغضاء في قلوب العالمين · تنادي بان يقوم وزن العدل بين الامم، الا اذا كانت الامم تود اغتيال الوطن والبغي عَلَى الأُمة وتعمل عَلَى غمط مصالحها وبخس حقوقها، فان عاطفة الوطن تبعث حينئذ عَلَى الوحشة منهم

فعلى كل رجل من أُمتنا ان يكون محباً للناس يعلم ويحدّق النظر في اعمال بني جلدته و يسعى في ان تقوم أُمته بما هو جدير بها وتدير اعمال البشر مع من يوسمهم ان يوجهوا حركة الامم الى ما جعلوا له في هذه الحياة

نعم ليس عَلَى المرء من واجب الاَّ لوطنه، ولكنَّ عَلَى الامم واجبات

بين بعضها لانها أسر كبرى يتضامن افرادها لا تضامناً عاماً لان التضامن يستحيل بين جميع الناس

على ان التضامن واقع في الحقيقة بين الجنس البشري يقوم بالنسبة للمكان ، فانه اذا وقع الخير او الشر عَلَى شطر في الارض او اذا ترقت امة او تدلت اخرى او اذا هاجت ثائرة الانشقاق بين قوم كان لذلك تأثير عظيم عَلَى شطر آخر من الارض ، ولذلك اصاب امم الغرب وربما لم تزل مصابة به الى اليوم اثر الخطأ الذي جرّ عَلَى مملكة اليونان انحلالها ودولة الرومان اضمحلالها

و يظهر ان لترقي البشر سنن تضامن تستدعي جميع الامم ان تعاضد اللاتي لم يستطعن ان يجتزن مراحل المعالي واللاتي اقوى اكثرهن فأضرب عن المسير او اضاع السبيل في مناحي تشعبت عليه او سلك من الطريق ما لا منفذ له

الا وان التاريخ ، ايها الفتيان ، مرآة نشهد فيها من سير الامم مشاهد تلذ بها النفس وتقر العين ، مشاهد نشوء يتوالى من اقصى طبقات الهمجية الى اعلَى ذرى المدنية . تلك رؤية تتجلى في الامم السالفة كما تتجلى في الامم الحاضرة منها في اعلَى شرف ومنها في اسفل درك ، وثمة علم بترقي الامم وكيفية تنقل الحياة مدى تعاقب الاجيال

بيّن التاريخ ان الانسان ما زال منذ اكتشف النار وهي اول

اكتشاف يستخدمه لمنفعته يتدرج عَلَى الدؤوب الى الحضارة

ففي يومنا هذا امم في اسفل الدركات من الهمجية تسكن وسط افريقيا وجبال آسيا كمن كان عليه سكان الاميركان لما اكتشف كريستوف قولومبوس بلادهم (بحّار اكتشف اميركا ولد سنة ١٤٤٠ — ١٥٠٦)

وامم ما زال نموها في مهد الطفولة كان اليونان والرومان يدعونها بالبرابرة كالغوليين والجرمانيين الذين كانت امورهم تشبه مراكش هذه الايام وسيام وغيرها من البلاد

وامم في اعلَى الدرجات من الحضارة عَلَى اختلاف في المدنية وتباين في الطباع

واعلم ان للتمدن الانساني ثلاثة ادوار منذ العصور القديمة اي منذ عشرين او خمسة وعشرين قرناً

الاول : ما ورثناه عن مدنية البحر المتوسط اى من اليونان والرومان فامتازت تلك المدنية بالنشوء المتوالى وتنقلت في مدارج الترقي والحرية

الثاني: تمدن الشرق الادنى الذى ناهض تمدن اليونان والرومان زمناً طويلاً عَلَى الجهد وامتد من جنوب آسيا وغربها الى ردم حملايا المصمت وما يتفرع عنه من الاقطار الشاسعة فجمع تحت ظله أمما

عظيمة نجهل معظمها الا ان بقايا ركامها دلتنا عَلَى سلطانها وعظمة بأسها ، فعلمنا أنه يختلف عن الاول اختلافاً بيناً وانهُ شبيه بالبيئة التي نشأ فيها وهي بيئة الترف والتغلب حتى اذا بلغ ما بلغ وقف عن النمو واخلد الى الجمود في الملذات والنعيم

الثالث : تمدن الشرق الاقصى فانه يندمج مع الثاني من جهات ويختلف عنه من اخرى ، يندمج ببعض مباحث الدين ويختلف بالصناعات والادب والفلسفة ، فان تمدن الشرق الاقصى بلغ اوج الكمال قبل ثلاثين قرناً الا ان الاقدمين لم يقصدوه ولم يعلموا كنهه لبعد المساوف وحيلولة الاسداد والاسوار

فذلكم بنيان أُسس عَلَى حكمة طيبة الا انها تهمل كثيراً مما تحتاج اليه الحياة من الامور المادية فاوقفت بذلك سر النجاح ، مع ان ذلكم التمدن قد يسر لمملكة الصين العظيمة ان تحيى حياة يتناقلها جيل بعد جيل خلافاً للمألوف ، ولكن يظهر انها وقفت عن الترقي والاختراع والاصلاح وتعقدت عليها الامور منذ نصف هذا القرن فاعتراها ما اعتراها لما تحكك لها تمدن آخر اكثر كمالاً من تمدنها واعظم تأثيراً من حضارتها ، فاستطار بينهما الشقاق لاستهانتها بالامور المادية واستهتارها بالقوة واعني بذلك التمدن الاوربي

فانحطاط الشرق كان على يد الغرب فاعتزت على دوله ايد وضربت عليه اخرى فتراخت عزيمتـه وماتت قوته واخذته سكرة موت طال عهدها

وهكذا الحال مع تمدن البحر المتوسط القديم فانه قد انحط انحطاطاً نبت من آثاره وانقاضه تمدن جديد نشأ عنه بعد عشرة قرون تمدن حديث في وسعه ان يفتتح ممالك الارض عرف بالتمدن الاوروبي

فذلكم التمدن استجمع الكمال فاعذوذب حتى استغنى به بنو الانسان

الا وان العبرة والمثلة، ايها القوم، تتجسمان في جميع اطوارها منذ القدم لاعين الامم التي ماثلتنا في طباعها وشمائلها وجرائم اجدادها السالفين . فاولى بنا أن ننظر في تاريخ الغرب كيف تنشأ الامم فيه وكيف تعظم وتضمحل ، ولو كانت اسباب نهوض الامم وانحطاطها واحدة في كل جيل وقبيل ، وكان حب الوطن والاقدام مزدرعين على السواء في قلوب الذين ينهضون بأمتهم ويجملونها عظيمة في آسيا او افريقيا او اوروبة، لان رجالنا وقفوا على تاريخ البحر المتوسط وقوفاً لم يدركه غيرهم فقضوا شطراً عظيماً من شبابهم في درس حياة اليونان والرومان دون أن يكتنهوا اللباب، فعليهم اليوم أن يدأبوا في

مداخلة تاريخ تلكم الامتين ، لا سيما قد بيّنت العلماء ذلك التاريخ في هذه الايام عَلَى أحسن بيان، فان فيه كثيراً من المثلات والعبر لمن لا يرغب أن يهمل مستقبل أُمته

إبتدأَ التمدن منذ عصور اليونان اى منذ ثلاثين قرناً فنهض نهوضاً لم يلحقه تمدن آسيا فعظّم وشرّف بني الانسان ورفع في الانفس حب الامة والوطن وبعث العزائم ودفعها للسعي والعمل

فيا لها من نهضة في اليونان تأخذ بمجامع القلوب بانها قائمة عَلَى تلك المباديء الشريفة الكريمة ، وياله من تمدن رائع اسرع في نموه حتى بلغ أعظم الدرجات في الصناعات والادب والفلسفة، درجات لم يبلغها احدٌ من البشر

فتلكم أُمة عالمة عاملة تخرّج فيها الادباء وصح فيها العزم والاقدام، جمعت بين حب القوة وحب الحرية والجمال وعلمت كيف تولغ السيف في الدماء لتُكدي الغارة عن استقلالها وحقوقها ومصالحها وتجر ذيل النصر ورآءها ، وبعبارة جامعة : تلكم أُمة عظيمة انبسط سلطانها عَلَى اقطار البرابرة في الغرب وانشأت المستعمرات حيث رابطت المياه مراكبها حبًّا في نشر تجارتها وحضارتها

وقد كان للجماهير الصغيرة من اليونان حب لاوطانهم تمكن في صدورهم ، مع انهم كانوا متشاحنين يلعب بهم الانشقاق والشعث

فكانوا بذلك الحب متحدين باسلين يردون حملات الاغيار فانتصروا وشرفوا مكانة وقضي لهم بالتمكين في الارض

بل قاوموا ولم تعتز عليهم الامم لما فيهم من حب القيام بالواجب والإقدام وحب الوطن ولكن اتى عليهم حين من الدهر ضعفت فيهم تلك الفضائل وتبدلت الثقة بعظائم الامور وجسامها إلى الريبة فيها ، فراحوا لا يفكرون الاَّ في نعيمهم ومالهم ولذاتهم فنشأ الفساد وتمخضت الفوضى وهبت اعاصير الفتن ونفرت نافرة القلوب فيما بينهم ، واصبحوا لا يتسألون كما قال خطيبهم المظيم الاعن « عالم بعلم البيان أو قائد يجر عليهم ذلاً حميدا ... »

فصب عليهم العذاب لما هاجمتهم جحافل مكدونيا وكتائب الرومان فعصبوهم بشدة واطبقوا عليهم الذل حتى كادوا يقتلون عن آخرهم في العذاب والهون

ثم انتقل مصباح المدنية الى ايدى الرومان فاناروه عَلَى العالم وزادوا فيه بهاء فسادت فيهم فضائل قامت بها عظمة اليونان سيادة اشد متانة وارسخ حكمة وابلغ قصداً ، فافتتحوا ما يحيط بالبحر المتوسط من الارض واصلحوا البلاد وهذبوا الناس عَلَى حين أن تمدن الشرق كان يتضاءل بانشقاقه ويتزعزع بنصر الاسكندر (اعظم ملوك مكدونية تولى العرش سنة ٣٣٦ ق) المؤزر ويرجع القهقرى ويتداعى الى

العبودية والطاعة العمياء

احيى الرومان في انفسهم حب الوطن وحب الحرية فكانوا قادة بني الانسان يغلبون عليهم بالسياسة البالغة و بالقوة المحكمة، فهم احامد اماجد كاليونان ولو اختلفوا اصلاً، الا وان الذي جعل اليونان اشداء عظماء جعل الرومان ايضاً والذي اوقر ظهر اليونان واوقعهم في المذلة اوقر الرومان وضامهم ايضاً

دخل التردد والفساد في انفسهم وجرّ وراءه البؤس والذل والشغب حتى جسم الفساد واستفحل الداء لغاية لم ينهضوا بعدها قط ولم تتجدد لهم دولة، ففقدوا شجاعتهم ومجدهم، وساد بين نساءهم البغاء وانشقوا شطرين فريقاً عبيداً يتمردون وفريقاً في القيود يرفسون حتى ماتت تلك الامة القوية المجيدة في الهون

فاضمحل اليونان بالشغب او الشعث واندرس الرومان بالاستبداد المهين وكان جزاء الأُمتين جزاءً واحداً، جزاء ذل واستئصال على أيدي الغزاة . تلك عبرة هائلة للنابتة ولأُمم المستقبل

واعلم ان يد الرومان كانت عَلَى جميع أُمم الغرب، فلما اندثرت حضارتهم اندثرت الحضارة من حيث هي ومضت عَلَى الغرب قرون جهل ومحن شديدة اوقدها البرابرة الذين لم ينجع الدين في تهذيبهم حتى كاد الانسان لا يميز اخاه في هذا الليل البهيم

وما لبثت حتى كادت تسيطر عليها وعلى بقايا اليونان والرومان حملة هائلة شنها المسلمون فامتدت الى شمال افريقيا و بلاد الاندلس وارض الفرنسيس فلم يدفعها احد من الأمم لانها كانت عظيمة بحيث كان كل دفاع عبثاً

افتتحت بلاد الاندلس وقضي على أمم المغرب من قبل المشرق انتقاماً له مما انتابه من قبل اليونان والرومان، فاصبح الشرق مسيطراً على اوروبة يقهر تحت سلطانه العظيم أمم الغرب التي لم يكن امام اعينها الا الموت بين السكرات المتوالية الا ان شارل مارتل (احد ملوك الفرنسيس ٦٨٩—٧٤١) قد تمكن من رد هجمات المسلمين يوم بوته (احد مدن فرنسا تبعد عن باريس ٣٣٢ كيلو متراً)

. . . . . .

فظهرت الحضارة بمظهر جديد من الوجهة المادية بسبب المخترعات وتطبيق العلم على لزوميات الحياة

فان الانسان بعد ان اكتشف النار واستخدمها عصوراً مديدة للذب عن نفسه وتجهيز الطعام وحاجيات الحياة علم ان بوسعه ان يستنفع منها اكثر من ذلك، فرأى ان الحرارة تولد القوة وتغير المادة حتى اصبح الوهم لديه جائزاً يتحقق ابرازه للوجود فاخترع آلة البخار واكتشف ينابيع الحرارة واستخرجها من باطن الارض واستعملها في

المعامل والقطر الحديدية والمراكب ، ووقف عَلَى الكهرباء فاخترع سلك البرق والمسرّة والنور ومخترعات أُخرى مدهشة لم يك يسمع بها من قبل

فتسيطر الانسان بهذه القوى المكتشفة والعلم والصناعة عَلَى الوجود فسخّره وامتهنه لشؤونه فالانسان ، ايها الانسان ، سلطان الابتداع والاختراع

واعلم ان أُمم الغرب كالاسبانيول والهولانديين والانكليز والفرنسيس اخذت كما اخذت أُمم الحضارة من قبل كاليونان والرومان بان تنشر لواءها عَلَى اقطار الارض وتسيطر عَلَى الأُمم المنحطة وتهيمن عَلَى من لم يكمل ترقيه من الدول

نحت تلك الامم ذلك النحو فمنها من اكدى ومنها من اعمل الحزم والاقدام فبلغ امنيته بعد اخفاق المسعى ، واعلم ان لكل أُمة شعرت في نفسها القوة والهداية للامم والزعامة عَلَى المنحطين او الهمج الذين لم تهذبهم حضارة الغرب ان تطالب بشطر من السلطة عليهم ، فان تلك قضية يشرف التعويل عليها وتفيد معالجتها بانها تزيد في رغد من يعمل بها وفي قوة من يتبع خطتها

نعم ان امم الغرب لم تقم في الحقيقة بما ينبغي لها ولم تتصد للمصاعب في الاستعمار ، بل انها افتتحت عَلَى الراحة بلاد افريقية

ومدت يدها على شعوبها البرابرة الذين وجدتهم في طريقها، وهكذا الحال مع الاميركان فانهم غلبوا على الزنوج الذين نازعوهم الامر وفرقوهم طرائق واجهزوا عليهم حتى كاد العنصر الاسود في افريقية وعنصر الزنوج في امريكا لا يبلان من علة الانحطاط لانه ليس لديهم من الامور العقلية والادبية مايدفعهم للمقاومة

تصادمت امم المغرب مع المشرق ذات المرار فاراد المغرب ان تكون له الكلمة العليا فاخفق حتى اذا استلّ الاسلحة التي اقامها العلم والغنى اضطر مصادريه الى الطاعة وكانت له النتيجة الحسنة لو لم يعقبها ما لا ينبغي ولا ينتظر

فان لرجال الشرق الاقصى نزوات في رؤوسهم ومخايل ذكاء على وجوههم اجاز لهم تمدنهم ولو كان على نقص وفساد ان يفهموا حقيقة ما به قوّتنا، فعزم منهم قبيل وتردد آخرون حتى سارعوا الى حمل الاسلحة التي نحملها فدافعوا عن انفسهم اولاً ثم تراكضوا وافتاتوا علينا حين آن لهم الاوان

فنهض العنصر الاصفر وعدده خمسماية مليون على الاقل وفي مكنته ان يكتب الكتائب للحرب، وها قد مُثّل الفصل الاول من المأساة على مسرح شمال الصين بين أمة الروس من الغرب وامة اليابان من الشرق وعلمنا ما اصاب الروس من الخسران المبين

ولسائل ان يقول متى تمثل بقية الفصول ؟ أقريب موعده أم بعيد ؟

— الجواب لا علم للناس بذلك فان كل امر جائز، بيد ان الحقيقة هي ان امم الغرب كانت تحسب ان حضارتها بذت حضارة جميع الامم فوجدت اليوم ما يزاحمها اعني بها حضارة الشرق الاقصى

اذا التحم القتال بين المشرقين كان مخوفا هائلا يخطر امم الغرب كلما تأخر امده، فاعلموا، ايها الناس، ان دفع تلك الغائلة لا تكون في الثقة العمياء بالناس ولا في اتباع من قالوا بحب الانسانية ،فالواجب يدعونا إلى ان نستيقظ ونفترص الوقت ونتحين الزمن ونكون عَلَى اهبة الاستعداد ، وان لا نسلك سبل جماهير اليونان الذي تفصمت عراهم وفسدت أخلاقهم وتثبطت عزائمهم عَلَى حين كانت تعظم بالقرب منهم أمة الرومان والمكدونيين الذين قهروهم واهلكوهم

واعلم ان الحرب باسلحة النار كانت في سالف العصور مستحيلة لما تستلزم من المصاريف في نقل الذخيرة ، اما اليوم فقد امتدت السكك الحديدية وتيسر حمل السيف عَلَى عضد جنكيز خان ليحملوا حملاته عَلَى امم الغرب

عَلَى انه وان كان ذلك بعيداً فالواجب ان نستدرك الامر ونجعله من مستحيلات الزمان ونزوي عن الانسانية شر ما يتهددها

من الازمات الكبرى

فالافق ايها القوم، مدلهم فاقدموا وابحثوا فيما يكنّ المستقبل للامم تجدوا ان المستبصرين والاشداء ستكون لهم المكانات العلى ، ذلك ما نبتغيه لأمتنا وعليه فقد وجب على هذه الامة ان تكون قوية عاملة في مصاف الاول من الامم، تقود الناس وتهديهم صراطاً مستقيماً، وان تكون اليوم كما كانت البارحة، وان تكون غدا كما هي اليوم اول ساع في الحضارة ومدافع عن المدنية

فان قوتها ونبوغ الدهاة بين رجالها لمن الضرورة الكبرى لأمم الارض، الاوانكم ايها الناشئون الذين ارعوا السمع الى هذا المقال قد علمتم ان خير واسطة واحسن امر لمحبة بني الانسان ان تحبوا أمتكم وتكرموا وطنكم فاسعوا في اعلاء كلمتكم تسعوا في مصلحة البشر

تم الكتاب

الالفاظ اللغوية

بيان ما يتعذر على التلامذة فهمه من الالفاظ الواردة في الكتاب

المقدمة

مدارجها	جمع مدرج وهو المسلك	يوآنسه	يبصره
النشء	جمع ناشئ وهو الغلام	يثوخون	يتحرون في الطلب
يوالي	يتابع	يسلس	يلين
الأسرة	رهط الرجل واهل بيته	الجأش	القلب والنفس
حجرها	منزلها	قام على	سيطر
منهج	طريق واضح	يهيب به	يدعو
ذرّفت	زدت	تباين	تباعد
اتاحت	هيأت وقدرت	يمير	يطعم أهله
حدابي	ساقني	ذراريه	نسله
مباسطة القول	ابداؤه	يدأب	يجد ويتعب
النابتة	النشء الصغار	يستهمّ	يُعنى
نبس	تكلم	الحوزه	الناحية
نذرت حباً	اوجبته على نفسي	الحمى	مايحميه الرجل
توسمت	تبينت	تثوثق	تثقوى
يتنسمه	يتشممه	تتذمم	تستنكف
يتوقعه	ينتظره	تنكب	تبتعد

تضع يدها عن	تكف
ربط على القلب	تصبر
نفض يديه	تخلص
نسم	جراثيم وميكروبات ومنه الحديث الشريف « تنكبوا الغبار فمنه تكون النسمة »
توعد	تنذر
تأبه لمصائب	تخشى
الروع	القلب والعقل
ينكص	يرجع
تبعة	مسؤلية
الكوارث	الشديدة
الذب	المنع والدفع
رائعة النهار	معظمه نوراً
سدفة الليل	ظلمته
الملمة	المصيبة الشديدة
ناصب	قاوم
يصادر	يناهض
تخرص	افترى
زرى عليه	عابه
نعى عليه	عابه
نظر لِ	اعان
بدوات	جمع بداة وهو الخاطر الاول
حفل به	بالى به
توفرت	تمت
الأثرة	الانانية
خار	ضعف
ديموقراطية	تحكم نفسها بنفسها يعقد الخناصر يعاهد
النائرة والفائرة	الثورة
ازكى	خير وأطيب
الوبال	الشديد وسوء العاقبة
الأثرة	المكرمة المنوارثة
اهل الكُفى	المكتفون من قوتهم
غرماء	جمع غريم وهو المديون
درء	دفع
المبرم	الذي لامناص منه
وثيقة القوى	قوية شديدة
غضراء العيش	خضراؤه
ضعة	ذل
الغضاضة	المنقصة
الزوآم	الكريه او السريع
اللاعج	المحرق
تنوا	تفتروا

يختلب	يجتذب	الازر	الظهر
غابر	ماضي	البلغة	ما يكتفي به
تتخرم	تنشق وتسقط		
الاعراء	جمع عرو وهو الفتى لا يبالي بأمره		

الباب الاول

الملكة	الصفة الراسخة للنفس	تنهنه	كف
تنضوي	تنضم	غربه	حدته
ملاك	قوام	ثاب	رجع
المراس	المزاولة	عبثت	لعبت
تستثب	تستقيم	تستهويه	تستولي عليه
تصدى	تعرض	تستدرجه	تجعله يدرج
يقمع	يردع ويقهر	يغلمون	يُغلبون شهوة
يقدع	يكف ويزجر	تطير بهم	تخف بهم
استنصر	طلب النصرة	ذريعة	وسيلة
نأى	ابتعد	تلابيب	جمع تلبيب وهو جمع الثياب
استشاط	التهب		
تميّز	تقطع	مدخر	ما يدخره الرجل
باخ	سكن	يعزف	يزهد ويمل

يهيمن	يراقب
يتطامن	يخفض اجلالاً
يساهمها	يشاطرها
سورته	حدته
يزوّر	يعدل ويعرض
همسات قلبه	حديثه الخفي
تروده الى	تأخذه الى
يصدف	ينصرف ويميل
معالجة	مزاولة
بياض نهاره	كل نهاره
حجيراته	بيوته الصغيرة التي يتركب منها العقل وهي ما يدعى بالافرنسية (*Cellules*)
سوّلت	أغوت
كشحاً	وشاحاً
يمضي في الامر	ينفذ فيه
سكانها	دفتها
تأذن	تبيح
وطّن على	حمل على
يقضي الى	ينتهي الى
مستطيرة	منتشرة
وسدّ الى	اسند الى
الحدس	الظن
صمد	قصد
استهدفتني	جعلتني هدفاً
خلص اليّ	انتهى اليّ
احادير	جمع أحدور وهو المكان ينزل منه الى اسفل
تطاول الى	وصل الى
بدرت	ظهرت
مواس الخير	من مسّك اذا اصابك
لوى على	اكتنف
معمعان التنازع	شدته
تقوّض	تهدّم
يُثل	يهدم
انتابها	اصابها
اطنابه	حبال تشد بها البيوت
يعتمون	يلبثون
يبرم بهم	يحرجون
المرافق	المصالح
اترابه	رفقاؤه
تجيز	تعطيه جائزة
عني به	تعب فيه
ادمن على	ثابر

سوّف هواه	صنع به ما يشاء
كبت	أذل
اناف عَلَى	زاد
سكن الى	ارتاح
يمكّن لها	يجعل لها سلطان
اشرف عَلَى	اطلع من فوق
ناوىء	قاوم
الدّ	شديد الخصومة
عرض له	ظهر عليه
لجّ به	الحّ عليه
ازاغ عن	اماله عن
جبه	قاوم
ربض له	انتظره باركا
روّح	أنعش
كابرت	عاندت
عوانًا	اشد الحروب
تسرّب	دخل
دان له	أطاعه
اضرب عن	امتنع
العنت	المشقة
تجشم	تكلف عَلَى مشقة
طأطأ	انحنى
اذعن له	خضع

تلكأوا	تأخروا
دربنا	اعتدنا
ارهقنا	أعسرنا
بهظ	ثقيل
روح	سرور
اجتزىء	اكتفى
لامحيص	لامحيد
تقصى بنظره	بلغ الغاية في نظره
وقع علي	أصاب
روى في	تمعن برويّة
حبابه	احب الامور اليه
استنام له	استأنس به
تشعبت	تفرعت
اشتبك	تداخل
درج عليه	اعتاده
تضافرت	تجمعت
ضرب عَلَى يدها	منعها
عقر دارها	وسطها واصلها
تصارخ	تنادي
الطوى	الجوع
يحث	يدفع
يعتد بها	يبالي بها
تجوس	تدور

الخطل	الزلل
معيلين	مفتقرين
قصد الى	سافر
غشيهم	نزلهم
خرق	حماقة
ينبو	يأبى
يتقزز	يتباعد
يتضورون	يصرخون جوعاً
تكابره	تعانده
بحذافيره	بأسره
زكى اصلها	طاب
شائبة	عائبة
عاقصاً بقرنه	النوى قرناه عَلَى أُذنيه والكناية انه يرجع كالتيس عاقصاً
يستظهرون	يغلبون
التحمت الحرب	اشتبكت
فرائصي	جمع فريصة وهي اللحمة بين الجنب والكتف
تشوبه	تمازجه
الحفيظة	الغضب
اختلاجك	اضطرابك
ذات المرار	كثيراً
رابط الجأش	ثابت القلب
يصطك	يضطرب
لعلعة المدافع	دويها
يخامره	يخالطه
يخالجه	يخامره
اللأواء	النازلة الشديدة
هان امره	ذل
يمكن لنفسه من	يستوثق
كبّ	ملازم للعمل
القوارع	النوازل
مرزئة	مصيبة
بادر الاعداء	عاجلهم
ينتقع	يتغير
ينصل	يزول
غير مشفق	غير خائف
كوب	قدح
الروع	القلب
تنكر	تغير
الارباب	الآلهة
تحلّق	اكتنفه كالحلقة
مريدوه	تلاميذه
يعولون	يرفعون صوتهم بالبكاء
تتثبط	تضعف

خندق	حصر
احتضر	حضره الموت
سداه	سدى الثوب ما مدّ من خيوطه
يحثه	ما جاء من الخيوط عرفه
ضاقوا ذرعًا	ضعفت طاقتهم
تموه	تمتلئ ماء
اشايعهم	اتابعهم
تحاميًا من	اتقاءً من
تغاويًا	اتقاء من
المعهدات	جمع عهده وهي المسؤلية
انتلم	انكسر
نصابها	اصلها
غشوا	دخلوا
ارتد عَلَى اثره	رجع
يجترجها	يكتسبها
يصدع به	يجاهر به
حاكت	أثرت وعملت
يتشيع	يستهلك في الهوى
مداج	منافق
محاب	منحرف عن الحق

الخائر	الضعيف الفاتر
غارب	ماضٍ
ضرعة	مذللة
لغوب	اشد الاعياء
اعياء	تعب
اشرأب	مدّ عنقه
تاقت	اشتاقت
يرباء عن	يرفع عن
اسدى	احسن
الاكناف	النواحي
مترامية	بعيدة
الموسرين	الاغنياء
المحاويج	المحتاجون
العجماوات	البهائم
تخرج في	تدرّب
يعكفه عن	يمنعه عن
تأسوا	تحزنوا
شرخ الحياة	اولها
ريعان الشباب	افضله
تروحوا النفس	تنعشوها
ساورت	واثبت
يظاهر عَلَى	يعاون

كدح	جهد النفس عَلَى العمل
مثلوج الفوآد	مسرور القلب
تعثوره	تتداوله
ينصاع الى	يرجع
احفاء	ترديداً
يملك عليه	يستولي عليه
يسترسل في	يتسع
عنفوان شباب	اول بهجته
زوي عنه	نحاه وصرفه
معاير	معايب
ينقر عن	يبحث عن
يشذ بها	يصلحها
سوآته	معايبه
اتبلغ	اكتفى
نتلمسها	نتطلبها
قسراً	قهراً
تعالجها عَلَى	تزاولها
تعكف عَلَى	تقبل عَلَى
ندحة	سعة وفسحة
الغمر	الجاهل الابله
يطوح بالمرء	يقذف به
يودي به	يهلكه
استكانت له	خضعت له

يواقع	يداني
يتنقصها	يأخذ منها
تتجمّ	تستجمع
عنت	مشقة
رواحة	منعشة
أمن	طمأنينة
سربه	قلبه
يقتفي اثرها	يتبعها
وفره ونزره	كثرته وقلته
وحراً	حقداً
وغراً	بغضاً
البيئة	الوسط والمربي والمنشأ
آصرة	ماعطفك عَلَى رجل من رحم او قرابة
نتضافر	نتجمع
توازروا	تعاونوا
تربض	تبرك تنتظر
تتربص	تنتظر
حاصت	حامت
لابت	حامت حول الماء
وهنت	ضعفت
الحدثان	نوائب الدهر
استحسر	اعيا

اعتلاج	تضارب
بلغ الكمال بأمه بمعظمه واصله	
بله	دع
ترنّق	تكدر
ترعرعوا	نشأوا
انداد	الرفقاء الامثال
المغامز	المعايب
الملامز	الشوائب
يغشي حقيقة امره	يغطيها
التكلف	التمدح بما ليس فيه
نزغته نفسه الى حشته	
بزته	هيئته وثيابه
يرتاد	يطلب
نسدل	نستر
فاووهة	يبوح بكل ما في نفسه
القحة	الغلاظة والجفاء
الظلالة	ما يستظل به
الخلاطة	قلة العقل
توبلت	مازجته النوابل
معاناة	مزاولة
تتداعى الى	تقبل
يقرضها	يميتها
يتألب عليها	يتغلب عليها
تقوى	تفنى
زعازع	ريح شديدة
ركام	المتراكمة بعضه فوق بعض
حراصاً	حريصين
قضكم	صغيركم
قضيضكم	كبيركم
وحشة القلوب بعدها عن المودة	
مشخشحين	قلال الخير
تخلفوا الاحسان	تنكصوا عنه
العارفة	المعروف
اللحد	القبر
اكفهر	اشتد ظلامه
نقص	ذهب الى الغاية
أمم	قرب
لوى عن	رجع
شوائبه	معايبه
يثلج	يسر
نعرة الفطرة	خيلاؤها
خلد	بال وقلب
يحنق	يغضب
الاحتفاء بها	الاحتفال بها
هجنة	استهجان
نتلمسك ونتجسسك	نتفحصك

الاشفاق	جمع شفق
صمد	من لاجوف له
الغلة	العطش
اغضى عنها	سكت عنها
عتاده	عدته
تخيروها	اختاروها
يدأبوا النفس يجهدوها	
يتحراها	يتطلبها
تتعاورها	تتداولها
ينظر نعماً	ينظر مدققاً
الخلطاء	العشراء
تلثووا عن	ترجعوا عن
مشاغب	مشكلات الشر
اكتظت	امتلأت
الهجر	الكلام البذيء
نميط عن	نبعد عن
يسرّني عنه	يطرد عنه
وقراً في	اثراً في
يختلف اليها	يتردد اليها
يترسمه	يتأمله
ستؤثر	ستنقل اثر
اساطين	حكماء
طياشاً	خفيفاً

عمرت	طال عمري
تعاهده بالعمل	لم يتركه
نستعصم	نحفظ
كارثة	هم
تستحدر	تفتر
يعروها	يصيبها
غرّة	غفلة
المصاح	المستشفيات
الخطار	الاخطار
مصحة	مجلبة للصحة
تزجيها	تسوقها
صاغرة	ذليلة
المهين	المراقب
المقعدين	من لزمهم القعاد
فدلف	فتقرب زحفا
وكد	السعي والجهد
جاشت	هاجت
قفيّ	اتبع
اسارير	الخدان والوجنتان
امت	أصل
استل	انتزع
تبينت	فهمت
بكرة ابيها	اصلها

اديمة	بشرته	الخطر	المشي
صدقة	صحيحة		

الباب الثاني

معصما	حافظاً	امارات	علامات
كنفا	حرزاً	ضراعة السن	صغره
سكن لها	استأنس بها	تضمد	تمسحه وتشده
طوى عليها قلبه	احبها شديداً	تلاحمت	اشتبكت
روحه	راحته	وثائق	علائق
وهت	ضعفت	يفرش المحبة	يبثها
اعراقهم	اصلهم	يواتر	يتابع
الاغارقة	اليونان	عنيا	جاوز الحد من العمر
نسل منهم	ولد منهم	اشخص	ارفع
اسداء المعروف	احسانه	تحدب عليهم	تعطف
جزاك	من اجلك	عائدة	معروف
براً	رفقاً	اشتبكت	تداخلت
قصصاً في اثر	اتباعاً	المخالقة	المعاشرة
تكاد	كابدا	دينوا	عاملوا ، احسنوا الى
صليا	قاسيا	نافسوا	زاحموا
غير مشوب	غير مختلط	النوء	المطر
تفرط منه	تبدر منه عن خطأ	اعباء	اثقال
شب عن طوق	خرج	شق	مشقة

الادران	الاوساخ
خير	جعل له الخير
يحدو عنه	يسوق
مسحة	اثر
روعة الجمال	محته
يأزر	يقوي
يسبلك	يهديك السبيل
جنبات	نواحي
حلّ	حلال
يتواثقا	يقسما
يقوم المرأة	يقوم بشأنها
مكنته	قدرته واستطاعته
يمونا	يقوما بالطعام
يتجافى عن	يتنحى
الهمجة	الرعاع الحمق
انثنى	ابتعد
اجترم	ارتكب
اكتاده	اكتافه
الأسرة	العائلة
مدلهم	شديد الظلمة
حبا	دنا
يمتار	يقوم بالاطعام
وثاقاً	رباطاً

من جراء ذلك	بسبب ذلك
قوّام	مسيطر
تني	تكل
مآنهم	طعامهم
جُعله	اجره وراتبه
الفرنسة	حسن التدبير لامور البيت
غشى ذهنها	علق بها
تكتنفها	تحيط بها
المثالب	النقائص والمعايب
لسمته	لطريقه
مستطير	منتشر
انحى	أقبل
ترزأ	تصيب
رثاثة وبذاذة	مصدران لرث وبذ ومعناهما بلى
متربة	فاقة وحاجة
ساموه	اولوه والقوا به
ارذل العمر	آخره حال الكبر
استد	استقام
شظف	ضيق
خصاصة	فقر
خفت	سكون
أبرما التقدير	احكماه

يحدبان عليه	يعطفان
اقتار	فقر
مضاضة	ألم
شباب غض	نضر
جمال رائع	رائق
جماً	كثيراً
اعلاق	ماينعلق به
ينفيل	يضعف
أبا	صار أبّاً
معدم	فقير
يدقعه	يهلكه
اقنى	اغنى
نهمة	شهوة
الرياش	الغنى واللباس الفاخر
ارتاشوا	حسنت حالهم وكثر مالهم
قائماً اسرته	قائماً بامورها
دربة	عادة
احضأوا	اوقدوا
يتحاماه	يتجنبه
ينكل	يصيبه بنازلة
يشرّد بها	يفرق شملها
استشرى	تعاظم
تجتث	تقلع

شنع عليهم	اساء سمعتهم
حيدي حياد	اعتزلي
جثوا	اقاموا
شفا	حرف وطرف
وثيق العقدة متينها	
الاثريين	الباحثون عن الآثار القديمة
الهوادة	اللين والرفق
الفواجع	النوازل
مخايل الشباب	ملامح
خطم أنفه	ذل نفسه
شوابك	علائق
صداق	مهر
رواء	حسن المنظر
الدُمى	جمع دمية وهي الصورة المنقشة
القوارع	الفواجع
والروائع	الفواجع الهائلة
يقرعها	يضر بها
جلجلان القلب	حبته
قرارة النفس	قاعها العميق
جائحة	نازلة
فادحة	نازلة

ترهقها	تغشاها عسراً	ستلهم	ستبتلع
ثبط	تعوّق وفتور	تستلحم	تنشب فيه
اربوا	زادوا	شعوب	الموت
جزافًا	دون قياس	طباب	ما يطبب به
انهيال	تتابع	آلوا	اقسموا
نزعوى	نكف	اشفاء	اطراف وحروف
ادالة	نزع الدولة من	تصدعوا	تجهروا بالقول

الباب الثالث

أتلمس	اتطلب	ينوّه	يمدح
يطوّح	يهلك	وصمة	عار
عرقنا	امتدت عروقها	يقرع صفاتهم	ينتقصهم ويعيبهم
النصفة	الانصاف	تواقعوا الى	وقعوا وراء بعضهم
الاحقاب	الدهور	الوهدة	الهوّة
الاجتياح	الاهلاك	زكمة السوء	ابناء غير صالحين
تشينها	تعيبها		اعقاب المستقبل ابناؤه
تحتف	تحف	يذكى	يشعل
بتحدّيه	بتعمده	يصلى	يوقد
همهمة	مراقبة	يدين لها	يطيعها
دركات	مسؤليات	مستأثر	مستبد

يتنصلون	يتبرأون	يجترحوا	يرتكبوا
اوده	اعوجاجه	يعيل	يكفي المعاش
دخل	ما يدخل الرجل من المال	فوره	في الوقت الذي لاتأخر فيه
يسبروا	يختبروا	تخد	تشق
غور	قعر	المعبدة	الممهدة
متلبساً	مختلطاً	يتسللوا	ينسحبوا في استخفاء
الشغب	تهييج الشر	ايثار	تفضيل
يبتزون	يستلبون	افضنا	اكثرنا
تقعر	تشدق	رزح	القى نفسه اعياءً
قرح	بثر في البدن	ارتياد	طلب
الحصافة	الرزانة	العُطَّل	جمع عاطل وهو من لاعمل له
ديدنا	دأباً		

الباب الرابع

اثيل	اصيل	تحاكي	تشابه
جابه	قاوم	احدوثته	اسمه الجميل
استفحل	تفاقم	اغريراق	فيضان
يلبسون	يغطون	عائدتها	معروفها
يشبكون	يخلطون	الصنيعة	المعروف

يتنصل	يتبرأ
الجنة	الجنون
تنهنه	تكف
رجّعوا	كرروا
تخثروا	تفتروا
خطب	خاطب المرأة
الجوائح	النوازل
الفوادح	الخطوب
يشق	يصعب
عرصة	ساحة
ناقع القلب	ساكن القلب
وطيس	تنّور
تأثلوا	اغتنوا
التجلية	السبق
استفرغ	بذل طاقته
تعهداً	تحفظاً
تنطع	تفصح وتشدق
متراصاً	متضاماً
شعاب جمع شعبة	وهي الصدع في الجبل
اودوا	اهلكوا
منحهم اكتافهم	سخروهم
حرّ القتل	اشتداده
تعفى	تمحى
يعقر	يقلع
باقية النسيم	باقية القوة
نستنصب	ننهض للمقاومة
يفت في	يضعف
غمارهم	لفيفهم
متعقباً	تتبعاً وتعقبا
رمية	قصد
الكفاف	الكفاية
استطارت	انتشرت
مستحصدة	مستحكمة
المرائر	القوة والعقل والاصالة
قمم	رؤوس
بطائح	جمع بطيحة وهي المسيل الواسع
مترامیات	متباعدات
اسياف	جمع سيف وهو ساحل البحر
رساتيق	قرى
تصهر	تذيب
امشاجها	اجزاؤها الداخلة مع بعضها
رأبت	جمعت
شعثها	تفرقها

بارقة	برق
شارقة	شمس
تهجن	تهلك
رفئت	ضمت بعضه الى بعض
يضارعها	يشابهها
يعتسف	يركبها عن جهل
الفائرة	الثورة
يقمعه	يردعه
استطالته	امتداده
ينكسه	يقلبه على رأسه
أم رأسه	جلدته التي تجمع الدماغ
منيت	بليت
ونية	فتور
بهمة الليل	ظلامه الشديد
تنهار	تسقط
حذقت الشعر	برعت فيه
رهوا	ساكنا
تبريح	اذى
جفت	ثقلت
كبوتنا	انكبابنا على وجوهنا
انتجعوا	اطلبوا
الاياس	اليأس

تقدحها	تثقلها
تضطلع	تنهض بالحمل
تركسهم	تنكسهم
وعثاء	مشقة
تحيفت	تنقصت
توادعها	تسالمها
النكيثة	النفس والقوة
عظيم الاجلاد والتجاليد	ضخماً قوياً
يعتزم	يعزم
بسطة ذرع	بسطة يد
يؤلي	يقسم
يرتهكون	تسترخي مفاصلهم
ذكى الصرامة	سريع المضاء
جلد الجوارح	قوي الاعضاء الخارجة
نأمتها	نغمتها
شظاياه	عظام ساقه
يبصّر	يعرّفه
تدججوا	دخلوا في سلاحهم
رجل	المشاة
اواخي	عرى
مسكة	ما يتمسك به
احتقبوا	ادخروا

تتسكع	تتخبط
تلكات	تأخرت
تحدّر	تنزل
حذوه	مثله
يحدق	يشدد النظر
ردم	سد
المصمت	ما لا فرجة فيه
المساوف	جمع مسافة
المثلة	العبرة بالماضي
يكتنهوا	يقفوا عَلَى الكنه
مجامع القلوب	جميع اجزائها
تخرج فيها	تدرب وتعلم
تكدي	ترد
اعاصير	ارياح ترتفع بتراب فتستدير كالعمود

عصبوهم	شدوهم
المؤزر	البالغ الشديد
اوقرظهرها	صدعها
البغاء	الزنا
يرفسون	يشدون
ينجع	ينفع
المسرة	التليفون
أكدى	اخفق
اجهزوا عليهم	أتموا قتلهم
نزوات	وثبات ومطامح
افتاتوا	استبدوا
بذتْ	فاقت
تفصمت	انكسرت

الاغلاط المطبعية

صحيفة	خطأ	صواب
١٧	زرفت	ذرّفت
٥٠	فذوى	فذوو
٧٥	الغِمر	الغَمر
٧٧	جارل	رجال
٨٤	تُنشيء	تنشئ
٨٨	رقدها	رقدتها
١٠٥	الغنى	الفتى
١٤٥	لايروا	بان لايروا
٢٣٣	يستنب	يستنبت
٢٤١	لعبئهم	بعبئهم
٢٤٢	مستضامين	مضامين
٢٤٥	تردد	تتردد
٢٤٧	تنكصوا	ولا تنكصوا
٢٥٢	ثأيها	نأيها
٢٦٥	الذي	الذين

فهرست الكتاب

١٧ مقدمة المؤلف

الباب الأول وفصوله

٢٨ الارادة والملكة

٤٠ الواجب

٥١ الإقدام

٦٥ السعي والعمل

٧٣ تهذيب الاخلاق

٨٣ العدل والاخاء

٩١ الحرية والتسامح

٩٨ تهذيب العقل

١٠٧ تأثير الاخلاق في الجسم

الباب الثاني وفصوله

١١٧ ذوو القربى والارحام

١٢٦ المحبة والوداد

١٣١ الزواج

١٤١ البنون

١٤٩ السعادة والثراء

١٥٧ نقص الانفس

الباب الثالث وفصوله

١٦٨ الديموقراطية

١٧٣ الدستور

١٨١ الواجبات الوطنية

١٨٩ المساواة في الحقوق

١٩٥ انواع الحرية

٢٠٣ التعليم

٢٠٨ التعاون وتدارك البؤس

الباب الرابع وفصوله

حب الوطن	٢١٥
السفسطائيون	٢٢٥
هـذ الامة	٢٣٢
قوى الوطن	٢٤١
الحرب	٢٤٨
الجنس البشري	٢٥٤

الالفاظ اللغوية	٢٦٧

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 025333103

كليلة ودمنه

لبيدبا الفيلسوف الهندي

عرّبها عن الفهلوية المنشئ البليغ واللغوي الشهير

عبد الله بن المقفع

طبعة جديدة مزدانة بست وثمانين صورة
مأخوذة عن نسخة خطية قديمة

صححها وعلق حواشيها بكمال الدقة والاعتناء

احمد حسن طباره

بنفقة وعناية

المكتبة الاهلية . في بيروت

ثمنها ٢٥ مليما

2269
.297
.352

LIBRARY

OF

PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 063973877

DOUMER

KITĀB AL-BANĪN

RECAP

269.297.352